الإيجاز والبيان
في
علوم القرآن

فضيلة الشيخ
محمد الصادق قمحاوي
من علماء الأزهر الشريف

دار العقيدة



وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا

الطبعة الأولى

٢٠٠٦م - ١٤٢٦هـ

رقم الإيداع : ٢٢٣٨٠ / ٢٠٠٥

الترقيم الدولى : 6 - 080 - 374 - 977

العصرية للطباعة

هاتف : ٢٩٨٤٣٧٥

فاكس : ٢٤٣٣٢٤٩

محمول : ٠١٠١٩٠٠٠٣٨١

دار العقيدة

طبع * نشر * توزيع

دار العقيدة

الإسكندرية : ١٠١ ش الفتح باكوس ت : ٠٣/٥٧٤٧٣٢١ ف : ٠٣/٥٧٦٥٦٢١

القاهرة : ٣ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر ت : ٠٠٢٠٢/٥١٤٣١٧٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله مُنزِّل القرآن، وملهم البيان، فضّل ديننا على سائر الأديان، وأكرمنا برسالة خير الأنام، عبده ورسوله وصفيه وخليله، وخيرته من خلقه محمد بن عبدالله الذى محا الله به الرجس وعبادة الأصنام، وأكرمه بمعجزة القرآن، المستمرة على تعاقب الدهور والأزمان، والتى تحدى بها جميع الخلق من إنس وجان، وأفحم بها جميع أهل الزيغ والطغيان، وجعله ربيعاً لقلوب أهل البصائر والشكر والعرفان، فلا يَخْلُق على كثرة الرد وتغاير الأحيان، وقد يسّره للذكر حتى استظهره الشيب والولدان، وضمن لنا حفظه من تطرق التغيير والحدثان بوعده الحق وقوله الصدق، ووعده عز وجل لا يتخلف فقال عز من قائل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ (الحجر:٩).

وقد وفّق الله للعناية بعلوم القرآن من اصطفاهم من أهل الحذق والإتقان، فجمعوا فيها من كل فن ما ينشرح له صدر أهل النعمة والإيمان، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، شهادة محصّلة للرحمة والغفران، منقذة لصاحبها من هول الجحيم والنيران، موصلة له إلى سكنى أهل النعيم فى أعلى الجنان.

أما بعد، فقد منَّ الله عز وجل على الأمة الإسلامية بعد أن تكامل نضج الخليقة والإنسانية، وأراد الله فى علمه الأزلى لرسالة سيد البشر محمد ﷺ أن تشرق على الوجود، فبعثه على فترة وانقطاع من الرسل؛ ليكمل عقد إخوانه من الرسل السابقين بشريعته العامة وكتابه الخالد ومعجزاته العظمى «القرآن الكريم»، ففى حديث رسول الله ﷺ: **«مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون منه، ويقولون: لولا هذه اللبنة، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين»** (متفق عليه).

فالقرآن الكريم رسالة الله إلى الإنسانية كافة، وقد تواترت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية على ذلك؛ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ (سبأ: ٢٨)، وقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧).

وقال: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ (الأنعام: ١٩).

وكان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة وبعث إلى الناس كافة، ففى «الصحيحين» من حديث: «**وأعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي...**» وغير ذلك كثير وكثير من القرآن والسنة.

فلا غرو من أن يأتى القرآن الكريم وافياً بجميع مطالب الحياة الإنسانية على الأسس الأولى للأديان السماوية، قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ (الشورى: ١٣).

وقد تحدى رسول الله ﷺ العرب بالقرآن مع أنه نزل بلسانهم، وهم أرباب الفصاحة والبيان، فعجزوا عن أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مثله، أو بسورة من مثله، فثبت له هذا الإعجاز، وبإعجازه ثبتت الرسالة المحمدية العامة.

كتب الله له الحفظ والنقل المتواتر دون تحريف أو تبديل، فمن أوصاف جبريل الذى نزل به: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ﴾ (الشعراء: ١٩٣).

ومن أوصافه وأوصاف المنزَّل عليه ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ٢٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ﴾ (التكوير: ١٩-٢٤).

وكذا قوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (الواقعة: ٧٧-٨٠).

ولم تكن هذه الميزة لكتاب آخر من الكتب السابقة؛ لأنها جاءت موقوتة بزمن خاص، وأقوام مخصوصين وجاء القرآن الكريم برسالته العامة لجميع الخلق، إنس وجن، عجم وعرب، شرق وغرب.

فتجاوزت رسالة القرآن الإنس إلى الجن، قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الأحقاف: ٢٩-٣١).

هذا والقرآن بتلك الخصائص يعالج المشكلات الإنسانية فى شتى مرافق الحياة الروحية والعقلية والبدنية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية علاجاً حكيماً، لأنه ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت:٤٢) ويضع لكل مشكلة بلسمها الشافى فى أسس عامة، ترسم الإنسانية خطاها، وتبنى عليها فى كل عصر ما يلائمها، فاكتسب بذلك صلاحيته لكل زمان ومكان، فهو دين البقاء والخلود، وما أروع ما قاله داعية الإسلام فى القرن الرابع عشر الإمام الشهيد حسن البنا فى رسالة التعاليم: (الإسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعاً فهو دولة ووطن، حكومة وأمة، وهو خلق وقوة، ورحمة وعدالة، وهو ثقافة وقانون، وعلم وقضاء، وهو مادة وثروة، وكسب وغنى، وهو جهاد ودعوة، وجيش وفكرة، كما هو عقيدة صادقة، وعبادة صحيحة سواء بسواء).

والإنسانية المعذبة اليوم فى ضميرها، المضطربة فى أنظمتها، المتداعية فى أخلاقها، لا عاصم لها من الهاوية التى تتردى فيها إلا القرآن، قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ (طه: ١٢٣-١٢٤).

والمسلمون هم وحدهم الذين يحملون المشعل وسط هذه النظم وتلك المبادئ السامية، حرى بهم أن ينفضوا أيديهم من كل بهرج زائف، وأن يقودوا الإنسانية الحائرة بالقرآن الكريم؛ حتى يأخذوا بيدها إلى شاطئ السلام والأمان، وكما كانت لهم الدولة بالقرآن فى الماضى؛ فإنها كذلك لن تكون لهم إلا به فى الحاضر والمستقبل.

والله أسأل أن يوفقنا للعمل بالقرآن واتباع هدى سيد الأنام، إنه سميع الدعاء، مجيب النداء.

محمد الصادق قمحاوى

المفتش بالأزهر الشريف

وبعد فنأخذ فى المقصود فنقول وبالله التوفيق:

التعريف العلمى للقرآن فى اللغة وفى الاصطلاح

يقولون (قرأ): يأتى بمعنى الجمع والضم والقراءة: ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض فى الترتيل، والقرآن فى الأصل كالقراءة مصدر قرأ قراءة وقرآناً.

قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ (القيامة: ١٧- ١٨)، أى قراءته، فهو مصدر على وزن (فُعلان) بالضم كالغفران والشكران، تقول: قرأته قرءاً وقراءةً وقرآناً، بمعنى واحد سُمّى به المقروء تسمية للمفعول بالمصدر، وقد خص القرآن بالكتاب المنزل على محمد ﷺ فصار له كالعلم الشخصى.

ويطلق بالاشتراك اللفظى على مجموع القرآن، وعلى كل آية من آياته، فإذا سمعت من يتلو آية من القرآن صح أن تقول: إنه يقرأ القرآن قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ (الأعراف: ٢٠٤).

وذكر بعض العلماء أن تسمية هذا الكتاب قرآناً من بين كتب الله تعالى لكونه جامعاً لثمرة كتبه، بل لجمعه ثمرة جميع العلوم، كما أشار تعالى إلى ذلك بقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ (النحل: ٨٩)، وقوله:﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ (الأنعام: ٣٨).

وذهب بعض العلماء إلى أن لفظ القرآن غير مهموز الأصل فى الاشتقاق، إما لأنه وضع علماً مرتجلاً على الكلام المنزل على النبى ﷺ، وليس مشتقاً من قرأ، وإما لأنه من قرن الشىء بالشىء إذا ضمه إليه، أو من القرائن؛ لأن آياته يشبه بعضها بعضاً فالنون أصلية-وهذا رأى مرجوح والصواب الأول.

والقرآن الكريم يتعذر تحديده بالتعاريف المنطقية ذات الأجناس والفصول والخواص، بحيث يكون تعريفه حداً حقيقياً، والحد الحقيقي: هو استحضاره معهوداً

فى الذهن، أو مشاهداً بالحس، كأن تشير إليه مكتوباً فى الصحف، أو مقروءاً باللسان، فنقول هو ما بين هاتين الدفتين، أو نقول هو ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الفاتحة:١-٢) ... إلى قوله: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾(الناس: ٦).

هذا ويذكر العلماء له تعريفاً اصطلاحياً يقرّب معناه ويميزه عن غيره، فيعرفونه بأنه: كلام الله القديم الأزلى المنزَّل على محمد ﷺ باللفظ والمعنى، المتعبد بتلاوته.

فـ(الكلام) جنس فى التعريف يشمل كل كلام، وإضافته إلى (الله) يخرج كلام غيره من الإنس والجن والملائكة. و(المنزل) يخرج كلام الله الذى استأثر به سبحانه ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا ﴾ (الكهف: ١٠٩)،﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (لقمان: ٢٧). وتقييد المنزل بكونه (على محمد ﷺ) يخرج ما أنزل على الأنبياء قبله، كالتوراة والإنجيل وغيرهما.

(المتعبد بتلاوته) يخرج قراءات الآحاد، والأحاديث القدسية- إن قلنا إنها منزلة من عند الله بألفاظها- لأن التعبد بتلاوته معناه الأمر بقراءته فى الصلاة وغيرها على وجه العبادة، وليست قراءة الآحاد والأحاديث القدسية كذلك. (المنقول إلينا نقلاً متواتراً) يخرج القراءات الشاذة صحيحة السند.

أسماء القرآن وأوصافه

وقد سماه الله بأسماء كثيرة

منها (القرآن): ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ (الإسراء: ٩).

و(الكتاب): ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ (الأنبياء: ١٠).

و(الفرقان): ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان: ١).

و (الذكر): ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩).

و(التنزيل): ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الشعراء: ١٩٢)، إلى غير ذلك مما ورد فى القرآن، وسيأتى بيان لذلك أكثر إن شاء الله.

وقد غلب من أسمائه: القرآن والكتاب، قال الدكتور محمد عبد الله دراز: روعى فى تسميته قرآناً كونه متلواً بالألسن، كما روعى فى تسميته كتاباً كونه مدوناً بالأقلام، فكلتا التسميتين من تسمية الشىء بالمعنى الواقع عليه.

وفى تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه فى موضعين لا فى موضع واحد، أعنى أنه يجب حفظه فى الصدور والسطور جميعاً، أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى، فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب المنقول إلينا جيلاً بعد جيل على هيئته التى وضع عليها أول مرة، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالإسناد الصحيح المتواتر.

وبهذه العناية المزدوجة التى بعثها فى نفوس الأمة المحمدية اقتداء بنبيها بقى القرآن محفوظاً فى حرز حريز، إنجازاً لوعد الله الذى تكفل بحفظه حيث يقول ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩)، وقد حقق الله وعده فلم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند.

وبيّن سر هذه التفرقة بأن سائر الكتب السماوية جىء بها على التوقيت لا التأبيد، وأن هذا القرآن جيء به مصدقاً لما بين يديه من الكتب ومهيمناً عليها، فكان جامعاً لما فيها من الحقائق الثابتة زائداً عليها بما شاء الله زيادته، وكان سائراً مسيرها، ولم يكن شىء منها ليسد مسده، فقضى الله أن يبقى حجة إلى قيام الساعة، وإذا قضى الله أمراً يسّر له أسبابه وهو الحكيم العليم.

أما وصفه فقد وصف الله القرآن بأوصاف كثيرة كذلك، منها أنه (نور) قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ (النساء: ١٧٤).

و(هدي) و(شفاء) و(رحمة) و(موعظة) قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس:٥٧).

و(مبارك): ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ (الأنعام: ٩٢).

و(مبين): ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ (المائدة: ١٥).

و(بشرى): ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: ٩٧).

و(عزيز): ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ (فصلت: ٤١).

و(مجيد): ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾ (البروج: ٢١).

و(بشير)، و(نذير): ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (٣-٤ فصلت).

وكل تسمية أو وصف فهو باعتبار معنى من معانى القرآن.

الفرق بين القرآن
والحديث القدسى والحديث النبوي

سبق تعريف القرآن، ولكى نعرف الفرق بينه وبين الحديث القدسى والحديث النبوى فلنقدم التعريفين الآتيين:

فالحديث النبوي:

أولاً الحديث فى اللغة: ضد القديم، ويطلق ويراد به كل كلام يتحدث به، وينقل ويبلغ الإنسان من جهة السمع أو الوحى فى يقظته أو منامه، وبهذا المعنى يسمى القرآن حديثاً، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ (النساء: ٨٧)،

وسمى ما يحدِّث به الإنسان فى نومه حديثاً، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ (يوسف: ١٠١).

والحديث فى الاصطلاح: ما أضيف إلى النبى ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة.

فالقول: كقوله ﷺ: **«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»** من حديث طويل رواه البخارى ومسلم عن عمر بن الخطاب.

والفعل كالذى ثبت عن تعليمه لأصحابه كيفية الصلاة ثم قال:**«صلوا كما رايتمونى أصلي»** رواه البخارى وما ثبت من كيفية حجه، بقوله: **«خذوا عنى مناسككم»** أخرجه مسلم وأحمد والنسائي.

والإقرار كأن يقر أمراً علمه عن أحد الصحابة من قول أو فعل سواء أكان ذلك فى حضرته ﷺ أم فى غيبته ثم بلغه، ومن أمثلته.

أكل الضب على مائدته ﷺ وما روى من أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً على سرية، وكان يقرأ لأصحابه فى صلاته، فيختم بـ ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ (الإخلاص: ١)، فلما رجعوا ذكروا ذلك له عليه الصلاة والسلام.

فقال: **«سلوه لأى شيء يصنع ذلك ؟»** فسألوه فقال: لأنها صفة الرحمن وأنا أحب أن أقرأ بها.

فقال النبى ﷺ: **«أخبروه أن الله يحبه»** رواه البخارى ومسلم.

والصفة: كما روي: «من أنه ﷺ، كان دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب، ولا فحاش، ولا عياب».

وأما الحديث القدسي:

فقد عرفنا معنى الحديث لغةً، والقدسي: نسبة إلى القدس، وهى نسبة تدل على التعظيم؛ لأن مادة الكلمة دالة على التنزيه والتطهير فى اللغة، فالتقديس: تنزيه الله تعالى والتقديس: التطهير. وتقدس: تطهر. قال تعالى على لسان ملائكته ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ (البقرة: ٣٠) : أى نطهر أنفسنا لك.

والحديث القدسى فى الاصطلاح: هو ما يضيفه النبى ﷺ إلى الله تعالى، أى أن النبى ﷺ يرويه على أنه من كلام الله، فالرسول راوٍ لكلام الله بلفظٍ من عنده، وإذا رواه أحد عن رسول الله مسنداً إلى الله -عز وجل- فيقول قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل، ومثال ذلك عن أبى هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: «**يد الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار**» أخرجه البخارى، وقد يكون بلفظ قال رسول الله، ومثاله عن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: يقول الله تعالى «**انا عند ظن عبدى بي، وانا معه إذا ذكرنى فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسي، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه**» أخرجه البخارى ومسلم.

وأما الفرق بين القرآن والحديث القدسي:

فاعلم أن هناك فروقاً كثيرة بين القرآن والحديث القدسي، ولكن سنذكر منها الأهم:

الأول: أن القرآن كلام الله الموحى إلى الرسول بلفظه، وتحدى به العرب فعجزوا عن أن يأتوا بمثله، كما فى قوله: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء: ٨٨) أو﴿بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ ﴾ (هود:١٣)، أو ﴿ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٣) فلا يزال التحدى به قائماً فهو معجزة خالدة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

والحديث القدسى وإن كان من كلام الله إلا أنه لم يقع به تحدٍ ولا إعجاز.

الثاني: أن القرآن الكريم لا ينسب إلا إلى الله تعالى، فيقال: قال الله تعالى والحديث القدسى كما سبق قد يروى مضافاً إلى الله، وتكون النسبة إليه حينئذ نسبة إنشاء فيقال: قال الله تعالى أو يقول الله تعالى، وقد يروى مضافاً إلى الرسول ﷺ وتكون النسبة حينئذ نسبة إخبار، لأنه ﷺ هو المخبر عن الله تعالى، فيقال قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل.

الثالث: أن القرآن الكريم جميعه منقول إلينا بالتواتر فهو قطعى الثبوت، والأحاديث القدسية أكثرها أخبار آحاد، فهى ظنية الثبوت، وقد يكون الحديث القدسى صحيحاً، وقد يكون حسناً وقد يكون ضعيفاً.

الرابع: أن القرآن الكريم من عند الله لفظاً ومعنى، فهو وحى باللفظ والمعنى، والحديث القدسي، معناه من عند الله ولفظه من عند الرسول ﷺ على الصحيح، فهو وحى بالمعنى دون اللفظ، ولذا تجوز روايته بالمعنى عند جمهور المحدثين.

الخامس: أن القرآن الكريم متعبد بتلاوته، فهو الذى تتعين القراءة به فى الصلاة، قال تعالى: ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ ﴾ (المزمل: ٢٠).

وقراءته عبادة يثيب الله عليها بما جاء فى الحديث: «**من قرأ حرفاً من كتاب الله تعالى فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ﴿الٓمٓ﴾ حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف**» رواه الترمذى عن ابن مسعود، وقال: حديث حسن صحيح.

والحديث القدسى لا يجزئ فى الصلاة، ويثيب الله على قراءته ثواباً عاماً، فلا يصدق فيه الثواب الذى ورد ذكره فى الحديث على قراءة القرآن، بكل حرف عشر حسنات.

أما الفرق بين الحديث القدسى والحديث النبوي:

فالحديث النبوى قسمان:

(قسم توقيفي) وهو الذى تلقى الرسول ﷺ مضمونه من الوحى فبينه للناس بكلامه، وهذا القسم وإن كان مضمونه منسوباً إلى الله فإنه - من حيث هو كلام- حرىٌّ بأن ينسب إلى الرسول ﷺ، لأن الكلام إنما ينسب إلى قائله وإن كان ما فيه من المعنى قد تلقاه عن غيره.

و(قسم غير توقيفي) وهو الذى استنبطه الرسول ﷺ من فهمه للقرآن، لأنه مبين له، أو استنبطه بالتأمل والاجتهاد.

وهذا القسم الاستنباطى الاجتهادى يقره الوحى إذا كان صواباً، وإذا وقع فيه خطأ جزئى نزل الوحى بما فيه الصواب، ومثاله ما كان فى أسرى بدر، فإن رسول الله ﷺ أخذ برأى أبى بكر وقبل منهم الفداء، فنزل القرآن الكريم معاتباً له: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ (الأنفال: ٦٧)، وليس هذا القسم كلام الله قطعاً.

ويتبين من ذلك: أن الأحاديث النبوية بقسميها: التوقيفي، والتوقيفى الاجتهادى الذى أقره الوحي، يمكن أن يقال فيها: إن مردها جميعاً بجملتها إلى الوحي، وهذا معنى قوله تعالى فى رسولنا ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ (النجم: ٣-٤).

والحديث القدسى معناه من عند الله عز وجل، يلقى إلى الرسول ﷺ بكيفية من كيفيات الوحى لا على التعيين، أما ألفاظه فمن عند الرسول ﷺ على الراجح، ونسبته إلى الله تعالى نسبة لمضمونه لا نسبة لألفاظه، ولو كان لفظه من عند الله لما كان هناك فرق بينه وبين القرآن، ولوقع التحدى بأسلوبه والتعبد بتلاوته، والله أعلم.

الوحى وتعريفه

الوحى هو أن يُعلم الله تعالى من اصطفاه من عباده كل ما أراد إطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم، ولكن بطريقة سرية خفية غير معتادة للبشر، ويكون الوحى على أنواع شتى، فمنه ما يكون مكالمة بين العبد وربه، كما كلم الله موسى تكليماً، ومنه ما يكون إلهاماً يقذفه الله فى قلب من اصطفاه على وجه من العلم الضرورى لا يستطيع له دفعاً، ولا يجد فيه شكاً، ومنه ما يكون مناماً صادقاً يجيء فى تحققه ووقوعه كما يجيء فلقُ الصبح فى تبلجه وسطوعه، ومنه ما يكون بواسطة أمين الوحى جبريل عليه السلام، وهو ملك كريم ذو قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثَمَّ أمين، وذلك النوع هو أكثر الأنواع، ووحى القرآن كله من هذا القبيل.

قال تعالى فى سورة الشعراء: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ

مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ (الشعراء: ١٩٣)، ويهبط هذا الوحى على أساليب شتى:

فتارة فى الأرض وكان يقول: أنا جبريل وأنت رسول هذه الأمة، وقد يظهر للرسول ﷺ فى صورته الحقيقية الملكية، فقد رآه على هذه الصورة مرتين فى أول نزوله بـ ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ (العلق: ١) وذلك فى الأرض، ومرة فى السماء ليلة المعراج وتارة يظهر فى صورة إنسان يراه الحاضرون ويستمعون إليه، وتارة يهبط على الرسول خفية لا يرى، ولكن يظهر أثره بالتغير والانفعال على صاحب الرسالة؛ فيغط غطيط النائم ويغيب غيبة كأنها غشية أو إغماء، وما هى فى شيء من الغشية والإغماء، إن هى إلا استغراق فى لقاء الملك الروحاني، وانخلاع عن حالته البشرية العادية فيؤثر ذلك على الجسم فيغط ويثقل ثقلاً شديداً، قد يتصبب منه الجبين عرقاً فى اليوم الشديد البرد، وقد يكون وقع الوحى على الرسول كوقع الجرس إذا صلصل فى أذن سامعيه، وذلك أشد أنواعه، وربما يسمع الحاضرون صوتاً عند وجه الرسول كأنه دوى النحل، لكن لا يفهمون كلاماً ولا يفقهون حديثاً.

أما هو ﷺ فيسمع ويعى ما يوحى إليه، ويعلم علم اليقين أن هذا هو وحى الله دون لبس ولا خفاء ولا ارتياب، فإذا انجلى عنه الوحى وجد ما أوحى إليه حاضراً فى ذاكرته منتقشاً فى حافظته كأنما كتب فى قلبه كتابة، والأدلة على ذلك عقلية ونقلية.

فالنقلية ما رواه البخارى فى «صحيحه» عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها: أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: **«أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليَّ، فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لى الملك فيكلمنى فأعى ما يقول»** قالت عائشة، ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً.

إمكان الوحى ووقوعه:

ازدهرت الحياة العلمية، وبددت أشعتها كل ريبة كانت تساور الناس إلى عهد

قريب فيما وراء المادة من روح، وآمن العلم المادى الذى وضع جل الكائنات تحت التجربة والاختبار بأن هناك عالماً غيبياً وراء هذا العالم المشاهد، وأن عالم الغيب أدق وأعمق من عالم الشهادة، وأكثر المخترعات الحديثة التى أخذت بألباب الناس تحجب وراءها هذا السر الخفى الذى عجز العلم عن إدراك كنهه، وإن لاحظ آثاره ومظاهره، وقرب هذا بعد الشقة بين التنكر للأديان والإيمان بها؛ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ (فصلت: ٥٣)، وقوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء: ٨٥).

فالبحوث النفسية الروحية لها فى مضمار العلم الآن مكانتها، ويساندها ويقربها إلى الأفهام تفاوت الناس فى مداركهم وميولهم وغرائزهم، فمن العقول العبقرى الفذ الذى يبتكر كل جديد، ومنها الغبى الذى يستعصى عليه إدراك بديهى الأمور، وبين المنزلتين درجات، والنفوس كذلك منها الصافى المشرق، والخبيث المعتم.

وجسم الإنسان يطوى وراءه روحاً هى سر حياته، وإذا كان الجسم تبلى ذراته، وتفنى أنسجته وخلاياه، ما لم يتناول قسطه من الغذاء، فجدير بالروح أن يكون لها غذاء يمدها بالطاقة الروحية؛ كى تحتفظ بمقوماتها وقيمها.

وليس ببعيد على الله تعالى أن يختار من عباده نفوساً لها من نقاء الجوهر وسلامة الفطرة ما يعدها للفيض الإلهي، والوحى السماوي، والاتصال بالملأ الأعلى، ليلقى إليها برسالاته، التى تسد حاجة البشر فى رقى وجدانه، وسمو أخلاقه، واستقامة نظامه، وهؤلاء هم رسله وأنبياؤه.

ولا غرابة فى أن يكون هذا الاتصال بالوحى السماوي.

فالناس اليوم يشاهدون التنويم المغناطيسي، وهو يوضح لهم أن اتصال النفس الإنسانية بقوة أعلى منها يحدث أثراً يقرّب إلى الأفهام ظاهرة الوحي، حيث يستطيع الرجل القوى الإرادة أن يتسلط بإرادته على من هو أضعف منه فينام نوماً

عميقاً، ويكون رهن إشارته، ويلقنه ما يريد فيجرى على قلبه ولسانه، وإذا كان هذا فعل الإنسان بالإنسان فما ظنك بمن هو أشد منه قوة.

ثم هناك دليل آخر من الذى يسمع الناس الأحاديث المسجلة التى تحملها اليوم موجات الأثير، عابرة الوهاد والنجاد، والسهول والبحار، دون رؤية ذويها، بعد وفاتهم.

وأصبح الرجلان يتخاطبان فى الهاتف، أحدهما فى أقصى المشرق، والآخر فى أقصى المغرب، وقد يتراءيان مع هذا التخاطب، ولا يسمع الجالسون بجانبهما شيئاً سوى أزيز كدوى النحل الذى فى صفة الوحي.

ومن ليس له حديث نفسى فى يقظته أو منامه يدور فى خلده دون أن يرى متكلماً أمامه.

هذه وغيرها أمثلة تفسر لعقولنا حقيقة الوحي، وتدل دلالة قاطعة على إمكانه.

وقد شاهد الوحى معاصروه، ونقل بالتواتر المستوفى لشروطه بما يفيد العلم القطعى إلى الأجيال اللاحقة ولمست الإنسانية أثره فى حضارة أمته، وقوة أتباعه، وعزتهم ما استمسكوا به، وانهيار كيانهم وخذلانهم ما فرطوا فى جنبه، مما لا يدع مجالاً للشك فى إمكان الوحى وثبوته، وضرورة العودة إلى الاهتداء به إطفاءً للظمأ النفسى بمثله العليا وقيمه الروحية.

ولم يكن رسولنا ﷺ أول رسول أوحى إليه، بل أوحى الله تعالى إلى الرسل قبله بمثل ما أوحى إليه، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ۝١٦٣ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ (النساء: ١٦٣-١٦٤).

فليس هناك فى نزول الوحى على محمد ﷺ ما يدعو إلى العجب، ولذا أنكر الله على العقلاء هذا فى قوله:﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ

ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ (يونس:٢).

معنى الوحي:

يقال: وحيت إليه وأوحيت: إذا كلمته بما تخفيه عن غيره، والوحي: الإشارة السريعة، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد، وبإشارة ببعض الجوارح.

والوحى مصدر، ومادة الكلمة تدل على معنيين أصليين هما: الخفاء والسرعة؛ ولذا قيل فى معناه: الإعلام الخفى السريع الخاص بمن يوجه إليه، بحيث يخفى على غيره، وهذا معنى المصدر، ويطلق ويراد به الموحي، أى بمعنى اسم المفعول.

والوحى بمعناه اللغوى يتناول:

١- الإلهام الفطرى للإنسان، كالوحى إلى أم موسى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ (القصص: ٧).

٢- الإلهام الغريزى للحيوان، كالوحى إلى النحل: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ (النحل: ٦٨).

٣- الإشارة السريعة على سبيل الرمز والإيحاء كإيحاء زكريا فيما حكاه القرآن عنه: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ (مريم: ١١).

٤- وسوسة الشيطان وتزيينه الشر فى نفس الإنسان: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ﴾ (الأنعام: ١٢١)، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ (الأنعام:١١٢).

٥- ما يلقيه الله إلى ملائكته من أمر ليفعلوه: ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ (الأنفال: ١٢).

ووحى الله إلى أنبيائه قد عرَّفوه شرعاً بأنه كلام الله تعالى المنزل على نبى من

أنبيائه، وهو تعريف له بمعنى اسم المفعول: أى الموحي. وعرفه الأستاذ محمد عبده فى «رسالة التوحيد» بأنه: (عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة، والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت ويفرق بينه وبين الإلهام، بأن الإلهام: وجدان تستيقنه النفس، فتنساق إلى ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى؟ وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور[1]).

وهو تعريف للوحى بالمعنى المصدري، وبدايته وإن كانت توهم شبهه بحديث النفس أو الكشف، إلا أن الفرق بينه وبين الإلهام الذى جاء فى عجز التعريف ينفي هذا، والله أعلم.

كيفية وحى الله إلى ملائكته:

أولاً: جاء فى القرآن الكريم ما ينص على كلام الله للملائكته: قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠).

وعلى إيحائه إليهم: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ﴾ (الأنفال:١٢).

وعلى قيامهم بتدبير شئون الكون حسب أمره: قال تعالى عن ملائكته: ﴿فَٱلْمُقَسِّمَـٰتِ أَمْرًا﴾ (الذاريات: ٤)، وقال تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ (النازعات: ٥)، وهذه النصوص متآزرة تدل على أن الله يكلم الملائكة دون واسطة بكلام يفهمونه.

ويؤيد هذا ما جاء فى الحديث عن النواس بن سمعان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا أراد الله تعالى أن يوحى بالأمر تكلم بالوحى أخذت السماوات منه رجفة - أو**

---

(١) انظر كتاب: « الوحى المحمدى» للشيخ محمد رشيد رضا ص (٤٤).

قال - رعدة شديدة خوفاً من الله عز وجل، فإذا سمع ذلك أهل السماوات صعقوا وخروا لله سجداً، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمر جبريل، فيقول جبريل: قال الحق وهو العلى الكبير، فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فينتهى جبريل بالوحى إلى حيث أمره الله عز وجل» أخرجه الطبرانى.

فهذا الحديث يبين أن كيفية الوحى تكلم من الله، وسماع من الملائكة، وهول شديد لأثره، وإذا كان -ظاهره فى مرور جبريل وانتهائه بالوحى- يدل على أن ذلك خاص بالقرآن، فإن صدره يبين كيفية عامة، وأصله فى الصحيح: «**إذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان**».

ثانياً: وثبت أن القرآن الكريم كتب فى اللوح المحفوظ، لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ (البروج: ٢١-٢٢).

كما ثبت إنزاله جملة إلى بيت العزة من السماء الدنيا فى ليلة القدر من شهر رمضان: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ (القدر: ١)، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ (الدخان: ٣)، ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ (البقرة: ١٨٥).

وفى السُّنَّة ما يوضح هذا النزول، ويدل على أنه غير النزول الذى كان على قلب رسول الله ﷺ ، فعن ابن عباس موقوفا: «أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا ليلة القدر، ثم أنزل بعد ذلك بعشرين سنة ثم قرأ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (الفرقان: ٣٣)، ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ (الإسراء: ١٠٦)، أخرجه الحاكم والبيهقى والنسائي.

وفى رواية: «**فصل القرآن من الذكر، فوضع فى بيت العزة من السماء الدنيا فجعل جبريل ينزل به على النبى ﷺ**» أخرجه الحاكم وابن أبى شيبة.

وقد ذهب العلماء فى كيفية وحى الله إلى جبريل بالقرآن إلى مذاهب، منها أن

جبريل تلقفه سماعاً من الله بلفظه المخصوص، ومنها أن جبريل حفظه من اللوح المحفوظ، ومنها أن جبريل ألقى إليه المعنى والألفاظ لجبريل أو لمحمد ﷺ، وهذا رأى ضعيف. والرأى الأول هو الصواب، وعليه أهل السنة.

ونسبة القرآن إلى الله فى أكثر من آية: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ (النمل: ٦).

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ (التوبة:٦).

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآىِٕ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ (يونس: ١٥).

فالقرآن الكريم كلام الله بألفاظه، لا كلام جبريل، ولا كلام محمد.

أما الرأى الثانى فلا اعتبار له، إذ إن ثبوت القرآن فى اللوح المحفوظ كثبوت سائر المغيبات التى لا يخرج القرآن عن أن يكون من جملتها.

والرأى الثالث أنسب بالسنة لأنها وحى من الله أوحى إلى جبريل، ثم إلى محمد ﷺ بالمعنى، فعبر عنه رسول الله بعبارته: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ (النجم: ٣-٤)، ولذا جازت رواية السنة بالمعنى لعارفٍ بما لا يحيل المعانى دون القرآن.

وسبق أن ذكرنا الفرق بين القرآن والحديث القدسى والحديث النبوي، فمن خصائص القرآن:

١ - أنه معجز. ٢- قطعى الثبوت.
٣- يتعبد بتلاوته. ٤ - ويجب أداؤه بلفظه.

والحديث القدسى - على القول بنزول لفظه - ليس كذلك.

والحديث النبوى قسمان: الأول ما اجتهد فيه الرسول ﷺ وهذا ليس وحياً ويكون إقرار الوحى له بسكوته إذا كان صواباً.

والثاني: ما أوحى إليه بمعناه واللفظ لرسول الله، ولذا يجوز روايته بالمعنى، والحديث القدسى على القول الراجح بنزول معناه دون لفظه يكون من هذا القسم، ونسبته إلى الله فى الرواية لورود النص على ذلك دون الأحاديث النبوية.

كيفية وحى الله إلى رسله:

الله يوحى إلى رسله بواسطة وبغير واسطة، **فالأول**: بواسطة جبريل ملك الوحى وسيأتى بيانه، **والثانى**: وهو الذى لا واسطة فيه يأتى على أوجه منها:

الرؤيا الصالحة فى المنام، فعن عائشة رضى الله عنها قالت: «**أول ما بدئ به ﷺ الرؤيا الصالحة فى النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح**» (متفق عليه) وكان ذلك تهيئة لرسول الله حتى ينزل عليه الوحى يقظةً، وليس فى القرآن شيء من هذا النوع؛ لأنه نزل جميعه يقظةً، خلافاً لمن ادعى نزول سورة (الكوثر) مناماً للحديث الوارد فيها، ففى «صحيح مسلم» عن أنس ﷺ بينما رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا فى المسجد إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسماً فقلت: ما أضحكك يا رسول الله؟ فقال: «نزلت على آنفاً سورة، فقرأ: ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾، ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ (الكوثر: ١-٣) فلعل الإغفاءة هذه هى الحالة التى كانت تعتريه عند الوحي.

ومما يدل على أن الرؤية الصالحة للأنبياء فى المنام وحى يجب اتباعه ما جاء فى قصة إبراهيم من رؤيا ذبحه لولده إسماعيل، هذا هو الصواب، خلافاً لمن ذهب إلى أنه إسحاق، فإن البشارة كانت أولاً بإسماعيل قبل إسحاق، وإسماعيل هو الذى نشأ فى الجزيرة العربية، حيث كانت قصة الذبح، وهو الحرى بأن يوصف بالحلم: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ۝ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ۝ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ۝ وَفَدَيْنَٰهُ

بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (الصافات: ١٠١-١١٢)، ولو لم تكن هذه الرؤيا وحياً يجب اتباعه لما قدم إبراهيم عليه السلام على ذبح ولده لولا أن مَنَّ الله عليه بالفداء.

والرؤيا الصالحة ليست خاصة بالرسول، فهى باقية للمؤمنين وإن لم تكن وحياً كما قال عليه الصلاة والسلام: **«انقطع الوحى وبقيت المبشرات، رؤيا المؤمن»** والرؤيا الصالحة فى المنام للأنبياء هى القسم الأول من أقسام التكليم الإلهى المذكور فى قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ (الشورى: ٥١)، ومنه الكلام الإلهى من وراء حجاب بدون واسطة يقظة، وهو ثابت لموسى عليه السلام: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ ﴾ (الأعراف: ١٤٣)، ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ (النساء: ١٦٤).

كما ثبت التكلم على الأصح لرسولنا ﷺ ليلة الإسراء والمعراج وهذا النوع هو القسم الثانى المذكور فى الآية ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ (الشورى: ٥١) وليس فى القرآن شيء منه كذلك.

كيفية وحى الملك إلى الرسول:

وحى الله إلى أنبيائه إما أن يكون بغير واسطة، وهو ما ذكرناه آنفاً، وكان منه الرؤيا الصالحة فى المنام، والكلام الإلهى من وراء حجاب يقظة، وإما أن يكون بواسطة ملك الوحي، وهو الذى يعنينا فى هذا الموضوع؛ لأن القرآن الكريم نزل به.

ولا تخلو كيفية وحى الملك إلى الرسول من إحدى حالتين:

الحالة الأولى: وهى أشدها على الرسول - أن يأتيه مثل صلصلة الجرس، والصوت القوى يثير عوامل الانتباه فتتهيأ النفس بكل قواها لقبول أثره، فإذا نزل الوحى بهذه الصورة على الرسول ﷺ نزل عليه وهو مستجمع القوى الإدراكية

لتلقيه وحفظه وفهمه، وقد يكون هذا الصوت حفيف أجنحة الملائكة المشار إليه فى الحديث: «**إذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كالسلسلة على صفوان**» رواه البخارى وقد يكون صوت الملك نفسه فى أول سماع الرسول له.

والحالة الثانية: أن يتمثل له الملك رجلاً ويأتيه فى صورة بشر، وهذه الحالة أخف من سابقتها، حيث يكون التناسب بين المتكلم والسامع، ويأنس رسول النبوة عند سماعه من رسول الوحي، ويطمئن إليه اطمئنان الإنسان لأخيه الإنسان.

والهيئة التى يظهر فيها جبريل بصورة رجل لا يتحتم فيها أن يتجرد من روحانيته، ولا يعنى أن ذاته انقلبت رجلاً بل المراد أنه يظهر بتلك الصورة البشرية أنساً للرسول البشرى، ولا شك أن الحالة الأولى - حالة الصلصلة - لا يوجد فيها هذا الإيناس، وهى تحتاج إلى سمو روحى من رسول الله يتناسب مع روحانية الملك فكانت أشد الحالتين عليه، لأنها كما قال ابن خلدون (انسلاخ من البشرية الجسمانية واتصال بالملكية الروحانية، والحالة الأخرى عكسها لأنها انتقال الملك من الروحانية المحضة إلى البشرية الجسمانية).

وكلتا الحالتين مذكور فيما روى عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أن الحارث بن هشام ﷺ سأل رسول الله ﷺ فقال «**أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليَّ فيفصم عنى، وقد وعيت عنه ما قال وأحياناً يتمثل لى الملك رجلاً فيكلمنى فأعى ما يقول**».

وروت عائشة رضى الله عنها ما كان يصيب رسول الله ﷺ من شدة فقالت: «**ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقًا**» رواه البخاري.

والحالتان هما القسم الثالث من أقسام التكليم الإلهى المشار إليه فى الآية: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ﴾ (الشورى: ٥١).

١ - إلا وحياً.
٢ - أو من وراء حجاب.
٣ - ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾(الشورى: ٥١)

أما النفث فى الروع، أى القلب، فقد ذكره فى قول الرسول ﷺ **«إن روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب»** رواه أبو نعيم فى «الحلية» بسند صحيح. والحديث لا يدل على أنه حالة مستقلة، فيحتمل أن يرجع إلى إحدى الحالتين المذكورتين فى حديث عائشة، فيأتيه الملك فى مثل الصلصلة وينفث فى روعه، أو يتمثل له رجلاً وينفث فى روعه، وربما كانت حالة النفث فيما سوى القرآن الكريم، والله أعلم. وبعد أن انتهى من الكلام على الوحى شرع يتكلم على أسماء القرآن وأسماء سوره فقال وهذا:

قول آخر فى أسمائه وأسماء سوره:

قال الجاحظ: سمى الله كتابه اسماً مخالفاً لما سمى العرب كلامهم على الجملة والتفصيل، سمى جملته قرآناً كما سموا ديواناً وبعضه سورة كقصيدة، وبعضها آية كالبيت، وآخرها فاصلة كقافية. وقال أبو المعالى عزيزى بن عبد الملك المعروف بشيدلة- بضم عين عزيزي- فى كتاب «البرهان»: (اعلم أن الله سمى القرآن بخمسة وخمسين اسماً سماه كتاباً مبيناً فى قوله: ﴿حمٓ ۝ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾(الدخان: ١-٢) وقرآناً وكريماً فى قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ (الواقعة: ٧٧)، وكلاماً ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ (التوبة:٦)، ونوراً ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ (النساء: ١٧٤) وهدى ورحمة ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس: ٥٧)، وفرقاناً من قوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ (الفرقان: ١) وشفاءً ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ (الإسراء: ٨٢)، وموعظة ﴿ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾(يونس: ٥٧) وذكرًا مباركًا من قوله:﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُۚ﴾(الأنبياء: ٥٠)، وعلياً ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ (الزخرف: ٤) وحكمة

﴿حِكْمَةٌ بَٰلِغَةٌ﴾ (القمر: ٥) وحكيماً ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ (يونس: ١) ومهيمناً ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (المائدة: ٤٨) وحبلاً من قوله: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾ (آل عمران: ١٠٣)، وصراطاً مستقيماً من قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾ (الأنعام: ١٥٣)، وقيماً من قوله: ﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ﴾ (الكهف: ٢) وقولاً وفصلاً ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ (الطارق: ١٣)، ونبأ عظيم ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ (النبأ: ١-٢) وأحسن الحديث ومثانى ومتشابهاً ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾ (الزمر: ٢٣)، وتنزيلاً من أمرنا ووحياً ﴿إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ﴾ (الأنبياء: ٤٥)، وعربياً ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ (يوسف:٢) وبصائر ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ﴾ (الأعراف: ٢٠٣)، وبياناً ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١٣٨) وعلماً ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ (البقرة: ١٤٥)، وحقاً ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ (آل عمران: ٦٢)، وهادياً ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى﴾ (الإسراء: ٩)، وعجباً ﴿قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ (الجن: ١)، وتذكرة ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ﴾ (الحاقة: ٤٨)، والعروة الوثقى ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ (لقمان: ٢٢)، وصدقاً ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾ (الزمر: ٣٣)، وعدلاً ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ (الأنعام: ١١٥)، وأمراً ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾ (الطلاق: ٥)، ومنادياً ﴿يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ﴾ (آل عمران: ١٩٣)، وزبوراً ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ﴾ (الأنبياء:١٠٥)، وبشيراً ونذيراً ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ (فصلت: ٣-٤)، وعزيزاً ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ (فصلت: ٤١)، وبلاغاً ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ (إبراهيم: ٥٢)، وقصصاً ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ (يوسف: ٣)، وسماه أربعة أسماء فى آية واحدة ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ﴾ (عبس: ١٣) انتهى.

فأما تسميته كتاباً فلجمعه أنواع العلوم والقصص والأخبار على أبلغ وجه، والكتاب لغة الجمع، والمبين لأنه أبان أى أظهر الحق من الباطل، وأما أسماء سوره فقد قال السيوطى فى «الإتقان»: قال الجعبري: السورة هى قرآن يشتمل على آى

ذى فاتحة وخاتمة وأقلها ثلاث آيات، وقال غيره: السورة طائفة مترجمة توقيفاً وهى مسماة باسم خاص بتوقيف من النبى ﷺ وقد عينت أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار، ويدل على ذلك ما أخرجه ابن أبى حاتم عن عكرمة قال: كان المشركون يقولون سورة البقرة وسورة العنكبوت يستهزئون بها فنزلت: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ (الحجر: ٩٥)، وقد يكون للسورة اسم واحد وهو كثير، وقد يكون لها اسمان فأكثر، ومن ذلك الفاتحة، وقد وقفت لها على نيف وعشرين اسماً وذلك يدل على شرفها، فإن كثرة الأسماء دالة على شرف المسمى، أحدها فاتحة الكتاب، قال ﷺ «**هى أم القرآن وهى فاتحة الكتاب وهى السبع المثانى وأم الكتاب وأم القرآن والقرآن العظيم والوافية، والكنز، والرقية والشفاء والدعاء والمناجاة والتفويض**» وسورة البقرة تسمى فسطاط القرآن وسنام القرآن، وسورة آل عمران تسمى فى التوراة طيبة، وهى والبقرة الزهراوين.

والمائدة تسمى: بالعقود والمنفذة، والأنفال تسمى: بدر، وبراءة تسمى: التوبة وسورة العذاب والمقشقشة، والنحل تسمى: النعم، والإسراء تسمى: سبحانه وسورة بنى إسرائيل، وسورة النمل تسمى: سورة سليمان، وغافر تسمى: الطول والمؤمن، والجاثية تسمى: الشريعة، وسورة محمد تسمى: القتال، وسورة الرحمن تسمى: عروس القرآن، والحشر: بنى النضير، وسأل: المعارج، والنصر: بالتوديع، وتبت: بالمسد، والإخلاص: بالأساس، والفلق والناس: بالمعوذتين، وكل اسم من الأسماء السابقة ورد بالأحاديث والآثار.

المكى والمدني
وعلامات كل منهما

من المعروف أن الأمم تولى اهتمامها البالغ بالمحافظة على تراثها الفكرى ومقومات حضارتها، والأمة الإسلامية أحرزت قصب السبق فى عنايتها بتراث الرسالة المحمدية، التى شرفت بها الإنسانية جمعاء؛ لأنها ليست رسالة علم أو

إصلاح يجدد الاهتمام بها مدى قبول العقل لها واستجابة الناس إليها، وإنما هي- فوق زادها الفكرى وأسسها الإصلاحية- دين يخامر الألباب، ويمتزج بحبات القلوب، فنجد أعلام الهدى من الصحابة والتابعين ومن بعدهم يضبطون منازل القرآن آية آية ضبطاً يحدد الزمان والمكان، وهذا الضبط عماد قوى فى تاريخ التشريع، يستند إليه الباحث فى معرفة أسلوب الدعوة وألوان الخطاب والتدريج فى الأحكام والتكاليف، ومما روى فى ذلك ما قاله ابن مسعود ﷺ «والله الذى لا إله غيره ما نزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت؟ ولا نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت؟ ولو أعلم أن أحداً أعلم منى بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه».

والدعوة إلى الله تحتاج إلى نهج خاص فى أسلوبها إزاء كل فساد فى العقيدة والتشريع والخلق والسلوك، ولا تفرض تكاليفها إلا بعد تكوين النواة الصالحة لها، وتربية اللبنات التى تأخذ على عاتقها القيام بها، ولا تسن أسسها التشريعية ونظمها الاجتماعية إلا بعد طهارة القلب وتحديد الغاية؛ حتى تكون الحياة على هدى من الله وبصيرة.

والذى يقرأ القرآن الكريم يجد للآيات المكية خصائص ليست للآيات المدنية فى وقعها ومعانيها، وإن كانت الثانية مبنية على الأولى فى الأحكام والتشريع.

فحيث كان القوم فى جاهلية تعمى وتصم، يعبدون الأوثان، ويشركون بالله، وينكرون الوحي، ويكذبون بيوم الدين، وكانوا يقولون: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ (الصافات:١٦)، ويقولون: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ (الجاثية:٢٤).

وهم ألداء فى الخصومة، أهل مماراة ولجاجة فى القول عن فصاحة وبيان- حيث كان القوم كذلك نزل الوحى المكى قوارع زاجرة، وشهباً منذرة، وحججاً قاطعة، يحطم وثنيتهم فى العقيدة، ويدعوهم إلى توحيد الألوهية والربوبية، أو

يهتك أستار فسادهم، ويسفه أحلامهم، ويقيم دلائل النبوة، أو يضرب الأمثلة للحياة الآخرة، وما فيها من جنة ونار، ويتحداهم على فصاحتهم بأن يأتوا بمثل القرآن، ويسوق إليهم المكذبين الغابرين عبرةً وذكرى، فتجد فى مكى القرآن ألفاظاً شديدة القرع على المسامع، تقذف حروفها شرر الوعيد وألسنة العذاب، فـ«كلا» الرادعة الزاجرة، والصاخة، والقارعة، والغاشية، والواقعة، وألفاظ الهجاء فى فواتح السور وآيات التحدى فى ثناياها، ومصير الأمم السابقة، وإقامة الأدلة الكونية، والبراهين العقلية كل هذا نجده فى خصائص القرآن المكي.

وحين تكونت الجماعة المؤمنة بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، وامتحنت فى عقيدتها بأذى المشركين، فصبرت، وهاجرت بدينها، مؤثرةً ما عند الله على متع الحياة، حين تكونت هذه الجماعة نرى الآيات المدنية طويلة المقاطع، تتناول أحكام الإسلام وحدوده، وتدعو إلى الجهاد والاستشهاد فى سبيل الله، وتفصل أصول التشريع، وتضع قواعد المجتمع، وتحدد روابط الأسرة وصلات الأفراد، وعلاقات الدول والأمم، كما تفضح المنافقين وتكشف دخيلتهم، وتجادل أهل الكتاب، وتلجم أفواههم، وهذا هو الطابع العام للقرآن المدني.

عناية العلماء بالمكى والمدنى وأمثلة على ذلك وفوائده:

قد عنى العلماء بتحقيق المكى والمدنى عناية فائقة، فتتبعوا القرآن آية آية، وسورة سورة، لترتيبها وفق نزولها، مراعين فى ذلك الزمان والمكان والخطاب، لا يكتفون بزمن النزول ولا مكانه، بل يجمعون بين الزمان والمكان والخطاب، وهو تحديد دقيق يعطى للباحث المنصف صورة للتحقيق العلمى فى علم المكى والمدني، وهو شأن علمائنا فى تناولهم لمباحث القرآن الأخرى.

إنه جهد كبير أن يتتبع الباحث منازل الوحى فى جميع مراحله، ويتناول آيات القرآن الكريم فيعين وقت نزولها، ويحدد مكانه، ويضم إلى ذلك الضوابط القياسية

لأسلوب الخطاب فيها، أهو من الموضوعات التى ارتكزت عليها الدعوة فى المدينة؟

وإذا اشتبه الأمر على الباحث- لتوافر الدلائل المختلفة- رجح بينها، فجعل بعضها شبيهاً بما نزل فى المدينة، وإذا كانت الآيات نزلت فى مكان، ثم حملها أحد من الصحابة فور نزولها لإبلاغها فى مكان آخر ضبط العلماء هذا كذلك، فقالوا: ما حمل من مكة إلى المدينة، أو ما حمل من المدينة إلى مكة.

قال أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابورى فى كتاب «التنبيه على فضل علوم القرآن»: من أشرف علوم القرآن علم نزوله وجهاته، وترتيب ما نزل بمكة والمدينة، وما نزل بمكة وحكمه مدني، وما نزل بالمدينة وحكمه مكي، وما نزل بمكة فى أهل المدينة، وما نزل بالمدينة فى أهل مكة، وما يشبه نزول المكى فى المدني، وما يشبه نزول المدنى فى المكي، وما نزل بالجحفة، وما نزل ببيت المقدس، وما نزل بالطائف، وما نزل بالحديبية، وما نزل ليلاً وما نزل نهاراً، وما نزل مشيعاً[1] وما نزل مفرداً، والآيات المدنيات فى السور المكية، والآيات المكيات فى السور المدنية، وما حمل من المدينة إلى مكة، أو ما حمل من المدينة إلى أرض الحبشة، وما نزل مجملاً، وما نزل مفسراً، وما اختلفوا فيه فقال بعضهم مدنى وبعضهم مكي، فهذه خمسة وعشرون وجهاً من لم يعرفها ويميز بينها لم يحل له أن يتكلم فى كتاب الله تعالى.

وحرص العلماء على الدقة، فرتبوا السور حسب منازلها سورة بعد سورة، وقالوا: سورة كذا نزلت بعد سورة كذا، أو ازدادوا حرصاً فى الاستقصاء، ففرقوا بين ما نزل ليلاً وما نزل نهاراً، وما نزل صيفاً وما نزل شتاءً، وما نزل فى الحضر وما نزل فى السفر.

---

(١) السيوطى فى الاتقان.

وأهم الأنواع التى يتدارسها العلماء فى هذا المبحث:

١- ما نزل بمكة.
٢ - ما نزل بالمدينة.
٣- ما اختلف فيه.
٤- الآيات المكية فى السور المدنية.
٥- الآيات المدنية فى السور المكية.
٦- ما نزل بمكة وحكمه مدني.
٧- ما نزل بالمدينة وحكمه مكي.
٨- ما يشبه نزول المكى فى المدني.
٩- ما يشبه نزول المدنى فى المكي.
١٠- ما حمل من مكة إلى المدينة.
١١- ما حمل من المدينة إلى مكة.
١٢- ما نزل ليلاً وما نزل نهاراً.
١٣- ما نزل صيفاً وما نزل شتاءً.
١٤- ما نزل فى الحضر وما نزل فى السفر.

فهذه أنواع أساسية، يرتكز محورها على المكى والمدني، ولذا سُمى هنا (بعلم المكى والمدني).

وأقرب ما قيل فى تعداد السور المكية والمدنية إلى الصحة أن المدنى عشرون سورة:

١- البقرة. ٢- آل عمران. ٣- النساء. ٤- المائدة.
٥- الأنفال. ٦- التوبة. ٧- النور. ٨- الأحزاب.
٩- محمد. ١٠- الفتح. ١١- الحجرات. ١٢- الحديد.
١٣- المجادلة. ١٤- الحشر. ١٥- الممتحنة. ١٦- الجمعة.
١٧ – المنافقون. ١٨- الطلاق. ١٩- التحريم. ٢٠- النصر.

وأن المختلف فيه اثنا عشر سورة:

١- الفاتحة. ٢- الرعد. ٣- الرحمن. ٤- الصف.
٥- التغابن. ٦- المطففين. ٧- القدر. ٨- البينة.
٩- الزلزلة. ١٠- الإخلاص. ١١- الفلق. ١٢- الناس.

وأن ما سوى ذلك مكي، وهو اثنتان وثمانون سورة، فيكون مجموع سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة.

وكون بعض الآيات المكية فى السور المدنية: لا يقصد بوصف السورة بأنها مكية أو مدنية أنها بأجمعها كذلك، فقد يكون فى المكية بعض آيات مدنية، وفى المدنية بعض آيات مكية ولكنه وصف أغلبى حسب أكثر آياتها، ولذا يأتى فى التسمية سورة كذا مكية إلا آية كذا فإنها مدنية، وسورة كذا مدنية إلا آية كذا فإنها مكية كما نجد ذلك فى المصاحف.

ومن أمثلة الآيات المكية فى السور المدنية (سورة الأنفال) مدنية، واستثنى منها كثير من العلماء قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ (الأنفال: ٣٠).

قال مقاتل: هذه الآية نزلت بمكة، وظاهرها كذلك، لأنها تضمنت ما كان من المشركين فى دار الندوة عند تآمرهم على رسول الله ﷺ قبل الهجرة، واستثنى بعضهم كذلك: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(الأنفال:٦٤) لما أخرجه البزار عن ابن عباس أنها نزلت لما أسلم عمر بن الخطاب ﷺ.

ومن أمثلة الآيات المدنية فى السور المكية كـ(سورة الأنعام) قال ابن عباس: نزلت بمكة جملة واحدة فهى مكية إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ﴾ إلى تمام الآيات الثلاث (الأنعام: ١٥١-١٥٣) و(سورة الحج) مكية سوى ثلاث آيات نزلت بالمدينة، من أول قوله تعالى: ﴿هَـٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ (الحج: ١٩).

وأما ما نزل بمكة وحكمه مدني: فيمثلون له بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣)، فإنها نزلت بمكة يوم الفتح وهى مدنية، لأنها بعد الهجرة، والخطاب فيها عام، ومثل هذا لا يسميه العلماء مكياً كما لا يسمونه مدنياً على وجه التعيين، بل يقولون فيه: ما نزل بمكة وحكمه مدني.

وكذا ما نزل بالمدينة وحكمه مكي، ويمثلون له بسورة الممتحنة، فإنها نزلت بالمدينة فهى مدنية باعتبار المكان، ولكن الخطاب فى ثناياها توجه إلى مشركى أهل مكة وقبل هذا صدر سورة براءة نزلت بالمدينة والخطاب فيه لمشركى أهل مكة.

وأما ما يشبه نزول المكى فى المدني: ويعنى العلماء به ما كان فى السور المدنية من آيات جاء أسلوبها فى خصائصه وطابعه العام على نمط السور المكية، ومن أمثلته قوله تعالى فى سورة الأنفال وهى مدنية: ﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (الأنفال: ٣٢) فإن استعجالهم للعذاب كان بمكة.

وأما ما يشبه نزول المدنى فى المكي: ويعنى العلماء به ما يقابل النوع السابق، ويمثلون له بقوله تعالى فى سورة النجم: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ (النجم: ٣٢)، قال السيوطي: فإن الفواحش كل ذنب فيه حد، والكبائر كل ذنب عاقبته النار، واللمم ما بين الحدين من الذنوب، ولم يكن بمكة حد ولا نحوه.

وأما ما حمل من مكة إلى المدينة: فمن أمثلته سورة: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ (الأعلى: ١). أخرج البخارى عن البراء بن عازب قال: أول من قدم علينا من أصحاب النبى ﷺ مصعب بن عمير، وابن أم مكتوم، فجعلا يقرئاننا القرآن ثم جاء عمار وبلال وسعد، ثم جاء عمر بن الخطاب فى عشرين، ثم جاء النبى ﷺ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به، فما جاء حتى قرأت: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ فى سور مثلها وهذا المعنى يصدق على كل ما حمله المهاجرون من القرآن وعلموه الأنصار.

وأما ما حمل من المدينة إلى مكة: فمن أمثلته أول سورة براءة، حيث أمّر رسول الله ﷺ أبا بكر على الحج فى العام التاسع فلما نزل صدر سورة براءة حمله رسول الله ﷺ على بن أبى طالب ليلحق بأبى بكر حتى يبلغ المشركين به فأذن فيهم بالآيات وأبلغهم ألا يحج بعد العام مشرك.

وأما ما نزل ليلاً وما نزل نهاراً: أكثر القرآن نزل نهاراً أما ما نزل بالليل فقد تتبعه أبو القاسم الحسن بن حبيب النيسابوري، واستخرج له أمثلة منها: أواخر آل عمران، أخرج ابن حبان فى صحيحه، وابن المنذر وابن مردويه وابن أبى الدنيا

عن عائشة رضى الله عنها: أن بلالاً أتى النبى ﷺ يؤذنه لصلاة الصبح فوجده يبكى، فقال يا رسول الله ما يبكيك؟ قال: «**وما يمنعنى أن أبكى وقد أنزل على هذه الليلة**: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (آل عمران: ١٩٠)» ثم قال: «**ويل لمن قرأها ولم يتفكر**» ومنها آية الثلاثة الذين خلفوا وهى قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ (التوبة: ١١٨).

ففى «الصحيحين» من حديث كعب «**فأنزل الله توبتنا حين بقى الثلث الأخير من الليل**» ومنها أول سورة الفتح، ففى البخارى من حديث عمر «**لقد نزلت علىّ الليلة سورة هى أحب إلىّ مما طلعت الشمس فقرأ** ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ (الفتح: ١)».

ما نزل صيفاً وما نزل شتاءً: ويمثل العلماء بما نزل صيفاً بآية الكلالة التى فى آخر سورة النساء.

ومن أمثلته الآيات التى نزلت فى غزوة تبوك، فإنها كانت فى الصيف فى شدة الحر كما فى القرآن نفسه، ويمثلون للشتائى بآيات حديث الإفك فى سورة النور: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (النور: ١١-٢٦)

ففى الصحيح عن عائشة «أنها نزلت فى يوم شات».

ومن أمثلته الآيات التى فى غزوة الخندق من سورة الأحزاب حيث كانت فى شدة البرد أخرج البيهقى فى «دلائل النبوة» عن حذيفة قال: «تفرق الناس عن رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب إلا اثنى عشر رجلاً فأتانى رسول الله ﷺ فقال: **قم فانطلق إلى عسكر الأحزاب**. قلت: يا رسول الله والذى بعثك بالحق ما قمت لك إلا حياء من البرد، فأنزل الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ (الأحزاب: ٩)».

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ

رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (التوبة: ١١٧-١١٨)، وهم الذين قبل الله عذرهم فى التخلف بغزوة تبوك.

وأما قوله: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ﴾ (النساء: ١٧٦)، فالكلالة كما فى صريح الآية هو الميت الذى لا ولد له ولا والد وله مال يورث.

وقد حكى القرآن عن المنافقين قولهم: ﴿ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ ﴾ (التوبة: ٨١)، فأمر الله رسوله أن يجيبهم: ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾ (التوبة: ٨١).

أما ما نزل فى الحضر وما نزل فى السفر: فأكثر القرآن نزل فى الحضر، ولكن حياة رسول الله ﷺ كانت عامرة بالجهاد والغزو فى سبيل الله حيث يتنزل عليه الوحى فى مسيره، وقد ذكر السيوطى لما نزل فى السفر كثيراً من الأمثلة.

منها أول سورة الأنفال، نزلت ببدر عقب الواقعة، كما أخرجه أحمد عن سعد ابن أبى وقاص، وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (التوبة: ٣٤)، أخرج أحمد عن ثوبان أنها نزلت فى بعض أسفاره ﷺ.

وأول سورة الحج، فقد أخرج الترمذى والحاكم عن عمران بن حصين قال: «لما نزلت على النبى ﷺ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ (الحج: ١-٢)، أنزلت عليه هذه وهو فى سفر» وكذا سورة الفتح، فقد أخرج الحاكم وغيره عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالا: «نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة فى شأن الحديبية من أولها إلى آخرها» وهكذا، والله أعلم.

وإليك فوائد العلم بالمكى والمدني:

فمن أهمها:

١- الاستعانة به فى تفسير القرآن: فإن معرفة مواقع النزول تساعد على فهم

الآية وتفسيرها تفسيراً صحيحاً، وإن كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ويستطيع المفسر فى ضوء ذلك عند تعارض المعنى فى آيتين أن يميز بين الناسخ والمنسوخ، فإن المتأخر يكون ناسخاً للمتقدم.

٢- تذوق أساليب القرآن والاستفادة منها فى أسلوب الدعوة إلى الله، فإن لكل مقام مقالاً، ومراعاة مقتضى الحال من أخص معانى البلاغة، وخصائص أسلوب المكى فى القرآن والمدنى منه تعطى الدارس منهجاً لطرائق الخطاب فى الدعوة إلى الله بما يلائم نفسية المخاطب، ويمتلك عليه لبه ومشاعره.

ويعالج فيه دخيلته بالحكمة البالغة، ولكل مرحلة من مراحل الدعوة موضوعاتها وأساليب الخطاب فيها، كما يختلف الخطاب باختلاف أنماط الناس ومعتقداتهم وأحوال بيئتهم، ويبدو هذا واضحاً جلياً بأساليب القرآن المختلفة فى مخاطبة المؤمنين والمشركين والمنافقين وأهل الكتاب.

٣- الوقوف على السيرة النبوية من خلال الآيات القرآنية، فإن تتابع الوحى على رسول الله ﷺ ساير تاريخ الدعوة بأحداثها فى العهد المكى والعهد المدنى منذ بدأ الوحى حتى آخر آية نزلت، والقرآن الكريم هو المرجع الأصيل لهذه السيرة الذى لا يدع مجالاً للشك فيما روى عن أهل السير موافقاً له، ويقطع دابر الخلاف عند اختلاف الروايات.

معرفة المكى والمدني، وبيان الفرق بينهما:

اعتمد العلماء فى معرفة المكى والمدنى على منهجين أساسيين المنهج السماعي النقلي، والمنهج القياسى الاجتهادي.

والمنهج السماعى النقلى يستند إلى الرواية الصحيحة من الصحابة الذين عاصروا الوحي، وشاهدوا نزوله، أو عن التابعين الذين نقلوا عن الصحابة وسمعوا منهم كيفية النزول ومواقعه وأحداثه، ومعظم ما ورد فى المكى من هذا القبيل، وفى الأمثلة السابقة خير دليل على ذلك، وقد خصت بها كتب التفسير

بالمأثور ومؤلفات أسباب النزول، ومباحث علوم القرآن، ولم يرد عن رسول الله ﷺ شيء فى ذلك، حيث إنه ليس من الواجبات التى تجب على الأمة إلا بالقدر الذى يعرف به الناسخ والمنسوخ.

قال القاضى أبو بكر ابن الطيب الباقلانى فى «الانتصار» إنما يرجع فى معرفة المكى والمدنى لحفظ الصحابة والتابعين، ولم يرد عن رسول الله ﷺ فى ذلك قول لأنه لم يؤمر به، ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة، وإن وجب فى بعضه على أهل العلم ومعرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ فقد يعرف ذلك بغير نص الرسول.

والمنهج القياسى الاجتهادى يستند إلى خصائص المكى وخصائص المدني، فإذا ورد فى السورة المكية آية تحمل طابع التنزيل المدنى أو تتضمن شيئاً من حوادثه قالوا إنها مدنية، وإذا ورد فى السورة المدنية آية تحمل طابع التنزيل المكى قالوا إنها مكية، وإذا وجد فيها خصائص المدنى قالوا إنها مدنية وهذا قياس اجتهادى ولذا قالوا مثلاً: كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الخالية مكية، وكل سورة فيها فريضة أو حد مدنية، وهكذا، قال الجعبرى: لمعرفة النقل، والقياسى يعتمد على العقل. والنقل والعقل. هما طريقا المعرفة السليمة والتحقيق العلمى.

وأما الفرق بين المكى والمدني:

فللعلماء فى الفرق بين المكى والمدنى ثلاثة آراء اصطلاحية، كل رأى منها بنى على اعتبار خاص.

الأول: اعتبار زمن النزول فالمكي: ما نزل قبل الهجرة، وإن كان بغير مكة، والمدني: ما نزل بعد الهجرة، وإن كان بغير المدينة، فما نزل بعد الهجرة ولو بمكة: أو عرفة: مدني، كالذى نزل عام الفتح، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ (النساء: ٥٨)، فإنها نزلت بمكة فى جوف الكعبة عام الفتح الأعظم أو نزل بحجة الوداع كقوله تعالى: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ

عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ ﴾ (المائدة: ٣)، وهذا الرأى أولى من الرأيين يعده لحصره واطراده.

الثاني: اعتبار مكان النزول. فالمكي: ما نزل بمكة وما جاورها كمنى وعرفات والحديبية، والمدني: ما نزل بالمدينة وما جاورها كأحد وقباء وسلع.

ويترتب على هذا الرأى عدم ثنائية القسمة وحصرها، فما نزل بالأسفار أو بتبوك أو ببيت المقدس لا يدخل تحت القسمة فلا يسمى مكياً ولا مدنياً كما يترتب عليه كذلك أن ما نزل بمكة بعد الهجرة يكون مكياً.

الثالث: اعتبار المخاطب. فالمكي: ما كان خطاباً لأهل مكة، والمدني: ما كان خطاباً لأهل المدينة، وينبغى على هذا الرأى عند أصحابه أن ما فى القرآن من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ (البقرة: ٢١)، مكي، وما فيه من قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ (الحج: ٧٧) مدني.

وبالملاحظة تبين أن أكثر سور القرآن لم تفتتح بأحد المخاطبين، وأن هذا الضابط لا يَطَّرد فسورة البقرة مدنية وفيها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ٢١)، وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (البقرة:١٦٨)، وسورة النساء مدنية وأولها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾، وسورة الحج مكية وفيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الحج:٧٧)، والقرآن الكريم هو خطاب الله للخلق أجمعين.

وكما يقول الشيخ القطان: إنه يجوز أن يخاطب المؤمنون بصفاتهم وبأسمائهم وأجناسهم، كما يجوز أن يأمر غير المؤمنين بالعبادة، كما يأمر المؤمنون بالاستمرار عليها والازدياد منها.

وأما مميزات المكى والمدني:

فبعد أن استقرأ العلماء السور المكية والسور المدنية، واستنبطوا منها ضوابط قياسية لكل من المكى والمدنى تبين خصائص الأسلوب فى كل منهما، بعد ذلك وضعوا علامات بها يتميز المكى من المدني، وإليك:

ضوابط المكى ومميزاته الموضوعية:

أولاً: كل سورة فيها لفظ ﴿كلا﴾ فهى مكية ولم ترد ﴿كلا﴾ إلا فى النصف الأخير من القرآن، وذكرت ثلاثاً وثلاثين مرة فى خمس عشرة سورة.

ثانياً: كل سورة فيها سجدة فهى مكية.

ثالثا: كل سورة فيها ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وليس فيها ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فهى مكية إلا سورة الحج، ففى أواخرها ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ومع هذا فإن كثيراً من العلماء يرى أن هذه الآية مكية.

رابعاً: كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الغابرة فهى مكية سوى البقرة.

خامساً: كل سورة تفتتح بحروف الهجاء كـ﴿الٓمٓ﴾، و﴿كٓهيعٓصٓ﴾، و﴿حمٓ﴾ و ﴿الٓمٓر﴾ ونحو ذلك فهى مكية، سوى البقرة وآل عمران، واختلفوا فى سورة الرعد.

سادساً: كل سورة ذكرت فيها قصة آدم وإبليس فهى مكية، سوى البقرة.

هذا من ناحية الضوابط، أما من ناحية المميزات الموضوعية وخصائص الأسلوب فإجمالها فيما يأتي:

امتازت السورة المكية بالدعوة إلى التوحيد، وعبادة الله وحده، وترك عبادة الأصنام، وإثبات الرسالة، وإثبات البعث والجزاء، وذكر القيامة وهولها، والنار وعذابها، والجنة ونعيمها، ومجادلة المشركين بالحجة القاطعة والأدلة الواقعة، ووضع

الأسس العامة للتشريع، والفضائل والأخلاق التى يقوم عليها كيان المجتمع، وفضح جرائم المشركين فى سفك الدماء، وأكل أموال الناس بالباطل، ووأد البنات، وما كانوا عليه من سوء العادات، وذكر قصص الأنبياء والأمم السابقة؛ زجراً لهم حتى يعتبروا بمصير المكذبين قبلهم، وتسلية لرسول الله ﷺ حتى يصبر على آذاهم، ويطمئن إلى الانتصار عليهم، وقصر الفواصل (الآيات) مع قوة الألفاظ والإيجاز فى العبارة، بما يقرع الأسماء، ويصخ الآذان، ويصعق القلوب، ويكثر من تأكيد المعنى بالقسم الكثير، وكذلك قصر السور إلا القليل، إذ أن هذه العلامات والمميزات أغلبية لا حتمية.

وأما ضوابط المدنى ومميزاته الموضوعية: فهى كما يلي:

أولاً: أن كل سورة فيها فريضة أو حد -يعنى تشريع- فهى مدنية.

ثانياً: كل سورة فيها ذكر المنافقين فهى مدنية.

ثالثاً: كل سورة فيها مجادلة أهل الكتاب فهى مدنية.

هذا من ناحية الضوابط، أما من ناحية المميزات الموضوعية وخصائص الأسلوب فيمكن إجمالها فيما يأتي:

بيان العبادات والمعاملات والحدود، ونظام الأسرة، والمواريث، وفضل الجهاد، والصلات الاجتماعية، والعلاقات الدولية فى السلم والحرب، وقواعد الحكم، ووسائل التشريع، ومخاطبة أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ودعوتهم إلى الإسلام، وبيان تحريفهم لكتاب الله، وتجنيهم على الحق، واختلافهم من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم، وتحليل نفسية المنافقين، وإزاحة الستار عن خباياهم، وبيان خطرهم على الدين؛ طول السور والآيات فى أسلوب يقرر الشريعة، ويوضح مراميها وأهدافها، على أن هذه الضوابط علامات أغلبية لا حتمية، كما سبق ذلك فى المكي، إذ يوجد فى السور المكية بعض ما فى المدنية من العلامات، لكن قليل، وبالعكس.

معرفة أول ما نزل من القرآن وآخر ما نزل منه

اعلم: وفقنى الله وإياك أن التعبير عن تلقى رسول الله ﷺ للقرآن بنزوله عليه يشعر بقوة، يلمسها المرء فى تصور كل هبوط من أعلى، ذلك لعلو منزلة القرآن، وعظمة تعاليمه التى حولت مجرى حياة البشرية فيها تغيراً ربط السماء بالأرض، ووصل الدنيا بالآخرة، ومعرفة تاريخ التشريع الإسلامى فى مصدره الأول والأصيل- وهو القرآن - تعطى الدارس صورة عن التدرج فى الأحكام، ومناسبة كل حكم للحالة التى نزل فيها، دون تعارض بين السابق واللاحق، وقد تناول هذا الباب أول ما أنزل من القرآن على الإطلاق، وآخر ما نزل على الإطلاق، كما تناول أول ما نزل وآخر ما نزل فى كل تشريع من تعاليم الإسلام، كالأطعمة، والأشربة، والقتال، ونحو ذلك، وللعلماء فى أول ما نزل من القرآن على الإطلاق، وآخر ما نزل كذلك أقوالٌ، نجملها ونرجح بينها فيما يأتي:

فأول ما نزل:

أصح الأقوال أن أول ما نزل على الإطلاق هو قوله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق: ١-٥)، ويدل عليه ما رواه الشيخان وغيرهما عن عائشة رضى الله عنها قالت: «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، فكان يأتى حراء فيتحنث فيه الليالى ذوات العدد ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة رضى الله عنها فتزوده لمثلها حتى فجأه الحق وهو فى غار حراء، فجاءه الملك فيه فقال: اقرأ، قال رسول الله ﷺ: **فقلت: ما أنا بقارئ،** فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى فقال: اقرأ، **فقلت: ما أنا بقارئ،** فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى فقال: اقرأ، **فقلت: ما أنا بقارئ،** فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى فقال: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى

خَلَقَ ﴾ (العلق: ٢) حتى بلغ:﴿مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره» الحديث.

وقيل إن أول ما نزل هو قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ﴾ (المدثر: ١)، لما رواه الشيخان عن أبى سلمة ابن عبد الرحمن قال: «سألت جابر ابن عبد الله أى القرآن أنزل قبل؟ قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ قلت: أو ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ﴾ قال: أحدثكم ما حدثنا به رسول الله ﷺ **«إنى جاورت بحراء، فلما قضيت جوارى نزلت فاستبطنت الوادي، فنظرت أمامى وخلفى وعن يمينى وشمالي، ثم نظرت إلى السماء فإذا هو -يعنى جبريل- فاخذتنى رجفة، فاتيت خديجة فامرتهم فدثروني، فانزل الله:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ﴾ (المدثر: ١-٢).

وأجيب عن حديث جابر بأن السؤال كان عن نزول سورة كاملة، فبيّن جابر أن سورة المدثر نزلت بكاملها قبل نزول تمام سورة اقرأ، فإن أول ما نزل منها صدرها، ويؤيد هذا ما فى الصحيحين أيضاً عن أبى سلمة عن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي، فقال فى حديثه: **«بينا انا امشى سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض، فرجعت فقلت: زملوني، فدثروني، فانزل الله:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾».

هذا الحديث يدل على أن هذه القصة متأخرة عن قصة حراء.

أو تكون المدثر أول سورة نزلت بعد فترة الوحي، وقد استخرج جابر ذلك باجتهاده، فتقدم عليه رواية عائشة، ويكون أول ما نزل من القرآن على الإطلاق: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ (العلق: ٢)، وأول سورة نزلت كاملة أو أول ما نزل بعد فترة الوحى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ أو أول ما نزل للرسالة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ وللنبوة: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾.

وقيل إن أول ما نزل هو سورة (الفاتحة) ولعل المراد أول سورة كاملة.

وقيل: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ والبسملة تنزل صدراً لكل سورة، ودليل هذين أحاديث مرسلة، والقول الأول المؤيد بحديث عائشة هو الراجح المشهور.

وقد ذكر الزركشى فى (البرهان) حديث عائشة الذى نص على أن أول ما نزل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ﴾، ثم قال: وجمع بعضهم بينهما بأن جابراً سمع النبى ﷺ يذكر قصة بدء الوحي، فسمع آخرها، ولم يسمع أولها، فتوهم أنها أول ما نزلت، وليس كذلك، نعم هى أول ما نزل بعد سورة: ﴿ٱقْرَأْ﴾ وفترة الوحي، لما ثبت فى الصحيحين أيضاً عن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يحدث عن فترة الوحي، قال فى حديثه: «**بينا أنا أمشى سمعت صوتاً من السماء، فرفعت رأسي، فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض، فجئثت منه فرجعت فقلت: زملوني، فأنزل الله تبارك وتعالى:** ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ﴾» فقد أخبر فى هذا الحديث عن الملك الذى جاءه بحراء قبل هذه المرة، وأخبر فى حديث عائشة أن نزول: ﴿ ٱقْرَأْ ﴾، كان فى غار حراء، وهو أول وحى، ثم فتر بعد ذلك، وأخبرنى فى حديث جابر أن الوحي تتابع بعد نزول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ فعلم بذلك أن: ﴿ٱقْرَأْ﴾ أول ما نزل مطلقاً، وأن سورة المدثر بعده.

وكذلك قال ابن حبان فى صحيحه لا تضاد بين الحديثين، بل أول ما نزل: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ بغار حراء، فلما رجع إلى خديجة رضى الله عنها وصبت عليه الماء البارد، أنزل الله عليه فى بيت خديجة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ فظهر أنه لما نزل عليه ﴿ٱقْرَأْ﴾ رجع فتدثر، فأنزل عليه ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾.

وقيل: أول ما نزل سورة الفاتحة، روى ذلك من طريق أبى إسحاق عن أبى ميسرة قال: كان رسول الله ﷺ إذا سمع الصوت انطلق هارباً وذكر نزول الملك عليه، وقوله قل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ إلى آخرها.

وقال القاضى أبو بكر فى (الانتصار): وهذا الخبر منقطع، وأثبت الأقاويل أن أول ما نزل من الآيات: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ وأول ما نزل من أوامر التبليغ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ وأول ما نزل من السور سورة الفاتحة، وهذا كما ورد فى الحديث: «**أول ما يحاسب به العبد الصلاة**» و«**أول ما يقضى فيه الدماء**» وجمع بينهما

بأن أول ما يحكم فيه من المظالم التى بين العباد الدماء، وأول ما يحاسب به العبد من الفرائض البدنية الصلاة.

وقيل: أول ما نزل للرسالة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، وللنبوة ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، فإن العلماء قالوا: قوله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ دال على نبوة محمد ﷺ، لأن النبوة عبارة عن الوحى إلى الشخص على لسان الملك بتكليف خاص، وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ دليل على رسالته ﷺ، لأنها عبارة عن الوحى إلى الشخص على لسان الملك بتكليف عام والله أعلم.

آخر ما نزل:

١- قيل: آخر ما نزل آية الربا: لما أخرجه البخارى عن ابن عباس قال: «آخر آية نزلت آية الربا» والمراد بها قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾ (البقرة:٢٧٨).

٢- وقيل: آخر ما نزل من القرآن قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٨١)، الآية، لما رواه النسائى وغيره عن ابن عباس وسعيد بن جبير: «آخر شيء نزل من القرآن» ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ الآية.

٣- وقيل: آخر ما نزل آية الدين، لما روى عن سعيد بن المسيب: «أنه بلغه أن أحدث القرآن عهداً بالعرش آية الدين» والمراد بها: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾ (البقرة: ٢٨٢) الآية.

ويجمع بين الروايات الثلاث بأن هذه الآيات نزلت دفعة كترتيبها فى المصحف، آية الربا، فآية ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا﴾ (البقرة: ٢٨١)، فآية الدين، لأنها فى قصة واحدة فأخبر كل راو عن بعض ما نزل بأنه آخر، وذلك صحيح، وبهذا لا يقع التنافى بينها.

٤- وقيل: آخر ما نزل آية الكلالة، فقد روى الشيخان وحملت الآخرية هنا فى قول البراء على أنها مقيدة بما يتعلق بالمواريث.

٥- وقيل: آخر ما نزل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ (التوبة: ١٢٨)، إلى آخر السورة، ففى «المستدرك» عن أبى بن كعب قال: آخر آية نزلت: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إلى آخر السورة، وحمل هذا على أنها آخر ما نزل من سورة براءة رواه مسلم عن ابن عباس، ويحمل هذا الخبر على أن هذه السورة آخر ما نزل مشعراً بوفاة النبى ﷺ كما فهم بعض الصحابة منها ذلك، أو أنها آخر ما نزل من السور.

٦- وقيل: آخر ما نزل سورة المائدة، لما رواه الترمذى والحاكم فى ذلك عن عائشة رضى الله عنها، وأجيب بأن المراد أنها آخر سورة نزلت فى الحلال والحرام، فلم تنسخ فيها أحكام.

٧- وقيل: آخر ما نزل قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ﴾ (آل عمران: ١٩٥).

لما أخرجه ابن مردويه من طريق مجاهد عن أم سلمة أنها قالت: آخر آية نزلت هذه الآية ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ﴾ إلى آخرها، وذلك أنها قالت: يا رسول الله يذكر الرجال ولا يذكر النساء فنزلت: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (النساء: ٣٢)، ونزلت: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ (الأحزاب: ٣٥)، ونزلت هذه الآية، فهى آخر الثلاثة نزولاً، وآخر ما نزل بعدها كان ينزل فى الرجال خاصة.

ويتضح من الرواية أن الآية المذكورة آخر الآيات الثلاث نزولاً وأنها آخر ما نزل بالنسبة إلى ما ذكر فيه النساء.

٨- وقيل آخر ما نزل آية: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٩٣)، لما أخرجه البخارى وغيره عن ابن عباس قال: «هذه الآية: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا

﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾، هى آخر ما نزل وما نسخها شيء»، والتعبير بقوله: «وما نسخها شيء» يدل على أنها آخر ما نزل فى حكم قتل المؤمن عمداً.

٩- وعن ابن عباس قال: آخر سورة نزلت: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾.

وهذه الأقوال ليس فيها شيء مرفوع إلى النبى ﷺ، وكلٌ قال بضرب من الاجتهاد وغلبة الظن ويحتمل أن كلاً منهم أخبر عن آخر ما سمعه من الرسول، أو قال ذلك باعتبار آخر ما نزل فى تشريع خاص أو آخر سورة نزلت كاملة على النحو الذى خرجنا به كل قول منها.

أما قوله تعالى: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾ (المائدة: ٣)، فإنها نزلت بعرفة عام حجة الوداع، ويدل ظاهرها على إكمال الفرائض والأحكام، وقد سبقت الإشارة إلى ما روى فى نزول آية الربا، وآية الدين وآية الكلالة، وغيرها بعد ذلك، لذا حمل كثير من العلماء إكمال الدين فى هذه الآية على أن الله أتم عليهم نعمته بتمكينهم من البلد الحرام وإجلاء المشركين عنه، أو حجهم وحدهم دون أن يشاركهم فى البيت الحرام أحد من المشركين.

وقد كان المشركون يحجون معهم من قبل، وذلك من تمام النعمة: ﴿وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾. قال القاضى أبو بكر الباقلانى فى (الانتصار) معلقاً على اختلاف الروايات عن آخر ما نزل: هذه الأقوال ليس فيها شيء مرفوع إلى النبى ﷺ، ويجوز أن يكون قاله قائله بضرب من الاجتهاد وغلبة الظن، أو يحتمل أن كلاً منهم أخبر عن آخر ما سمعه من النبى ﷺ فى اليوم الذى مات فيه أو قبل مرضه بقليل، وغيره سمع منه بعد ذلك وإن لم يسمعه هو، ويحتمل أيضاً أن تنزل هذه الآية التى هى آخر آية تلاها الرسول ﷺ مع آيات نزلت معها، فيؤمر برسم ما نزل معها بعد رسم تلك، فيظن أنه آخر ما نزل فى الترتيب.

ثم إليك أوائل موضوعية:

وقد تناول العلماء أوائل ما نزل بالنسبة إلى موضوعات خاصة، ومن ذلك:

١- أول ما نزل فى الأطعمة: فأول آية نزلت بمكة آية الأنعام ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الأنعام: ١٤٥).

ثم آية النحل ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (النحل: ١١٤-١١٥).

ثم آية البقرة ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (البقرة: ١٧٣).

ثم آية المائدة ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (المائدة: ٣).

٢- أول ما نزل في الأشربة: أول آية نزلت فى الخمر آية البقرة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (البقرة: ٢١٩).

ثم آية النساء:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ (النساء: ٤٣).

ثـم آيـة المـائـدة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَـٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَـٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ (المائدة: ٩٠-٩١).

عن ابن عمر قال: «نزل في الخمر ثلاث آيات، فأول شيء: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ﴾ الآية، فقيل: حرمت الخمر. فقالوا: يا رسول الله دعنا ننتفع بها كما قال الله، فسكت عنهم، ثم نزلت هذه الآية: ﴿لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَـٰرَىٰ﴾ فقيل: حرمت الخمر، فقالوا: يا رسول الله ألا نشربها قرب الصلاة، فسكت عنهم. ثم نزلت: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ﴾ الآية، فقال رسول الله ﷺ حرمت الخمر.

٣- أول ما نزل في القتال عن ابن عباس قال: «أول آية نزلت في القتال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾ (الحج: ٣٩)» والله أعلم.

فوائد هذا المبحث:

ولمعرفة أول ما نزل وآخر ما نزل من القرآن فوائد أهمها:

أ- بيان العناية التي حظي بها القرآن الكريم صيانةً له وضبطاً لآياته. فقد وعى الصحابة هذا الكتاب آية آية، فعرفوا متى نزلت؟ وأين نزلت؟ حيث كانوا يتلقون عن رسول الله ﷺ ما يتنزل عليه من القرآن تلقى المؤمنين لأصول دينهم، ومبعث إيمانهم، ومصدر عزهم ومجدهم، وكان من أثر ذلك سلامة القرآن من التغيير والتبديل ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ (الحجر: ٩).

ب- إدراك أسرار التشريع الإسلامي في تاريخ مصدره الأصيل؛ فإن آيات القرآن الكريم عالجت النفس البشرية بهداية السماء، وأخذت الناس بالأساليب الحكيمة التي ترقى بنفوسهم في سلم الكمال، وتدرجت بهم في الأحكام التي

يستقيم بها منهج حياتهم على الحق وتنظم شئون مجتمعهم على الطريق الأقوم.

جـ- تمييز الناسخ عن المنسوخ، فقد ترد الآيتان أو الآيات في موضوع واحد، ويختلف الحكم فى إحداها عن الأخرى، فإذا عرف ما نزل أولاً وما نزل آخراً، كان حكم ما نزل آخراً، ناسخاً لحكم ما نزل أولاً.

مرات نزول القرآن

قد شرف الله القرآن الكريم بأن جعل له تنزيلات ثلاث:

الأولى إلى اللوح المحفوظ: ودليله قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ (البروج: ٢١-٢٢)، وكان هذا الوجود فى اللوح بطريقة وفى وقت لا يعلمه إلا الله جل جلاله، ومن أطلعه من عباده على غيبه، وكان جملة لا مفرقاً، لأنه الظاهر من اللفظ عند الإطلاق ولا صارف عنه، وليس هناك حكمة لتنجيمه فى هذا النزول، كما حصل فى تنجيمه عند نزوله على الرسول ﷺ، وترجع حكمة هذا النزول إلى الحكمة العامة من وجود اللوح نفسه وإقامته سجلاً جامعاً لكل ما قضى الله وقدّر وما كان وما يكون من عوالم الإيجاد والتكوين، فهو شاهد ناطق، ومظهر من أروع المظاهر الدالة على عظمة الله وقدرته وعلمه وإرادته وحكمته وواسع سلطانه.

ولا ريب أن الإيمان به يقوّى إيمان العبد بربه، ويبعث الطمأنينة إلى نفسه، والثقة بكل ما يظهره الله لخلقه من ألوان هدايته وشرائعه وكتبه وسائر أقضيته وشئونه فى عباده، كما يحمل الناس على السكون والرضا تحت سلطان القضاء والقدر، ومن هنا تهون عليه الحياة بسرائها وضرائها، كما قال جل وعلا: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (الحديد: ٢٢).

على أن الإيمان باللوح وبالكتابة فيه أثر صالح فى استقامة العبد المؤمن على الجادة، وتفانيه فى طاعة الله ومرضاته، ويبعده عن مساخطه ومعاصيه، لاعتقاده

أنها مسطورة عند الله فى لوحه، مسجلة لديه فى كتابه، قال جل ذكره: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ (القمر: ٥٣).

الثانى من التنزيلات: النزول إلى بيت العزة فى السماء الدنيا، ودليله قوله سبحانه فى سورة الدخان: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ (الدخان: ٣) ، وكذا قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ (القدر: ١)، وفى سورة البقرة: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ (البقرة: ١٨٥).

فهذه الآيات تدل على أن القرآن أنزل فى ليلة واحدة توصف بأنها مباركة من آية الدخان، وتسمى ليلة القدر، من سورة القدر، وهى من ليالى شهر رمضان، وذلك جمعاً بين النصوص الثلاثة فى العمل بها ودفعاً للتعارض فيما بينها.

ومعلوم بالأدلة القاطعة أن القرآن أنزل على النبى ﷺ مفرقاً منجماً حسب الحوادث والوقائع والأسئلة التى تختلج فى صدور العرب، ولم ينزل عليه فى ليلة واحدة، بل فى ثلاث وعشرين سنة، فتعين أن يكون النزول التى دلت عليه الآيات الثلاث السابقة نزولاً من نوع آخر غير النزول على النبى ﷺ وقد جاءت الأخبار الصحيحة لمكان هذا النزول، وأنه فى بيت العزة من السماء الدنيا، كما تدل عليه الروايات الآتية:

فقد أخرج الحاكم بسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: «فصل القرآن من الذكر، فوضع فى بيت العزة من السماء الدنيا، فجعل جبريل ينزل به على النبى ﷺ».

وأخرج النسائى والحاكم والبيهقى من طريق داود بن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: «أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا ليلة القدر ثم أنزل بعد ذلك فى عشرين سنة» ثم قرأ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (الفرقان: ٣٣)، ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ (الإسراء: ١٠٦).

وأخرج الحاكم والبيهقى وغيرهما من طريق منصور عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا وكان بمواقع النجوم، وكان الله ينزله على رسوله ﷺ».

وأخرج ابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس أنه سأله عطية بن الأسود، فقال: أوقع فى قلبى الشك قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ وهذا أنزل فى شوال وفى ذى القعدة وفى ذى الحجة وفى المحرم وصفر وشهر ربيع. فقال ابن عباس: إنه أنزل فى رمضان فى ليلة القدر جملة واحدة ثم أنزل على مواقع النجوم مفرقاً يتلو بعضه بعضاً على تؤدة ورفق.

فهذه الأحاديث الأربعة من جملة أحاديث ذكرت فى هذا الباب، وكلها صحيحة كما قال العلامة السيوطى، وهى أحاديث موقوفة عن ابن عباس.

غير أن لها حكم المرفوع إلى النبى ﷺ، لما هو مقرر من أن قول الصحابى فيما لا مجال للرأى فيه ولم يعرف بالأخذ عن الإسرائيليات فحكمه حكم المرفوع. ولا ريب أن نزول القرآن إلى بيت العزة من أنباء الغيب التى لا تعرف إلا من المعصوم، وابن عباس لم يعرف بالأخذ عن الإسرائيليات، فثبت الاحتجاج بهذه الأحاديث، وكان هذا النزول جملة واحدة فى ليلة واحدة هى ليلة القدر، كما علمت، لأنه المتبادر من التصور للنصوص الثلاثة السابقة، وللتنصيص على ذلك فى الأحاديث التى عرضت من قبل. بل ذكر السيوطى أن القرطبى نقل حكاية الإجماع على نزول القرآن جملة واحدة إلى بيت العزة فى السماء الدنيا، والحكمة فى هذا النزول كما نقل العلامة أبو شامة هى تفخيم أمر القرآن وأمر من نزل عليه بإعلام سكان السموات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم، وبإنزاله مرتين مرة جملة ومرة مفرقاً، بخلاف الكتب السابقة فقد كانت تنزل جملة ومرة واحدة.

أما التنزيل الثالث للقرآن: فهو واسطة عقد التنزيلات لأنه المرحلة الأخيرة

فمنها شع النور على العالم، وبه وصلت هداية الله إلى الخلق، وكان هذا النزول بواسطة أمين الوحى جبريل، يهبط به على قلب النبى ﷺ كما يدل عليه قوله سبحانه: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ (الشعراء: ١٩٣-١٩٥).

وخلاصة القول فى كيفية أخذ جبريل القرآن وعمن أخذ، فهى كما قال العلامة الزرقانى فى «مناهل العرفان»: قال البيهقى فى معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ يريد والله أعلم أنا أسمعنا الملك وأفهمناه وأنزلناه بما سمع، ومعنى هذا أن جبريل أخذ القرآن عن الله سماعاً، ويرى أنه أمثل الأقوال من ناحية أخذ جبريل عن الله عز وجل لا من ناحية تأويل النزول فى الآية بابتداء النزول.

ويؤيد ذلك ما أخرجه الطبرانى من حديث النواس بن سمعان مرفوعاً إلى النبى ﷺ: **«إذا تكلم بالوحى أخذت السماء رجفة شديدة من خوف الله، فإذا سمع أهل السماء صعقوا، وخروا سجداً، فيكون أولهم يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله بوحيه بما أراد، فينتهى به حيث أمر»** انتهى.

ومهما يكن من أمر فإن هذا الموضوع لا يتعلق به كبير غرض ما دمنا نقطع بأن مرجع التنزيل هو الله وحده تعالى، المهم نعلم فى هذا المقام أن الذى نزل به جبريل على النبى ﷺ هو القرآن باعتبار أنه الألفاظ الحقيقية المعجزة من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس، وهذه الألفاظ هى كلام الله وحده، لا دخل لجبريل ولا لمحمد ﷺ فى إنشائها وترتيبها، بل الذى رتبها أولاً هو الله سبحانه وتعالى، ولذلك تنسب له دون سواه، وإن نطق بها جبريل ومحمد ﷺ وملايين الخلق من بعد محمد وجبريل من لدن نزول القرآن إلى قيام الساعة.

وأشار بعض العلماء إلى حكمة ذلك أنه تعظيم لشأن القرآن، وتشريف المنزَّل عليه، قال السيوطى: قيل السر فى إنزاله جملة إلى السماء تفخيم أمره وأمر من نزل

عليه، وذلك بإعلام سكان السماوات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم قد قربناه إليهم لينزل عليهم.

ولولا أن الحكمة الإلهية اقتضت وصوله إليهم منجماً بحسب الوقائع لهبط به على الأرض جملة كسائر الكتب المنزلة قبله، ولكن الله باين بينه وبينها، فجعل له الأمرين: إنزاله جملة، ثم إنزاله مفرقاً تشريفاً للمنزّل عليه.

وقال السخاوى فى «جمال القراء» فى نزوله إلى السماء جملة تكريم بنى آدم وتعظيم شأنهم عند الملائكة وتعريفهم عناية الله بهم، ورحمته لهم ولهذا المعنى أمر الله سبعين ألفاً من الملائكة أن تشيع سورة الأنعام، وزاد سبحانه فى هذا المعنى بأن أمر جبريل بإملائه على السفرة الكرام البررة وإنساخهم إياه وتلاوتهم له.

نزول القرآن منجماً:

يقول تعالى فى التنزيل: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ (الشعراء: ١٩٣-١٩٥)، ويقول: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: ١٠٢).

ويقول ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ (الجاثية: ٢).

ويقول ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٣).

ويقول ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: ٩٧).

فهذه الآيات ناطقة بأن القرآن الكريم كلام الله بألفاظه العربية، وأن جبريل نزل به على قلب رسول الله ﷺ وأن هذا النزول غير النزول الأول إلى سماء الدنيا

فالمراد به نزوله منجماً، ويدل التعبير بلفظ التنزيل دون الإنزال على أن المقصود النزول على سبيل التدريج والتنجيم، فإن علماء اللغة يفرقون بين الإنزال والتنزيل، فالتنزيل لما نزل مفرقاً، والإنزال أعم.

وقد نزل القرآن منجماً فى ثلاث وعشرين سنة، منها ثلاث عشرة بمكة على الرأى الراجح، وعشر بالمدينة، وجاء التصريح بنزوله مفرقاً فى قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَـٰهُ تَنزِيلًا﴾ (الإسراء: ١٠٦). أى جعلنا نزوله مفرقاً كى تقرأه على الناس على مهل وتثبت، ونزلناه تنزيلاً بحسب الوقائع والأحداث.

أما الكتب السماوية الأخرى- كالتوراة والإنجيل والزبور- فكان نزولها جملة ولم تنزل مفرقة، يدل على هذا قوله تعالى:﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلًا﴾ (الفرقان: ٣٢).

فهذه الآية دليل على أن الكتب السماوية السابقة نزلت جملة، وهو ما عليه جمهور العلماء، ولو كان نزولها مفرقاً لما كان هناك ما يدعو الكفار إلى التعجب من نزول القرآن منجماً، فمعنى قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ﴾ هلا أنزل القرآن دفعة واحدة كسائر الكتب؟ وما له أنزله على التنجيم؟ ولم أنزل مفرقا؟ ولم يرد الله عليهم بأن هذه سنته فى إنزال الكتب السماوية كلها كما رد عليهم فى قولهم: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ (الفرقان:٧). بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾(الفرقان: ٢٠)، وكما رد عليهم فى قولهم: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ (الإسراء: ٩٤) بقوله﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَـٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ (الإسراء:٩٥).

وقول ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ (الأنبياء: ٧)، بل أجابهم الله تعالى ببيان وجه الحكمة فى تنزيل القرآن الكريم منجماً بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ (الفرقان: ٣٢)، أى كذلك أنزل مفرقاً لحكمة هى تقوية

قلب رسول الله: ﴿وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلًا﴾ أى قدرناه آية بعد آية بعضه إثر بعض، أو بيناه تبييناً فإن إنزاله مفرقا حسب الحوادث أقرب إلى الحفظ والفهم وذلك من أعظم أسباب التثبت.

والذى استقرئ من الأحاديث الصحيحة أن القرآن كان ينزل بحسب الحاجة خمس آيات وعشر آيات وأكثر وأقل، وقد صح نزول العشر آيات فى قصة الإفك جملة، وصح نزول عشر آيات فى أول المؤمنين جملة، وصح نزول ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾ وحدها، وإليك:

حكمة نزول القرآن منجماً:

نستطيع أن نستخلص حكمة نزول القرآن الكريم منجماً من النصوص الواردة فى ذلك، ونجملها فيما يأتي:

الحكمة الأولى: تثبيت فؤاد رسول الله ﷺ:

لقد وجه رسول الله ﷺ دعوته إلى الناس فوجد منهم نفوراً وقسوة، وتصدى له قوم غلاظ الأكباد فُطروا على الجفوة، وجُبلوا على العناد، يتعرضون له بصنوف الأذى والعنت، مع رغبته الصادقة فى إبلاغهم الخير الذى يحمله إليهم، حتى قال الله فيه ﴿فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (الكهف: ٦)، فكان الوحى يتنزل على رسول الله ﷺ فترة بعد فترة، بما يثبت قلبه على الحق، ويشد عزمه للمضى قدماً فى طريق دعوته، لا يبالى بظلمات الجهالة التى يواجهها من قومه، فإنها سحابة صيف عما قريب تنقشع.

ويبين الله له سننه فى الأنبياء السابقين الذين كُذبوا وأوذوا، فصبروا حتى جاءهم نصر الله، وأن قومه لم يكذبوه إلا علواً واستكباراً، فيجد عليه الصلاة والسلام فى ذلك السنة الإلهية فى موكب النبوة عبر التاريخ، التى يتأسى بها تسلية له عند أذى قومه، وتكذيبهم له، وإعراضهم عنه ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ

كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ﴾ (الأنعام: ٣٣-٣٤) ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ (آل عمران: ١٨٤).

ويأمره القرآن بالصبر كما صبر الرسل من قبله ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ (الأحقاف: ٣٥).

ويطمئن نفسه بما تكفل الله به من كفايته أمر المكذبين ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾

(المزمل: ١٠-١١)

وهذا هو ما جاء فى حكمة قصص الأنبياء بالقرآن﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ (هود: ١٢٠).

وكلما اشتد ألم رسول الله ﷺ لتكذيب قومه، وداخله الحزن لأذاهم نزل القرآن دعماً وتسلية له، يهدد المكذبين بأن الله يعلم أحوالهم وسيجازيهم على ما كان منهم:﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (يس: ٧٦).

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ (يونس: ٦٥).

كما يبشره الله تعالى بآيات المنعة والغلبة والنصر﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ (المائدة: ٦٧)، ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ (الفتح: ٣)، ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾(المجادلة: ٢١).

وهكذا كانت آيات القرآن تتنزل على رسول الله ﷺ تباعاً تسلية له بعد تسلية، وعزاء بعد عزاء، حتى لا يأخذ منه الحزن مأخذه، ولا يستبد به الأسى، ولا يجد اليأس إلى نفسه سبيلاً، فله فى قصص الأنبياء أسوة، وفى مصير المكذبين سلوى، وفى العدة بالنصر بشرى، وكلما عرض له شيء عن الحزن بمقتضى الطبع البشرى تكررت التسلية، فثبت قلبه على دعوته واطمأن إلى النصر.

وهذه الحكمة هى التى رد الله بها على اعتراض الكفار فى تنجيم القرآن بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ (الفرقان: ٣٢).

قال أبو شامة: فإن قيل: ما السر فى نزوله منجماً؟ وهلا أنزل كسائر الكتب جملة؟ قلت: هذا سؤال قد تولى الله جوابه.

فقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ (الفرقان: ٣٢)، يعنون كما أنزل على من قبله من الرسل فأجابهم تعالى بقوله (كذلك) أى أنزلناه مفرقا﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ أى لنقوّى به قلبك، فإن الوحى إذا كان يتجدد فى كل حادثة كان أقوى للقلب وأشد عناية بالمرسل إليه، ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك إليه، وتجدد العهد به وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجناب العزيز، فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة، ولهذا كان أجود ما يكون فى رمضان لكثرة لقياه جبريل.

الحكمة الثانية التحدى والإعجاز:

فالمشركون تمادوا فى غيهم، وبالغوا فى عتوهم، وكانوا يسألون أسئلة تعجيز وتحد، يمتحنون بها رسول الله فى نبوته، ويسوقون له عن ذلك كل عجيب من باطلهم، كعلم الساعة﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ (الأعراف: ١٨٧).

واستعجال العذاب ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ (الحج: ٤٧) فينزل القرآن بما يبين وجه الحق لهم، وبما هو أوضح معنى فى مؤدى أسئلتهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾(الفرقان: ٣٣)، أى ولا يأتونك بسؤال عجيب من أسئلتهم الباطلة إلا أتيناك نحن بالجواب الحق، وبما هو أحسن معنى من تلك الأسئلة التى هى مثل فى البطلان، وحيث عجبوا من نزول القرآن منجماً بيّن الله لهم الحق فى ذلك، فإن تحديهم به مفرقاً مع عجزهم عن الإتيان بمثله أدخل فى الإعجاز، وأبلغ فى الحجة من أن ينزل جملة، ويقال لهم: جيئوا بمثله، ولهذا جاءت الآية عقب اعتراضهم﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً

وَٰحِدَةًۚ﴾ (الفرقان: ٣٢)، أى لا يأتونك بصفة عجيبة يطلبونها كنزول القرآن جملة إلا أعطيناك من الأحوال ما يحق لك فى حكمتنا وبما هو أبين معنى فى إعجازهم، وذلك بنزوله مفرقاً.

ويشير إلى هذه الحكمة ما جاء ببعض الروايات فى حديث ابن عباس عن نزول القرآن: «فكان المشركون إذا أحدثوا شيئا أحدث الله لهم جوابا»[١].

الحكمة الثالثة: تيسير حفظه وفهمه:

لقد نزل القرآن الكريم على أمة أمية لا تعرف القراءة والكتابة، سجلها ذاكرة حافظة، ليس لها دراية بالكتابة والتدوين حتى تكتب وتدوّن، ثم تحفظ وتفهم، قال تعالى﴿ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (الجمعة: ٢).

وقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ (الأعراف: ١٥٧)، فما كان للأمة الأمية أن تحفظ القرآن كله بيسر لو نزل جملة واحدة، وأن تفهم معانيه وتتدبر آياته، فكان نزوله مفرقاً خير عون لها على حفظه فى صدورها وفهم آياته، كلما نزلت الآية أو الآيات حفظها الصحابة وتدبروا معانيها، ووقفوا عند أحكامها، واستمر هذا منهاجاً للتعليم فى حياة التابعين.

عن أبى نضرة قال: (كان أبو سعيد الخدرى يعلمنا القرآن خمس آيات بالغداة، وخمس آيات بالعشى، ويخبر أن جبريل نزل بالقرآن خمس آيات خمس آيات)[٢] وعن خالد بن دينار قال: (قال لنا أبو العالية: تعلموا القرآن خمس آيات خمس آيات فإن النبى ﷺ كان يأخذه من جبريل خمساً خمساً)[٣].

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن عباس.

(٢) أخرجه ابن عساكر.

(٣) أخرجه البيهقي.

وعن عمر قال: (تعلموا القرآن خمس آيات خمس آيات، فإن جبريل كان ينزل بالقرآن على النبى ﷺ خمساً خمساً)(١).

الحكمة الرابعة:

مسايرة الحوادث والتدرج فى التشريع، فما كان الناس ليسلس قيادهم طفرةً للدين الجديد لولا أن القرآن عالجهم بحكمة، وأعطاهم من دوائه الناجع جرعات يستطبون بها عن الفساد والرذيلة، وكلما حدثت حادثة بينهم نزل الحكم فيها يجلى لهم صبحها ويرشدهم إلى الهدى، ويضع لهم أصول التشريع حسب المقتضيات أصلاً بعد آخر، فكان هذا طباً لقلوبهم.

لقد كان القرآن الكريم بادئ ذى بدء يتناول أصول الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وجزاء وجنة ونار، ويقيم على ذلك الحجج والبراهين، حتى يستأصل من نفوس المشركين العقائد الوثنية، ويغرس فيها عقيدة الإسلام.

وكان يأمر بمحاسن الأخلاق التى تزكو بها النفس ويستقيم عوجها، وينهى عن الفحشاء والمنكر ليقتلع جذور الفساد والشر، ويبين قواعد الحلال والحرام التى يقوم عليها صرح الدين، وترسو دعائمه فى المطاعم والمشارب والأموال والأعراض والدماء.

ثم تدرج التشريع بالأمة فى علاج ما تأصل فى النفوس من أمراض اجتماعية بعد أن شرع لهم من فرائض الدين وأركان الإسلام ما يجعل قلوبهم عامرة بالإيمان خالصة لله، تعبده وحده لا شريك له.

كما كان القرآن يتنزل وفق الحوادث التى تمر بالمسلمين فى جهادهم الطويل، لإعلاء كلمة الله.

ولهذا كله أدلته من نصوص القرآن الكريم إذا تتبعنا مكيه ومدنيه وقواعد تشريعه.

---

(١) أخرجه البيهقى فى « شعب الإيمان»

ففى مكة شرعت الصلاة، وشرع الأصل العام للزكاة مقارناً بالرب﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ (الروم: ٣٨-٣٩).

ونزلت سورة الأنعام- وهى مكية- تبين أصول الإيمان، وأدلة التوحيد، وتندد بالشرك والمشركين، وتوضح ما يحل وما يحرم من المطاعم، وتدعو إلى صيانة حرمات الأموال والدماء والأعراض﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الأنعام:١٥١-١٥٢).

ثم نزل بعد ذلك تفصيل هذه الأحكام.

فأصول المعاملات المدنية نزلت بمكة، ولكن تفصيل أحكامها نزل بالمدينة كآية المداينة وآيات تحريم الربا.

وأسس العلاقات الأسرية نزلت بمكة، أما بيان حقوق كل من الزوجين وواجبات الحياة الزوجية وما يترتب على ذلك من استمرار العشرة أو انفصامها بالطلاق، أو انتهائها بالموت ثم الإرث أما بيان هذا فقد جاء فى التشريع المدني.

وأصل الزنى حُرمّ بمكة ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ (الإسراء: ٣٢) ،ولكن العقوبات المترتبة عليه نزلت بالمدينة.

وأصل حرمة الدماء نزل بمكة﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ (الإسراء: ٣٣)، ولكن تفصيل عقوباتها فى الاعتداء على النفس والأطراف نزل بالمدينة.

وأوضح مثال لذلك التدرج فى التشريع تحريم الخمر فقد نزل قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (النحل: ٦٧)، فى مقام الامتنان بنعمه سبحانه، وإذا كان المراد بالسَكر ما يسكر من الخمر، وبالرزق ما يؤكل من هاتين الشجرتين كالتمر والزبيب، وهذا ما عليه جمهور المفسرين فإن وصف الرزق بأنه حسن دون وصف السَكر يشعر بمدح الرزق والثناء عليه وحده دون السكر.

ثم نزل قوله تعالى﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ (البقرة: ٢١٩)، فقارنت الآية بين منافع الخمر فيما يصدر عن شربها من طرب ونشوة، أو يترتب على الاتجار بها من ربح، ومضارها فى إثم تعاطيها وما ينشأ عنه من ضرر فى الجسم وفساد فى العقل وضياع المال وإثارة لبواعث الفجور والعصيان، ونفرت الآية منها بترجيح المضار على المنافع.

ثم نزل قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ ﴾ (النساء: ٤٣)، فاقتضى هذا الامتناع عن شرب الخمر فى الأوقات التى يستمر تأثيرها إلى وقت الصلاة، حيث جاء النهى عن قربان الصلاة فى حال السكر حتى يزول عنهم أثره، ويعلموا ما يقولونه فى صلاتهم.

ثم نزل قوله تعالى﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ (المائدة: ٩٠-٩١)، أى فانتهوا فالاستفهام بمعنى النهى فكان هذا تحريماً قاطعاً للخمر فى الأوقات كلها.

ويوضح هذه الحكمة ما روى عن عائشة رضى الله عنها قالت: إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام

نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء (لا تشربوا الخمر) لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل (لا تزنوا) لقالوا: لا ندع الزنى أبداً.

وهكذا كان التدريج فى تربية الأمة وفق ما يمر بها من الأحداث، فقد استشار رسول الله ﷺ صحابته فى أسرى بدر، فقال عمر: اضرب أعناقهم، وقال أبو بكر: نرى أن تعفو عنهم وأن تقبل منهم الفداء، فأخذ رسول الله ﷺ برأى أبى بكر، فنزل قوله تعالى ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (الأنفال: ٦٧-٦٨).

وأعجب المسلمون بكثرتهم يوم حنين حتى قال رجل: لن نغلب اليوم من قلة، فتلقوا درساً قاسياً في ذلك، ونزل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

(التوبة: ٢٥-٢٧).

ولما توفى عبد الله بن أبيٍّ- رأس المنافقين- دعا رسول الله ﷺ للصلاة عليه، فقام عليه، فلما وقف قال عمر: أعلى عدو الله عبد الله بن أبى القائل كذا وكذا، والقائل كذا وكذا ؟- يعدد أيامه- ورسول الله ﷺ يبتسم، ثم قال له: إنى قد خُيِّرت، قد قيل لى ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ (التوبة: ٨٠)، فلو أعلم أنى إن زدت على السبعين غفر له لزدت عليها، ثم صلى عليه رسول الله ﷺ، ومشى معه حتى قام على قبره حتى فرغ منه.

قال عمر: فعجبت لى وبجرأتى على رسول الله ﷺ والله ورسوله أعلم، فوالله

ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ (التوبة: ٨٤-٨٥) الآيات.

فما صلى رسول الله ﷺ على منافق بعده حتى قبضه الله عز وجل.

الحكمة الخامسة: الدلالة القاطعة على أن القرآن الكريم تنزيل من حكيم حميد: فهذا القرآن الذى نزل منجماً على رسول الله ﷺ فى أكثر من عشرين عاماً تنزل الآية أو الآيات على فترات يقرؤه الإنسان فيجده محكم النسج، دقيق السبك، مترابط المعاني، رصين الأسلوب، متناسق الآيات والسور، كأنه عقد فريد، نظمت حباته بما لم يعهد له مثيل فى كلام البشر، قال ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: ١)، ولو كان هذا القرآن من كلام البشر قيل فى مناسبات وأحداث لوقع فيه التفكك والانفصام، واستعصى أن يكون بينه هذا التوافق والانسجام ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ٨٢)، وأحاديث الرسول ﷺ، وهى فى ذروة البلاغة والفصاحة بعد القرآن لا تنتظم حباتها فى كتاب واحد سلس العبارة يأخذ بعضه برقاب بعض، بمثل ما عليه القرآن. والله أعلم.

أسباب النزول

قد نزل القرآن ليهدى الإنسانية إلى المحجة الواضحة، ويرشدها إلى الطريق المستقيم، ويقيم لها أسس الحياة الفاضلة التى تقوم دعامتها على الإيمان بالله ورسالاته، ويقرر أحوال الماضي، ووقائع الحاضر، وأخبار المستقبل.

وأكثر القرآن نزل ابتداء لهذه الأهداف العامة، ولكن الصحابة ﷺ فى حياتهم مع رسول الله ﷺ قد شاهدوا أحداث السيرة، وقد يقع بينهم حادث خاص يحتاج إلى بيان شريعة الله فيه، أو يلتبس عليهم أمر فيسألون رسول الله ﷺ عنه لمعرفة حكم الإسلام فيه، فيتنزل القرآن لذلك الحادث، أو لهذا السؤال الطارئ، ومثل هذا يعرف بأسباب النزول.

عناية العلماء به:

وقد اعتنى الباحثون فى علوم القرآن بمعرفة سبب النزول، ولمسوا شدة الحاجة إليه فى تفسير القرآن فأفرده جماعة منهم بالتأليف، ومن أشهرهم: (على ابن المديني) شيخ البخاري، ثم (الواحدي) فى كتابه «أسباب النزول»، ثم (الجعبري)[١] الذى اختصر كتاب (الواحدي)، فاختصره بحذف أسانيده ولم يزد عليه شيئاً ثم شيخ الإسلام (ابن حجر)[٢] الذى ألف كتاباً فى أسباب النزول اطلع السيوطى على جزء من مسودته، ولم يتيسر له الوقوف عليه كاملاً، ثم (السيوطي)[٣] الذى قال عن نفسه: «وقد ألفت فيه كتاباً حافلاً موجزاً محرراً لم يؤلف مثله فى هذا النوع: سميته «لباب المنقول فى أسباب النزول»[٤].

ما يعتمد عليه فى معرفة سبب النزول:

والعلماء يعتمدون فى معرفة سبب النزول على صحة الرواية عن رسول الله ﷺ، أو عن الصحابة، فإن إخبار الصحابى عن مثل هذا إذا كان صريحاً لا يكون بالرأي، بل يكون له حكم المرفوع.

قال الواحدي: (لا يحل القول فى أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل، ووقفوا على الأسباب، وبحثوا عن علمها وجدوا فى الطلب فيها) وهذا هو نهج علماء السلف، فقد كانوا يتورعون عن أن يقولوا شيئاً فى ذلك دون تثبت.

---

(١) هو برهان الدين إبراهيم بن عمر، كان له عناية بعلوم القرآن، فألف «روضة الطرائف فى رسم المصاحف» و«كنز المعاني» وهو شرح للشاطبية فى القراءات، توفى سنة ٧٣٢ هجرية.

(٢) هو أبو الفضل شهاب الدين الحافظ ابن حجر العسقلانى واسمه أحمد بن على ينسب إلى عسقلان بفلسطين، كان له عناية بالحديث واشتهر بعلومه، وكتبه عماد فى هذا الفن توفى سنة ٨٥٢ هجرية.

(٣) هو جلال الدين عبد الرحمن السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هجرية.

(٤) انظر الإتقان ص (٢٨/ ١).

قال (محمد بن سيرين)[١] سألت (عبيدة) عن آية من القرآن فقال: (اتق الله وقل سداداً، ذهب الذين يعلمون فيما أنزل الله من القرآن) -وهو يعنى الصحابة- وإذا كان هذا هو قول (ابن سيرين) من أعلام علماء التابعين تحرياً للرواية، ودقة فى الفصل، فإنه يدل على وجوب الوقوف عند أسباب النزول الصحيحة.

ولذا فإن المعتمد من ذلك فيما روى من أقوال الصحابة ما كانت صيغته جارية مجرى المسند، بحيث تكون هذه الصيغة جازمة بأنها سبب النزول.

وذهب (السيوطي) إلى أن قول التابعى إذا كان صريحاً فى سبب النزول فإنه يقبل، ويكون مرسلاً، إذا صح المسند إليه، وكان من أئمة التفسير الذين أخذوا عن الصحابة، كمجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير، واعتضد بمرسل آخر[٢].

وقد أخذ (الواحدي) على علماء عصره تساهلهم فى رواية سبب النزول، ورماهم بالإفك والكذب، وحذرهم من الوعيد الشديد، حيث يقول: (أما اليوم فكل أحد يخترع شيئاً، ويختلق إفكاً وكذباً، ملقياً زمامه إلى الجهالة، غير مفكر فى الوعيد للجاهل بسبب الآية).

تعريف السبب:

وسبب النزول بعد هذا التحقيق يكون قاصراً على أمرين:

١-أن تحدث حادثة فيتنزل القرآن الكريم بشأنها، وذلك كالذى روى عن ابن عباس قال: لما نزل ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٤)، خرج النبي ﷺ حتى صعد الصفا، فهتف: **«يا صباحاه، فاجتمعوا إليه فقال: «أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقى؟ قالوا ما جربنا عليك كذباً،**

---

(١) تابعى من علماء البصرة، اشتهر بعلوم الحديث وتعبير الرؤيا وتوفى سنة ١١٠ هجرية.
(٢) انظر الإتقان (١/٣١)

قال: **فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد؟**» فقال أبو لهب[١]: تباً لك إنما جمعتنا لهذا ؟ ثم قام فنزلت هذه السورة ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[٢] (المسد: ١).

٢- أن يُسأل رسول الله ﷺ عن شيء فيتنزل القرآن ببيان الحكم فيه، كالذى كان من خولة بنت ثعلبة عندما ظاهر[٣] منها زوجها أوس بن الصامت، فذهبت تشتكى من ذلك.

عن عائشة قالت: تبارك الذى وسع سمعه كل شيء، إنى لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة، ويخفى علىَّ بعضه، وهى تشتكى زوجها إلى رسول الله ﷺ وهى تقول: يا رسول الله، أكل شبابى ونثرت له بطني، حتى إذا كبرت سنى وانقطع ولدى ظاهر منى، اللهم إنى أشكو إليك، قالت: فما برحت حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ (المجادلة: ١)، وهو أوس بن الصامت[٤].

ولا يعنى هذا أن يلتمس الإنسان لكل آية سبباً، فإن القرآن لم يكن نزوله وقفاً على الحوادث والوقائع، أو على السؤال والاستفسار، بل كان القرآن يتنزل ابتداء بعقائد الإيمان، وواجبات الإسلام، وشرائع الله تعالى فى حياة الفرد وحياة الجماعة.

قال الجعبري: (نزل القرآن على قسمين: قسم نزل ابتداء، وقسم نزل عقب واقعة أو سؤال)[٥].

ولذا يُعرَّف سبب النزول بما يأتي: هو ما نزل قرآن بشأنه وقت وقوعه كحادثة أو سؤال. ومن الإفراط فى علم سبب النزول أن نتوسع فيه، ونجعل منه ما هو من قبيل الأخبار عن الأحوال الماضية، والوقائع الغابرة، قال (السيوطي): والذى

---

(١) اسمه عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم

(٢) أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما.

(٣) الظهار: أن يقول الرجل لامرأته: أنت علىَّ كظهر أمي، واختلفوا فى غير هذه الصيغة.

(٤) أخرجه ابن ماجه وابن أبي حاتم والحاكم وصححه، وابن مردويه والبيهقي.

(٥) انظر الإتقان (٢٨/ ١).

يتحرر فى سبب النزول أنه ما نزلت الآية أيام وقوعه، ليخرج ما ذكره الواحدى فى تفسيره فى سورة الفيل من أن سببها قصة قدوم الحبشة، فإن ذلك ليس من أسباب النزول فى شيء، بل هو من باب الإخبار عن الوقائع الماضية، كذكر قصة قوم نوح وعاد وثمود وبناء البيت ونحو ذلك، وكذلك ذكره فى قوله﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ (النساء: ١٢٥)، سبب اتخاذه خليلاً، فليس ذلك من أسباب نزول القرآن كما لا يخفي.

فوائد معرفة سبب النزول

لمعرفة سبب النزول فوائد أهمها:

أ- بيان الحكمة التى دعت إلى تشريع حكم من الأحكام، وإدراك مراعاة الشرع للمصالح العامة فى علاج الحوادث رحمة بالأمة.

ب- تخصيص حكم ما نزل إن كان بصيغة العموم بالسبب عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ، وهى مسألة خلافية سيأتى لها مزيد من الإيضاح، وقد يُمثّل لهذا بقوله تعالى﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (آل عمران: ١٨٨).

فقد روى أن مروان قال لبوابه: اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقل: لئن كان كل امرئ منا أوتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل يعذب لنعذبن أجمعون، فقال ابن عباس: ما لكم ولهذه الآية، إنما نزلت فى أهل الكتاب، ثم تلا ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ (آل عمران: ١٨٧)، الآية.

قال ابن عباس: سألهم رسول الله ﷺ عن شيء فكتموه إياه وأخذوا بغيره، فخرجوا وقد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه، وفرحوا بما أوتوا من كتمان ما سألهم عنه.

جـ- إذا كان لفظ ما نزل عاماً وورد دليل على تخصيصه، فمعرفة السبب تقصر

التخصيص على ما عدا صورته، ولا يصح إخراجها، لأن دخول صورة السبب فى اللفظ العام قطعي، فلا يجوز إخراجها بالاجتهاد لأنه ظني، وهذا هو ما عليه الجمهور، وقد يُمثّل لهذا بقوله تعالى:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ (النور: ٢٣-٢٥).

فإن هذه الآية نزلت فى عائشة خاصة، أو فيها وفى سائر أزواج النبى ﷺ، عن ابن عباس فى قوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ نزلت فى عائشة خاصة[١]، وعن ابن عباس فى هذه الآية أيضاً: هذه فى عائشة وأزواج النبى ﷺ، ولم يجعل الله لمن فعل ذلك توبة، وجعل لمن رمي امرأة من المؤمنات من غير أزواج النبى ﷺ التوبة- ثم قرأ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ (النور:٤-٥)[٢].

وعلى هذا فإن قبول توبة القاذف وإن كان مخصصاً لعموم قوله تعالى:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ لا يتناول بالتخصيص من قذف عائشة، أو قذف سائر أزواج النبى ﷺ، فإن هذا لا توبة له، لأن دخول صورة السبب فى اللفظ العام قطعي.

د- ومعرفة سبب النزول خير سبيل لفهم معانى القرآن، وكشف الغموض الذى يكتنف بعض الآيات فى تفسيرها ما لم يعرف سبب نزولها، قال (الواحدي): لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها.

قال (ابن دقيق العيد): «بيان سبب النزول طريق قوى فى فهم معانى القرآن».

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه.

(٢) أخرجه سعيد بن منصور وابن جرير والطبراني وابن مردويه- راجع تفسير ابن جرير وتفسير ابن كثير.

وقال ابن تيمية: ومعرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب[١] ومن أمثلة ذلك ما أشكل على مروان بن الحكم في فهم الآية الآنفة الذكر ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (آل عمران: ١٨٨)، حتى أورد له ابن عباس سبب النزول، ومثله آية ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ١٥٨)، فإن ظاهر لفظ الآية لا يقتضى أن السعى فرض، لأن الجناح يفيد الإباحة لا الوجوب، وذهب بعضهم إلى هذا تمسكاً بالظاهر[٢].

وقد ردت عائشة على عروة بن الزبير فى فهمه ذلك بما ورد فى سبب نزولها، وهو أن الصحابة تأثموا من السعى بينهما؛ لأنه من عمل الجاهلية، حيث كان على الصفا إساف، وعلى المروة نائلة، وهما صنمان وكان أهل الجاهلية إذا سعوا مسحوها.

عن عائشة أن عروة قال لها: أرأيت قول الله ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ١٥٨)، فما أرى على أحد جناحاً أن لا يطوف بهما؟ فقالت عائشة: بئس ما قلت يا بن أختي، إنها لو كانت على ما أوّلتها كانت فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما، ولكنها إنما أنزلت، إن الأنصار قبل أن يسلموا كانوا يهلون لمناة الطاغية التى كانوا يعبدونها، وكان من أهلَّ لها يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة فى الجاهلية، فأنزل الله ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ الآية قالت عائشة: ثم قد بيّن رسول الله ﷺ الطواف بهما، فليس لأحد أن يدع الطواف بهما[٣].

---

(١) انظر الإتقان ص ٢٨.

(٢) حكى الزمخشرى فى الكشاف عن أبى حنيفة أنه يقول: إن السعى واجب وليس بركن وعلى تاركه دم – وقد ذهب إلى عدم الوجوب ابن عباس وابن الزبير وأنس بن مالك وابن سيرين.

(٣) أخرجه الشيخان، وغيرهما.

هـ- ويوضح سبب النزول من نزلت فيه الآية، حتى لا تحمل على غيره بدافع الخصومة والتعامل، الذى ذكر في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ (الأحقاف: ١٧)، فقد أراد (معاوية) أن يستخلف (يزيد) وكتب إلى (مروان) على المدينة بذلك، فجمع الناس وخطبهم ودعاهم إلى بيعة (يزيد) فأبى عبد الرحمن بن أبى بكر أن يبايع، فأراده (مروان) بسوء لولا أن دخل بيت عائشة، وقال مروان: إن هذا الذى أنزل الله فيه ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ (الأحقاف: ١٧)، فردت عليه عائشة وبينت له سبب نزولها، عن يوسف بن ماهك قال: كان مروان على الحجاز استعمله معاوية بن أبى سفيان، فخطب فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكى يبايع له بعد أبيه، فقال عبد الرحمن بن أبى بكر شيئاً، فقال: خذوه فدخل بيت عائشة فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إن هذا أنزل فيه﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ فقالت عائشة: «ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن إلا أن الله أنزل عذري[١]».

وفى بعض الروايات: (أن مروان لما طلب البيعة ليزيد قال: سنة أبى بكر وعمر، فقال عبد الرحمن: سنة هرقل وقيصر، فقال مروان: هذا الذى قال الله فيه ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ الآية، فبلغ ذلك عائشة فقالت: «كذب مروان، والله ما هو به، ولو شئت أن أسمى الذى نزلت فيه لسميته»[٢].

العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب:

إذا اتفق ما نزل مع السبب فى العموم، أو اتفق معه فى الخصوص، حمل العام على عمومه، والخاص على خصوصه.

---

(١) أخرجه البخارى.

(٢) أخرجه عبد بن حميد، والنسائى، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن محمد بن زيد، قال لما بايع مروان لابنه قال مروان إلخ ...

ومثال الأول قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة: ٢٢٢).

عن أنس قال: «إن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم أخرجوها من البيت ولم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجامعوها في البيوت، فسئل رسول الله ﷺ عن ذلك، فأنزل الله ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ الآية، فقال رسول الله ﷺ: «**جامعوهن فى البيوت، واصنعوا كل شيء إلا النكاح**».[(١)]

ومثال الثاني قوله ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ (الليل: ١٧-٢١)، فإنها نزلت فى أبى بكر، والأتقى أفعل تفضيل مقرون بأل العهدية، فيختص بمن نزل فيه، وإنما تفيد أل العموم إذا كانت موصولة أو معرّفة من جمع على الراجح، و(أل) فى الأتقى ليست موصولة؛ لأنها لا توصل بأفعل التفضيل، والأتقى ليس جمعاً بل هو مفرد، والعهد موجود لاسيما وأن صيغة أفعل تدل على التمييز، وذلك كاف فى قصر الآية على من نزلت فيه.

ولذا قال الواحدى: الأتقى أبو بكر الصديق فى قول جميع المفسرين، عن عروة أن أبا بكر الصديق أعتق سبعة كلهم يُعَّذب فى الله: بلال، وعامر بن فهيرة، والنهدية وابنتها، وأم عيسى، وأمة بنى الموئل، وفيه نزلت ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾ (الليل: ١٧) إلى آخر السورة[(٢)].

وروى نحوه عن عامر بن عبد الله بن الزبير وزاد فيه: فنزلت فيه هذه الآية ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ إلى قوله ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ (الليل: ١٩-٢١)[(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم، وأهل السنن، وغيرهم.

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم.

(٣) أخرجه الحاكم، وصححه.

أما إذا كان السبب خاصاً ونزلت بصيغة العموم فقد اختلف الأصوليون: أتكون العبرة بعموم اللفظ أم بخصوص السبب؟

١ - فذهب الجمهور إلى أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؛ فالحكم الذى يؤخذ من اللفظ العام يتعدى صورة السبب الخاص إلى نظائرها، كآيات اللعان التى نزلت فى قذف هلال بن أمية زوجته، فعن ابن عباس أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبى ﷺ بشريك بن سحماء فقال النبى ﷺ: «**البينة وإلا حد فى ظهرك**» فقال: يا رسول الله، إن رأى أحدنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة؟ فجعل رسول الله ﷺ يقول: «**البينة وإلا حد فى ظهرك**»، فقال: والذى بعثك بالحق إنى لصادق، ولينزلن الله ما يبرئ ظهرى من الحد، ونزل جبريل فأنزل عليه﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ (النور: ٦)، حتى ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ (النور:٦-٩)[1]. فيتناول الحكم المأخوذ من هذا اللفظ العام﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ ، غير حادثة هلال دون احتياج إلى دليل آخر.

وهذا هو الرأى الراجح والأصح، وهو الذى يتفق مع عموم أحكام الشريعة، والذى سار عليه الصحابة والمجتهدون من هذه الأمة فعّدوا بحكم الآيات إلى غير صورة سببها، كنزول آية الظهار فى أوس بن الصامت، أو سلمة بن صخر- على اختلاف الروايات فى ذلك- والاحتجاج بعموم آيات نزلت على أسباب خاصة شائعُ لدى أهل العلم.

قال ابن تيمية: قد يجيء هذا كثيراً، ومن هذا الباب قولهم هذه الآية نزلت فى كذا، ولا سيما إن كان المذكور شخصاً كقولهم: إن آية الظهار نزلت فى امرأة ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم﴾ (المائدة: ٤٩)، نزلت فى بنى قريظة والنضير، ونظائر ذلك مما يذكرون أنه نزل فى قوم من المشركين بمكة، أو فى قوم من اليهود والنصارى، أو فى قوم من المؤمنين، فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أن حكم الآية يختص بأولئك

---

(١) أخرجه البخارى، والترمذى، وابن ماجه.

الأعيان دون غيرهم، هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق، والناس وإن تنازعوا فى اللفظ العام الوارد على سبب هل يختص بسببه، فلم يقل أحد: إن عمومات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين.

وإنما غاية ما يقال إنها تختص بنوع ذلك الشخص، فتعم ما يشبهه، ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ، والآية التى لها سبب معين إن كانت أمراً ونهياً فهى متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته؛ وإن خبراً يمدح أو يذم فهى متناولة لذلك الشخص ولمن كان بمنزلته.

وذهب جماعة إلى أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ، فاللفظ العام دليل على صورة السبب الخاص، ولابد من دليل آخر لغيره من الصور كالقياس ونحوه، حتى يبقى لنقل رواية السبب الخاص فائدة، ويتطابق السبب والمسبب تطابق السؤال والجواب.

صيغة سبب النزول:

لسبب النزول صيغتان لأنها إما أن تكون نصاً صريحاً فى السببية، وإما أن تكون محتملة.

فتكون نصاً صريحاً فى السببية إذا قال الراوي: (سبب نزول هذه الآية كذا)، أو إذا أتى بفاء تعقيبية داخلة على مادة النزول بعد ذكر الحادثة أو السؤال كما إذا قال: (حدث كذا) أو سئل رسول الله عن كذا فنزلت الآية، فهاتان صيغتان صريحتان فى السببية، وسيأتى لهما الأمثلة.

وأما الاحتمال يعنى تكون الصيغة محتملة للسببية ولما تضمنته الآية من الأحكام، مثل قول الراوي: (نزلت هذه الآية فى كذا)، فذلك يراد به تارة سبب النزول، ويراد به تارة أنه داخل فى معنى الآية وكذلك إذا قال أحسب هذه الآية نزلت فى كذا، أو ما حسب هذه الآية نزلت إلا فى كذا فإن الراوى بهذه الصيغة لا يقطع بالسبب.

ومثال الصيغة الأولى: ما روى أن ابن عمر ﷺ قال: «أنزلت ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ﴾ (البقرة: ٢٢٣)، الآية فى إتيان النساء فى أدبارهن».

ومثال الصيغة الثانية: ما روى عن عبد الله بن الزبير: (أن الزبير خاصم رجلاً من الأنصار قد شهد بدراً مع النبى ﷺ إلى رسول الله ﷺ فى شراج من الحرة، وكانا يسقيان به كلاهما النخل، فقال الأنصاري: سرح الماء يمر فأبى عليه. فقال رسول الله ﷺ: «**اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك**» فغضب الأنصارى وقال: يا رسول الله أن كان ابن عمتك؟ فتلون وجه الرسول ﷺ ثم قال: «**اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر، ثم أرسل الماء إلى جارك**» واستوفى رسول الله ﷺ للزبير حقه.

وكان رسول الله ﷺ قبل ذلك أشار على الزبير برأى أراد فيه سعة للأنصاري، فلما أحفظ رسول الله الأنصارى استوفى للزبير حقه فى صريح الحكم. فقال الزبير: ما أحسب هذه الآية نزلت إلا فى ذلك ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ﴾ (النساء: ٦٥).

قال ابن تيمية: قولهم نزلت هذه الآية فى كذا يراد به تارة سبب النزول، ويراد به تارة أن ذلك داخل فى الآية وإن لم يكن السبب، وقد تنازع العلماء فى قول الصحابى نزلت هذه الآية فى كذا، هل يجرى مجرى المسند كما لو ذكر السبب الذى نزلت لأجله أو يجرى مجرى التفسير منه.

فالبخارى يدخله فى المسند وغيره لا يدخله، وأكثر المسانيد على هذا الاصطلاح، كمسند أحمد، وغيره، بخلاف ما إذا ذكر سبباً نزلت الآية عقبه فإنهم كلهم يدخلون مثل هذا المسندَ.

وقال الزركشى فى «البرهان»: قد عُرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال: نزلت هذه الآية فى كذا فإنه يريد بذلك أنها تتضمن هذا الحكم، لا أن هذا كان السبب فى نزولها، فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية، لا من جنس النقل لما وقع، والله أعلم.

فصل فيما أنزل من القرآن
على لسان بعض الصحابة رضى الله عنهم

والأصل فى هذا الباب الآيات التى جاءت موافقة لرأى عمر بن الخطاب ﷺ فقد أخرج الترمذى عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه**» قال ابن عمر: وما نزل بالناس أمر قط فقالوا وقال إلا نزل القرآن على نحو ما قال عمر. وأخرجه ابن مردويه، عن مجاهد، قال: كان عمر يرى الرأي، فينزل به القرآن.

وأخرج البخارى وغيره، عن أنس، قال: قال عمر: وافقت ربى فى ثلاث، قلت: يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى؟ فنزلت ﴿مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ (البقرة: ١٢٥)، وقلت: يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر، فلو أمرتهن أن يحتجبن؟ فنزلت آية الحجاب، واجتمع على رسول الله ﷺ نساؤه فى الغيرة، فقلت لهن: (عسى ربكم إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن) فنزلت كذلك.

وأخرج مسلم عن ابن عمر، عن عمر، قال: وافقت ربى فى ثلاث: فى الحجاب، وفى أسارى بدر، وفى مقام إبراهيم.

وأخرج ابن أبى حاتم عن أنس، قال: قال عمر: وافقت ربى -أو وافقنى ربي- فى أربع، فنزلت هذه الآية ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ (المؤمنون: ١٢) الآية، فلما نزلت قلت أنا فنزلت: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾ (المؤمنون: ١٤).

وأخرج عن عبد الرحمن بن أبى ليلى أن يهودياً لقى عمر بن الخطاب، فقال: إن جبريل الذى يذكر صاحبكم عدو لنا، فقال عمر: من كان عدواً لله وملائكته، ورسله، وجبريل وميكال، فإن الله عدو للكافرين، قال: فنزلت على لسان عمر.

وأخرج سنيد فى تفسيره، عن سعيد بن جبير، أن سعداً بن معاذ لما سمع ما قيل فى أمر عائشة قال (سبحانك هذا بهتان عظيم) فنزلت كذلك.

وأخرج ابن أبى حاتم، عن عكرمة، قال: لما أبطأ على النساء الخبرُ فى أُحُد خرجن يستخبرن، فإذا رجلان مقبلان على بعير، فقالت امرأة: ما فعل رسول الله ﷺ؟ قال: ﷺ حي. قالت: فلا أبالى، يتخذ الله من عباده الشهداء فنزل القرآن على ما قالت ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ (آل عمران: ١٤٠). وقال ابن سعد فى «الطبقات» أخبرنا الواقدى، حدثنى إبراهيم بن محمد بن شرحبيل العبدرى، عن أبيه، قال: حمل مصعب بن عمير اللواء يوم أحد فقطعت يده اليمنى، فأخذ اللواء بيده اليسرى، وهو يقول (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) ثم قطعت يده اليسرى، فحنا على اللواء وضمه بعضديه إلى صدره، وهو يقول (وما محمد إلا رسول...) الآية ثم قتل، فسقط اللواء.

قال محمد بن شرحبيل: وما نزلت هذه الآية (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم)، يومئذ حتى نزلت بعد ذلك، ويقرب من هذا ما ورد فى القرآن على لسان غير الله عز وجل: كالنبى عليه الصلاة والسلام وجبريل والملائكة غير مصرّح بإضافته إليهم ولا محكى بالقول كقوله تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ (الأنعام: ١٠٤)، الآية، فإن هذا ورد على لسانه ﷺ لقوله بآخر الآية﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم﴾ ، وكذلك قوله تعالى:﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾ (الأنعام:١١٤) فإنه أوردها أيضاً على لسانه وكذا﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ (مريم:٦٤)، فإنها واردة على لسان جبريل.

وقوله: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ (الصافات: ١٦٤)، فذلك وارد على لسان الملائكة، ثم قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ، فوارد على لسان العباد، إلا أنه هنا يمكن تقدير القول أي: قولوا، وكذا الآيتان الأوليان يصح أن تقدر فيها قل بخلاف الثالثة والرابعة فلا يقدر فيها، والله أعلم.

فصل فيما تكرر نزوله

صرح جماعة من المتقدمين والمتأخرين بأن من القرآن ما تكرر نزوله، قال ابن الحصار: قد يتكرر نزول الآية تذكيراً وموعظة، وذكر من ذلك خواتيم سورة النحل، وأول سورة الروم.

وذكر ابن كثير منه آية الروح، وذكر قوم منه الفاتحة، وذكر بعضهم منه قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ (التوبة: ١١٣) الآية.

وقال الزركشى فى «البرهان»: قد ينزل الشيء مرتين تعظيماً لشأنه، وتذكيراً عند حدوث سببه خوف نسيانه، ثم ذكر منه آية الروح، وقوله تعالى:﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾ (هود: ١١٤) الآية.

قال: فإن سورة الإسراء وهود مكيتان، وسبب نزولهما يدل على أنهما نزلتا بالمدينة، ولهذا أشكل ذلك على بعضهم ولا إشكال، لأنها نزلت مرة بعد مرة، قال: وكذلك ما ورد فى سورة الإخلاص من أنها جواب للمشركين بمكة، وجواب لأهل الكتاب بالمدينة، وكذلك قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ (التوبة: ١١٣)، قال: والحكمة فى هذا كله أنه قد يحدث سبب من سؤال أو حادثة تقتضى نزول آية، وقد نزل قبل ذلك ما يتضمنها فيوحى إلى النبى ﷺ تلك الآية بعينها، تذكيراً لهم بها وبأنها تتضمن هذه.

تنبيه:

وقد يجعل من ذلك: الأحرف التى تقرأ على وجهين فأكثر، ويدل له ما أخرجه مسلم من حديث أبيّ: **«أن ربى أرسل إلىَّ أن اقرأ القرآن على حرف، فرددت إليه: أن هوّن على أمتى فأرسل إلىَّ أن اقرأه على حرفين، فرددت إليه: أن هوّن على أمتي، فأرسل إلىَّ أن اقرأه على سبعة أحرف»** فهذا الحديث يدل على أن القرآن لم ينزل من أول وهلة، بل مرة بعد أخرى.

وفى «جمال القراء» للسخاوى بعد أن حكى القول بنزول الفاتحة مرتين: إن

قيل: فما فائدة نزولها مرة ثانية؟ قلت: يجوز أن يكون نزلت أول مرة على حرف واحد، ونزلت فى الثانية ببقية وجوهها، نحو ملك ومالك والسراط والصراط ونحو ذلك، انتهى.

تنبيه:

قد أنكر بعضهم كون شيء من القرآن يتكرر نزوله، كذا رأيته فى كتاب «الكفيل بمعانى التنزيل» وعلله بأن تحصيل ما هو حاصل لا فائدة فيه، وهو مردود بما تقدم من فوائده، وبأنه يلزم أن يكون كل ما نزل بمكة نزل بالمدينة مرة أخرى، فإن جبريل كان يعارضه القرآن كل سنة، ورُدَّ بمنع الملازمة وبأنه لا معنى للإنزال إلا أن جبريل كان ينزل على رسول الله ﷺ بقرآن لم يكن نزل به من قبل، فيقرئه إياه، ورُدَّ بمنع اشتراطه قوله: (لم يكن نزل به من قبل) ثم قال: ولعلهم يعنون بنزولها مرتين أن جبريل نزل حين حولت القبلة، فأخبر الرسول ﷺ أن الفاتحة ركن فى الصلاة كما كانت بمكة، فظن ذلك نزولاً لها مرة أخرى، أو أقرأه فيها قراءة أخرى لم يقرئها له بمكة فظن ذلك إنزالاً. انتهى.

ما تأخر حكمه عن نزوله
وما تأخر نزوله عن حكمه

قال الزركشى فى «البرهان»: قد يكون النزول سابقاً على الحكم، كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ (الأعلى: ١٤)، فقد روى البيهقى وغيره عن ابن عمر أنها نزلت فى زكاة الفطر، وأخرج البزار نحوه مرفوعاً.

وقال بعضهم: لا أدرى ما وجه هذا التأويل؟ لأن السورة مكية، ولم يكن بمكة عيد ولا زكاة ولا صوم، وأجاب البغوى: بأنه يجوز أن يكون النزول سابقاً على الحكم، كما قال: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ (البلد: ١-٢) فالسورة مكية، وقد ظهر أثر الحل يوم فتح مكة، حين قال عليه السلام: **«أحلت لى ساعة من نهار»**، وكذلك نزل بمكة ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ (القمر: ٤٥)، قال عمر بن

الخطاب فقلت: أى جمع؟ فلما كان يوم بدر، وانهزمت قريش نظرت إلى رسول الله ﷺ فى آثارهم مصلتاً بالسيف ويقول﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ فكانت يوم بدر أخرجه الطبرانى فى «الأوسط».

وكذلك قوله: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ (ص:١١)، قال قتادة: وعده الله وهو يومئذ بمكة أنه سيهزم جنداً من المشركين فجاء تأويلها يوم بدر أخرجه ابن أبى حاتم.

ومثله أيضاً قوله تعالى:﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ (سبا: ٤٩).

أخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى قوله ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ قال: السيف، والآية مكية متقدمة على فرض القتال، ويؤيد تفسير ابن مسعود ما أخرجه الشيخان من حديثه أيضاً، قال: دخل النبى ﷺ مكة يوم الفتح وحول الكعبة ثلاثمائة وستون نصباً، فجعل يطعنها بعود كان فى يده، ويقول ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (الإسراء:٨١)، ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾.

وقال ابن الحصار: ذكر الله الزكاة فى السور المكيات كثيراً، تصريحاً وتعريضاً، بأن الله سينجز وعده لرسوله، ويقيم دينه ويظهره، حتى تفرض الصلاة والزكاة وسائر الشرائع ولم تؤخذ الزكاة إلا بالمدينة بلا خلاف، وأورد من ذلك قوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ (الأنعام: ١٤١)، وقوله فى سورة المزمل﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ (البقرة:٤٣)، ومن ذلك قوله فيها ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (المزمل: ٢٠).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ (فصلت: ٣٣)، فقد قالت عائشة وابن عمر وعكرمة وجماعة: إنها نزلت فى المؤذنين، والآية مكية، ولم يشرع الأذان إلا بالمدينة.

ومن أمثلة ما تأخر نزوله عن حكمه: آية الوضوء، ففى «صحيح البخاري» عن

عائشة قالت: سقطت قلادة لى بالبيداء، ونحن داخلون المدينة، فأناخ رسول الله ﷺ ونزل فثنى رأسه فى حجرى راقداً، وأقبل أبو بكر، فلكزنى لكزة شديدة، وقال: حبست الناس فى قلادة، ثم إن النبى ﷺ استيقظ، وحضرت الصبح فالتمس الماء فلم يوجد، فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ (المائدة:٦)، فالآية إجماعاً مدنية، وفرض الوضوء كان بمكة مع فرض الصلاة.

قال ابن عبد البر: معلوم عند جميع أهل المغازى أنه ﷺ لم يصل منذ فرضت الصلاة إلا بوضوء، ولا يدافع ذلك إلا جاهل أو معاند، قال: والحكمة فى نزول آية الوضوء مع تقدم العمل به، ليكون فرضه متلواً بالتنزيل.

وقال غيره: يحتمل أن يكون أول الآية نزل مقدماً مع فرض الوضوء، ثم نزل بقيتها، وهو ذكر التيمم فى هذه القصة.

قلت: يرده الإجماع على أن الآية مدنية.

ومن أمثلته أيضاً آية الجمعة، فإنها مدنية والجمعة فرضت بمكة، وقول ابن الفرس: إن إقامة الجمعة لم تكن بمكة قط. يرده ما أخرجه ابن ماجه عن عبد الرحمن بن كعب ابن مالك، قال: كنت قائد أبى حين ذهب بصره، فكنت إذا خرجت به إلى الجمعة، فسمع الأذان يستغفر لأبى أمامة أسعد بن زرارة، فقلت: يا أبتاه أرأيت صلاتك على سعد بن زرارة كلما سمعت النداء بالجمعة لم هذا ؟ قال: أى بني، كان أول من صلى بنا الجمعة قبل مقدم رسول الله ﷺ من مكة.

ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ (التوبة: ٦٠) فإنها نزلت سنة تسع، وقد فرضت الزكاة قبلها فى أوائل الهجرة.

قال ابن الحصار: فقد يكون مصرفها قبل ذلك معلوماً، ولم يكن فيه قرآن متلو، كما كان الوضوء معلوماً قبل نزول الآية، ثم نزلت تلاوة القرآن تأكيداً به.

فصل

ما نزل مفرقاً وما نزل جمعاً

الأول غالب القرآن، ومن أمثلته فى السور القصار ﴿ ٱقۡرَأۡ﴾ أول ما نزل منها إلى قوله: ﴿ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾ (العلق: ٥)، والضحى أول ما نزل منها إلى قوله: ﴿فَتَرۡضَىٰٓ﴾ (الضحى:٥) كما فى حديث الطبراني.

ومن أمثلة الثاني: سورة الفاتحة، والإخلاص، والكوثر، وتبت، ولم يكن، والنصر، والمعوذتان، ونزلتا معاً، ومنه فى السور الطوال المرسلات، ففى «المستدرك» عن ابن مسعود قال: كنا مع النبى ﷺ فى غار، فنزلت عليه﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا﴾ (المرسلات: ١)، فأخذتها من فيه، وإن فاه رطب بها، فلا أدرى بأيها ختم ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ﴾ (المرسلات: ٥٠)، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ﴾ (المرسلات: ٤٨).

ومنه سورة الصف لحديثها السابق فى النوع الأول.

ومنه سورة الأنعام، فقد أخرج أبو عبيد والطبرانى عن ابن عباس، قال: «نزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً جملة، وحولها سبعون ألف ملك».

وأخرج الطبرانى من طريق يوسف بن عطية الصفار - وهو متروك - عن ابن عون عن نافع عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «**نزلت علىّ سورة الأنعام جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك معها خمسمائة ملك**»، وأخرج عن مجاهد قال: «**نزلت الأنعام كلها جملة واحدة**».

وأخرج عن عطاء قال: «أنزلت الأنعام جميعاً ومعها سبعون ألف ملك» فهذه شواهد يقوى بعضها بعضاً.

وقيل: إن الحديث الوارد فى أنها نزلت جملة واحدة فى إسناده ضعف، وقد

روى ما يخالفه، فروى أنها لم تنزل جملة واحدة، بل نزلت آيات منها بالمدينة اختلفوا فى عددها فقيل ثلاث، وقيل غير ذلك. انتهى.

فصل فى عدد سور القرآن
وآياته وكلماته وحروفه

أما سوره فمائه وأربع عشرة سورة بإجماع من يعتد به، وقيل: وثلاث عشرة بجعل الأنفال وبراءة سورة واحدة. وقد أخرج أبو الشيخ عن أبى روق قال: الأنفال وبراءة سورة واحدة.

وأخرج عن أبى رجاء قال: سألت الحسن عن الأنفال وبراءة: سورتان أم سورة؟ قال: سورتان. ونقل مثل قول أبى روق عن مجاهد، وأخرجه ابن أبى حاتم عن سفيان.

وأخرج ابن أشتة، عن ابن لهيعة، قال يقولون: إن براءة ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ (الأنفال: ١) وإنما لم تكتب فى أول براءة ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ لأنها ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ﴾ وشبهتهم اشتباه الطرفين وعدم البسملة، ويرده تسمية النبى ﷺ كلاً منهما.

ونقل صاحب «الإقناع»، أن البسملة ثابتة لبراءة فى مصحف ابن مسعود، قال: ولا يؤخذ بهذا.

قال القشيري: والصحيح أن التسمية لم تكن فيها؛ لأن جبريل عليه السلام لم ينزل بها فيها. وفى «المستدرك» عن ابن عباس قال: «سألت على بن أبى طالب: لم تكتب فى براءة: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ؟ قال لأنها - أى البسملة - أمان، وبراءة نزلت بالسيف.

وعن مالك: أن أولها لما سقط سقط معه البسملة، فقد ثبت أنها كانت تعدل البقرة فى طولها.

وفى مصحف ابن مسعود مائة واثنتا عشرة سورة، لأنه لم يكتب المعوذتين.

وفى مصحف أبىّ ست عشرة، لأنه كتب فى آخره سورتى الحفد والخلع.

أخرج أبو عبيد عن ابن سيرين، قال: كتب أبى بن كعب فى مصحفه فاتحة الكتاب والمعوّذتين.

وأخرج الطبرانى فى «الدعاء» من طريق عباد بن يعقوب الأسدى عن يحيى بن يعلى الأسلمي، عن ابن لهيعة عن ابن هبيرة عن عبد الله بن زرير الغافقى قال: «قال لى عبد الله بن مروان: ولقد علمت ما حملت على حب أبى تراب، إلا أنك أعرابى جاف، فقلت: والله أعلم لقد جمعت القرآن من قبل أن يجتمع أبواك، ولقد علمنى منه على بن أبى طالب سورتين علمهما إياه رسول الله ﷺ ما علمتهما أنت ولا أبوك، اللهم إنا نستعينك ونستغفرك، ونثنى عليك ولا نكفرك، ونخلع ونترك من يفجرك، اللهم إياك نعبد، ولك نصلى ونسجد، وإليك نسعى ونحفد، نرجو رحمتك، ونخشى عذابك، إن عذابك بالكفار مُلْحَق».

وأخرج البيهقى عن طريق سفيان الثوري، عن ابن جريج عن عطاء، عن عبيد ابن عمير، أن عمر بن الخطاب قنت بعد الركوع، فقال: (بسم الله الرحمن الرحيم اللهم إنا نستعينك ونستغفرك، ونثنى عليك ولا نكفرك، ونخلع ونترك من يفجرك)، (بسم الله الرحمن الرحيم إياك نعبد، ولك نصلى ونسجد، وإليك نسعى ونحفد، نرجو رحمتك، ونخشى نقمتك، إن عذابك بالكفار مَلْحَق) قال ابن جريج: حكمة البسملة أنهما سورتان فى مصحف بعض الصحابة، وأخرج محمد بن نصر المروزى فى «كتاب الصلاة» عن أبى بن كعب أنه كان يقنت بالسورتين، فذكرهما، وأنه كان يكتبهما فى مصحفه.

وقال ابن الضريس: أنبأنا أحمد بن حنبل المروزى عن عبد الله بن المبارك، أنبأنا الأحلج عن عبد الله بن عبد الرحمن عن أبيه، قال: فى مصحف ابن عباس قراءة أبىّ وأبى موسى: (بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم إنا نستعينك، ونستغفرك، ونثنى عليك الخير، ولا نكفرك، ونخلع ونترك من يفجرك) وفيه: (اللهم إياك نعبد، ولك

نصلى ونسجد، وإليك نسعى ونحفد، نخشى عذابك، ونرجو رحمتك، إن عذابك بالكفار مُلحَق).

وأخرج الطبرانى بسند صحيح، عن أبى إسحاق، قال: أمَّنا أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد، بخراسان، فقرأ بهاتين السورتين: إنا نستعينك ونستغفرك.

وأخرج البيهقى وأبو داود فى «المراسيل» عن خالد بن أبى عمران، أن جبريل نزَّل ذلك على النبى ﷺ وهو فى الصلاة مع قوله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ﴾ (آل عمران: ١٢٨) الآية، لما قنت يدعو على مضر.

تنبيه:

كذا نقل جماعة عن مصحف أبىّ أنه ست عشرة سورة، والصواب أنه خمس عشرة، فإن سورة «الفيل» وسورة «لإيلاف قريش» فيه سورة واحدة، ونقل ذلك عن السخاوى فى «جمال القراء» عن جعفر الصادق وأبى نهيك أيضاً.

قلت: ويرده ما أخرجه الحاكم والطبرانى من حديث أم هانئ أن رسول الله ﷺ قال: «**فضل الله قريش لسبع**» الحديث، وفيه: «**إن الله أنزل فيهم سورة من القرآن لم يذكر فيها معهم غيرهم** ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ (قريش: ١)».

وفى «كامل الهذلى» عن بعضهم أنه قال: (الضحى) و(ألم نشرح) سورة واحدة. نقله الإمام الرازى فى «تفسيره» عن طاوس وعمر بن عبد العزيز.

فائدة:

قيل: الحكمة فى تسوير القرآن سوراً تحقيق كون السورة بمجردها معجزة وآية من آيات الله، والإشارة إلى أن لكل سورة نمطاً مستقلاً، فسورة «يوسف» تترجم عن قصته، وسورة «براءة» تترجم عن أحوال المنافقين وأسرارهم، إلى غير ذلك، وسُوّرت السور طوالاً وأوساطاً وقصاراً تنبيهاً على أن الطول ليس من شرط الإعجاز، فهذه سورة الكوثر ثلاث آيات، وهى معجزة إعجاز سورة البقرة، ثم

ظهرت لذلك حكمة فى التعليم وتدريج الأطفال من السور القصار إلى ما فوقها، تيسيراً من الله على عباده لحفظ كتابه.

قال الزركشى فى «البرهان»: فإن قلت: فهلا كانت الكتب السابقة كذلك. قلت: لوجهين، أحدهما: أنها لم تكن معجزات من جهة النظم والترتيب، والآخر: أنها تيسيراً للحفظ.

لكن ذكر الزمخشرى ما يخالفه، فقال فى «الكشاف»: والفائدة فى تفصيل القرآن وتقطيعه سوراً كثيرة متعددة وكذلك أنزل الله التوراة والإنجيل والزبور وما أوحاه إلى أنبيائه سوراً، وبوب المصنفون فى كتبهم أبواباً موشحة الصدور بالتراجم، منها أن الجنس إذا انطوت تحته أنواع وأصناف كان أحسن وأفخم من أن يكون باباً واحداً.

ومنها أن القارئ إذا ختم سورة أو باباً من الكتاب، ثم أخذ فى آخر، كان أنشط له، وأبعث على التحصيل منه لو استمر على الكتاب بطوله، ومثله المسافر إذا قطع ميلاً أو فرسخاً (وانتهى إلى رأسى برية) نفّس ذلك عنه ونشط للسير، ومن ثمّ جُزّئ القرآن أجزاء وأخماساً، ومنها أن الحافظ إذا حفظ السورة اعتقد أنه أخذ من كتاب الله طائفة مستقلة بنفسها، فيعظم عنده ما حفظه، ومنه حديث أنس: «**كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدَّ فينا**».

ومن ثَمَّ كانت القراءة فى الصلاة بسورة أفضل، ومنها التفصيل بسبب تلاحق الأشكال والنظائر الملائمة بعضها لبعض، وبذلك تتلاحظ المعانى والنظم، إلى غير ذلك من الفوائد. انتهى.

وما ذكره الزمخشرى من تسوير سائر الكتب هو الصحيح أو الصواب، فقد أخرج ابن أبى حاتم، عن قتادة، قال: كنا نتحدث أن الزبور مائة وخمسون سورة، كلها مواعظ وثناء، ليس فيه حلال ولا حرام ولا فرائض، ولا حدود، وذكروا أن فى الإنجيل سورة تسمى سورة الأمثال إلى غير ذلك، والله أعلم.

فصل في عد الآي

وقد أفرده جماعة من القراء بالتصنيف، قال الجعبري: تعريف الآية أنها قرآن مركب من جمل ولو تقديراً، ذو مبدأ ومقطع، مندرج في سورة، وأصلها العلامة، ومن﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ﴾ لأنها علامة للفضل والصدق أو الجماعة لأنها جماعة لكلمة.

وقال غيره: الآية طائفة من القرآن منقطعة عما قبلها وما بعدها، وقيل: هي الواحدة من المعدودات في السور، سميت به لأنها علامة على صدق من أتى بها، وعلى عجز المتحدى بها.

وقيل: لأنها علامة على انقطاع ما قبلها من الكلام وانقطاعه مما بعدها. قال الواحدي: وبعض أصحابنا يجوّز على هذا القول تسمية أقل من الآية آية، لولا أن التوقيف ورد بما هي عليه الآن.

وقال أبو عمر الداني: لا أعلم كلمة هي وحدها آية إلا قوله ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ (الرحمن: ٦٤) وقال غيره: بل فيه غيرها، مثل ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾ ، ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ ، ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ وكذا فواتح السور عند من عدها.

قال بعضهم: الصحيح أن الآية إنما تعلم بتوقيف من الشارع كمعرفة السورة. قال: فالآية طائفة من حروف القرآن علم بالتوقيف انقطاعها، يعني عن الكلام الذي بعدها في أول القرآن، أو عن الكلام الذي قبلها في آخر القرآن، وعما قبلها وما بعدها في غيرهما. غير مشتمل على مثل ذلك، قال: وبهذا القيد خرجت السورة.

وقال الزمخشري: الآيات علم توقيفي لا مجال للقياس فيه، ولذلك عدو ﴿الٓمٓ﴾ (البقرة: ١)، آية حيث وقعت، ﴿الٓمٓصٓ﴾ (الأعراف: ١)، ولم يعدو﴿الٓمٓر﴾ (الرعد: ١)، ﴿الٓر﴾ (يوسف: ١) وعدو﴿حمٓ﴾ (الدخان: ١) آية في سورها، ﴿طه﴾ (طه:١) ﴿يسٓ﴾ (يس: ١) ولم يعدو﴿طسٓ﴾ (النمل: ١).

قلت: ومما يدل على أنه توقيفى ما أخرجه أحمد فى «مسنده» من طريق ابن أبى النجود، عن زر، عن ابن مسعود، قال: «أقرأني رسول الله ﷺ سورة من الثلاثين من ﴿حم﴾، قال: يعنى الأحقاف. قال: وكانت السورة إذا كانت أكثر من ثلاثين آية سميت الثلاثين ...» الحديث.

وقال ابن العربي: ذكر النبى ﷺ أن الفاتحة سبع آيات وسورة الملك: ثلاثون آية، وصح أنه قرأ العشر الآيات الخواتم من سورة آل عمران، قال: وتعديد الآى من معضلات القرآن، ومن الآيات طويل وقصير، منه ما ينتهى إلى تمام الكلام، ومنه ما يكون فى أثنائه وقال غيره: سبب اختلاف السلف فى عدد الآى أن النبى ﷺ كان يقف على رءوس الآى للتوقيف، فإذا علم محلها وصل للتمام، فيحسب السامع حينئذ أنها ليست فاصلة.

وقد أخرج ابن الضريس، من طريق عثمان بن عطاء، عن أبيه عن ابن عباس قال: جميع آى القرآن ستة آلاف وستمائة آية، وجميع حروف القرآن ثلاثمائة ألف حرف وثلاثة وعشرون ألف حرف وستمائة حرف وواحد وسبعون حرفاً (٣٢٣٦٧١).

قال الداني: أجمعوا على أن عدد آيات القرآن ستة آلاف آية، ثم اختلفوا فيما زاد على ذلك، منهم من لم يزد، ومنهم من قال: ومائتا آية وأربع آيات، وقيل: وأربع عشرة، وقيل: وتسع عشرة، وقيل وخمس وعشرون وقيل: وست وثلاثون آية.

قلت: أخرج الديلمى فى «مسند الفردوس»، من طريق الفيض بن ويثق، عن فرات بن سليمان: عن ميمون بن مهران، عن ابن عباس مرفوعاً: «**درج الجنة على قدر آى القرآن، بكل آية درجة، فتلك ستة آلاف آية ومائتا آية وست عشرة آية بين كل درجين مقدار ما بين السماء والأرض، ولا حرج على فضل الله، فهو يعطى من يشاء، ويمنع من يشاء، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير**» والله أعلم.

فصل فيما نزل من القرآن على بعض الأنبياء
وما لم ينزل منه على أحد قبل النبى ﷺ

ولنبدأ بالقسم الذى اختص به النبى ﷺ ولم ينزل على أحد قبله فمن ذلك القسم سورة الفاتحة وخواتيم سورة البقرة، وأما الفاتحة فأخرج البيهقى فى «الشعب» من حديث أنس مرفوعاً: **«إن الله أعطانى فيما مَنَّ به علىَّ: إنى أعطيتك فاتحة الكتاب، وهى من كنوز عرشي»**، وأما خواتيم سورة البقرة فأخرج أحمد وغيره من حديث عقبة بن عامر مرفوعاً: **«اقرءوا هاتين الآيتين فإن ربى أعطانيهما من تحت عرشه»**.

وأخرج من حديث حذيفة: **«أعطيت هذه الآيات من آخر سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يعطها نبى قبلي»**.

وأما آية الكرسى فتقدمت فى حديث معقل بن يسار.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: **«كان رسول الله ﷺ إذا قرأ آية الكرسى ضحك، وقال: إنها من كنز الرحمن تحت العرش»**.

وأخرج أبو عبيد: عن علىّ قال: «آية الكرسى أعطيها نبيكم من كنز تحت العرش، ولم يُعْطَها أحد قبل نبيكم.

وروى مسلم عن ابن عباس: أتى النبى ﷺ ملكاً فقال: «أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبى قبلك فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة».

وأخرج الطبرانى عن عقبة بن عامر، قال: «ترددوا فى الآيتين من آخر سورة البقرة: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾ (البقرة: ٢٨٥) إلى خاتمتها، فإن الله اصطفى بها محمداً ﷺ».

وأخرج أبو عبيد فى «فضائله» عن كعب قال: «إن محمداً ﷺ أعطى أربع آيات لم يعطهن موسى، وإن موسى أعطى آية لم يُعْطَها محمد قال: والآيات التى أعطيهن محمد﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ

يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة ٢٨٤)، حتى ختم البقرة، فتلك ثلاث آيات، وآية الكرسي، والآية التى أعطيها موسى (اللهم لا تولج الشيطان فى قلوبنا، وخلصنا منه من أجل أن لك الملكوت والأبد والسلطان والملك والحمد والأرض والسماء الدهر الداهر أبداً أبداً آمين آمين).

وأخرج البيهقى فى «الشعب» عن ابن عباس قال: «السبع الطوال لم يعطهن أحد إلا النبى ﷺ وأعطى موسى منها اثنتين».

وأخرج الطبرانى عن ابن عباس مرفوعاً: «**أعطيت أمتى شيئاً لم يعطه أحد من الأمم عند المصيبة:** ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ » وهذا من فضل الله على أمة محمد ﷺ.

وأما القسم الذى نزل منه على بعض الأنبياء فمن أمثلته ما أخرجه الحاكم عن ابن عباس قال: «لما نزل﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ (الأعلى: ١)، قال ﷺ: «فى ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ (الأعلى: ١٩)، فلما نزل﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ (النجم:١) فبلغ ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ (النجم: ٣٧) قال: وفي﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (النجم: ٣٨) إلى قوله﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ (النجم: ٥٦).

وقال سعيد بن منصور: حدثنا خالد بن عبد الله، عن عطاء بن السائب، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: هذه السورة فى صحف إبراهيم وموسى.

وأخرج عن السدى قال: «إن هذه السورة فى صحف إبراهيم وموسى مثل ما أنزل على النبى ﷺ».

وأخرج الحاكم من طريق القاسم عن أبى أمامة قال: أنزل الله على إبراهيم مما أنزل على محمد ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ (التوبة: ١١٢)، إلى قوله﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (التوبة: ١١٢)﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ (المؤمنون: ١)، إلى قوله﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (المؤمنون: ١١) ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ (الأحزاب: ٣٥)، إلى آخر الآية، وكذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ (المعارج: ٢٣) إلى

قـــــوله﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾ (المعـــارج: ٣٣) فـــى ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ﴾ (المعارج:١): فلم يف بهذه السهام إلا إبراهيم ومحمد ﷺ.

وأخرج البخارى عن عبد الله بن عمرو بن العاص قـال: إنـه يعنـى النبـى ﷺ الموصوفون فى التوراة ببعض صفته فى القرآن: يا أيها النبـى إنـا أرسـلناك شـاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين الحديث.

وأخرج ابن الضريس وغيره عن كعب قال: فتحت التوراة بـ (الحمـد لله الـذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون)، وختمت بـ (الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا) إلى قوله (وكبره تكبيرا).

وأخرج أيضاً عنه قال: فاتحة التوراة فاتحة الأنعام ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (الأنعام: ١)، وخاتمة التوراة خاتمة هود ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (هود: ١٢٣).

وأخرج من وجه آخر عنه قال: أول ما أنزل فى التوراة عشر آيـات مـن سـورة الأنعــام﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ﴾ (الأنعـــام: ١٥١)، إلى آخرهــا واخرج أبو عبيد عنه، قال: «أول ما أنزل فى التوراة عشر آيات من سـورة الأنعـام ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ﴾ (الأنعام: ١٥١) الآيـات» قـال بعضـهم يعنى أن هذه الآيات اشتملت على الآيات العشر التى كتبها الله لموسى فى التوراة أول ما كتب، وهى توحيـد الله والنهـى عـن الشـرك، والـيمين الكاذبـة والعقـوق والقتل والزنا والسرقة والزور ومد العين إلى ما فى يد الغير والأمر بتعظيم السبت.

وأخرج الدارقطنى من حديث بريدة، أن النبى ﷺ قال: «**لأعلمنك آية لم تنزل بعد سليمان على غيري**﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾».

وروى البيهقى عن ابن عباس، قال: أغفل الناس آية من كتاب الله لم تنزل على أحد قبل النبى ﷺ إلا أن يكون سليمان بن داود ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

وأخرج الحاكم عن ابن ميسرة: أن هذه الآية مكتوبة فى التوراة بسبعمائة آية ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ (الجمعة: ١) أول سورة الجمعة.

ويدخل فى هذا النوع ما أخرجه ابن أبى حاتم، عن محمد بن كعب القرظى قال: «البرهان الذى أرى يوسف ثلاث آيات من كتاب الله ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (الانفطار: ١٠) وقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ (يونس: ٦١)، الآية وقوله ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ (الرعد: ٣٣)، زاد غيره آية أخرى ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ (الإسراء: ٣٢).

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله تعالى:﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ (يوسف: ٢٤) قال: رأى آية من كتاب الله نهته مثلت له فى جدار الحائط، والله أعلم.

فصل فى معرفة العالى والنازل من أسانيده

فى الحقيقة إن طلب علو الإسناد سنة، وهو قرب إلى الله تعالى، وقد قسمه أهل الحديث إلى خمسة أقسام، وستأتى هنا:

الأول: القرب من رسول الله ﷺ من حيث العدد بإسناد نظيف غير ضعيف وهو أفضل أنواع العلو وأجلها، وأعلى ما يقع للشيوخ فى هذا الزمان إسناد رجاله أربعة عشر رجلاً، وإنما يقع ذلك فى قراءة ابن عامر فى رواية ابن ذكوان، ثم خمسة عشر، ويقع ذلك فى قراءة عاصم من رواية حفص وقراءة يعقوب من رواية رويس.

الثاني: من أقسام العلو عند المحدثين: القرب إلى إمام من أئمة الحديث كالأعمش وهشيم وابن جريج والأوزاعى ومالك ونظيره هنا القرب إلى إمام من الأئمة السبعة، فأعلى ما يقع اليوم للشيوخ بالإسناد المتصل بالتلاوة إلى نافع اثنا عشر، وإلى ابن عامر اثنا عشر.

الثالث عند المحدثين: العلو بالنسبة إلى رواية أحد الكتب الستة بأن يروى حديثاً لو رواه من طريق كتاب من الستة وقع أنزل مما لو رواه من غير طريقها، ونظيره هنا العلو بالنسبة إلى بعض الكتب المشهورة فى القراءات كالتبيين والشاطبية، ويقع فى هذا النزع الموافقات والإبدال والمساواة والمصافحات.

فالموافقات: أن تجتمع طريقة مع أحد أصحاب الكتب فى شيخه، وقد يكون مع علو على ما رواه من طريقه، وقد يكون، مثاله: قراءة ابن كثير رواية البزى طريق ابن بنان عن أبى ربيعة عنه يرويها ابن الجزرى من كتاب «المقنع» لأبى منصور محمد بن عبد الملك بن خيرون، وكتاب «المصباح» لأبى الكرم الشهرزوري، وقرأ بها كل المذكورين على عبد السيد بن عتاب فروايته لها من أحد الطريقين: تسمى موافقة للآخر، باصطلاح أهل الحديث.

والبدل: أن يجتمع معه فى شيخ شيخه فصاعداً، وقد يكون أيضاً بعلو، وقد لا يكون، مثاله هنا قراءة أبى عمرو رواية الدورى طريق ابن مجاهد: عن أبى الزعراء عنه رواه ابن الجزرى من كتاب «التيسير» قرأ بها الدانى على أبى القاسم عبد العزيز ابن جعفر البغدادي، وقرأ بها على أبى طاهر عن ابن مجاهد، ومن «المصباح» قرأ بها أبو الكرم على أبى القاسم يحيى بن أحمد السيبى، وقرأ بها على أبى الحسن الحمامى وقرأ بها على أبى طاهر، فروايته لها من طريق «المصباح» تسمى بدلاً للدانى فى شيخ شيخه.

والمساواة: أن يكون بين الراوى والنبى ﷺ أو الصحابى أو من دونه إلى شيخ أحد أصحاب الكتب كما بين أحد أصحاب الكتب والنبى ﷺ أو الصحابى أو من دونه على ما ذكره من العدد.

والمصافحة: أن يكون أكثر عدداً منه بواحد، فكأنه لقى صاحب ذلك الكتاب وصافحه، وأخذ عنه: فمثاله قراءة نافع رواها الشاطبى عن أبى عبد الله محمد بن علىّ النفرى عن أبى عبد الله ابن سلام الفرس عن سليمان بن نجاح وغيره عن أبى عمرو الداني، عن أبى الفتح فارس بن أحمد عن عبد الباقى بن الحسن عن إبراهيم ابن عمر المقرئ عن أبى الحسين ابن بويان عن أبى بكر ابن الأشعث عن أبى جعفر الربعي- المعروف بأبى نشيط- عن قالون عن نافع، ورواها ابن الجزرى عن أبى محمد ابن البغدادى وغيره عن الصائغ عن الكامل بن فارس عن أبى اليمن الكندى عن أبى القاسم هبة الله بن أحمد الحريرى عن أبى بكر الخياط عن الفرضي، وابن بويان فهذه مساواة لابن الجزري، لأن بينه وبين ابن بويان سبعة، وهو العدد الذى بين الشاطبى وبينه وهى لمن أخذ عن ابن الجزرى مصافحة للشاطبي.

ومما يشبه هذا التقسيم الذى لأهل الحديث تقسيم القراء أحوال الإسناد، إلى قراءة ورواية وطريق، ووجه، فالخلاف إن كان لأحد الأئمة السبعة أو العشرة أو نحوهم واتفقت عليه الروايات والطرق عنه فهو قراءة، وإن كان للراوى عنه فرواية أو لمن بعده فنازلاً فطريق، أو لا على هذه الصفة مما هو راجع إلى تخيير القارئ فيه فوجه.

الرابع من أقسام العلو: تقدم وفاة الشيخ عن قرينه الذى أخذ عن شيخه، فالآخذ مثلاً عن التاج بن مكتوم أعلى من الآخذ عن أبى المعالى ابن اللبان، وعن ابن اللبان أعلى من البرهان الشامى وإن اشتركوا فى الأخذ عن أبى حيان، لتقدم وفاة الأول عن الثانى والثانى عن الثالث.

الخامس: العلو بموت الشيخ لا مع التفات لأمر آخر أو شيخ آخر متى يكون، قال بعض المحدثين: يوصف الإسناد بالعلو إذا مضى عليه من موت الشيخ خمسون سنة، وقال ابن منده: ثلاثون. فعلى هذا الآخذ عن أصحاب ابن الجزرى عال من سنة ثلاث وستين وثمانمائة، لأن ابن الجزرى آخر من كان عالياً ومضى عليه حينئذ من موته ثلاثون سنة فأكثر. فهذا ما حرر من قواعد الحديث وخرجت عليه قواعد القراءات ولم يسبق السيوطى إليه.

وإذا عرفت العلو بأقسامه عرفت النزول، فإنه ضده، وحيث ذم النزول فهو ما لم ينجبر بكون رجاله أحفظ وأتقن أو أجل أو أشهر أو أورع، أما إذا كان كذلك فليس بمذموم ولا مفضول، والله أعلم.

وهذا آخر باب فى مقرر السنة الأولى.



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين وسيد المرسلين وعلى آله وأصحابه والتابعين.

وبعد فهذا الجزء الثاني من كتاب الإيجاز والبيان فى علوم القرآن.

ويحتوى على الأبواب المقررة على السنة الثانية من معاهد القراءات بالأزهر الشريف، والله أسأل أن ينفع به كل من نظر فيه وتلقاه بقلب سليم إنه نعم المولى ونعم النصير.

المؤلف

محمد الصادق قمحاوى

المفتش العام بالأزهر

القراءة
من حيث التواتر والصحة والشذوذ

قال الإمام السيوطى: لقد قام الإمام ابن الجزرى بتحرير وإتقان هذا الفعل، فظهر من فعله هذا أن القراءات أنواع متعددة:

أولها المتواتر: هو ما نقله جمعٌ، يمتنع تواطؤهم على الكذب عن مثلهم من أول السند إلى منتهاه، وغالب القراءات كذلك.

ثانيها المشهور: وهو ما صح سنده ولم يبلغ درجة التواتر، ووافق العربية والرسم، واشتهر عند القراء، فلم يعده من الغلط ولا من الشذوذ، ويُقرأ به على ما ذكره ابن الجزري ويفهمه كلام ابن شامة السابق، ومثاله ما اختلفت الطرق فى نقله عن السبعة، فرواه بعض الرواة عنهم دون بعض، وأمثلة ذلك كثيرة فى فرش الحروف من كتب القراءات كالذي قبله، ومن أشهر ما صُنّف فى ذلك «التيسير» للداني، و«قصيدة الشاطبي»، و«النشر فى القراءات العشر»، و«تقريب النشر» كلاهما لابن الجزري.

ثالثها الآحاد: وهو ما صح سنده، وخالف الرسم أو العربية أو لم يشتهر الإشتهار المذكور، ولا يُقرأ به وقد عقد الترمذي فى «جامعه» والحاكم فى «مستدركه» لذلك باباً أخرجا فيه شيئاً كثيراً صحيح الإسناد، ومن ذلك ما أخرجه الحاكم من طريق عاصم الجحدري عن أبي بكرة أن النبي ﷺ قرأ: **(متكئين على زخارف خضر وعباقري حسان)**.

وأخرج من حديث أبي هريرة أنه ﷺ قرأ: **(فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرت أعين)**.

وأخرج عن ابن عباس أنه ﷺ قرأ: **(لقد جاءكم رسول من أنفَسكم)** بفتح الفاء، وأخرج عن عائشة أنه ﷺ قرأ: **(فرُوح وريحان)** يعنى بضم الراء.

رابعها الشاذ: وهو ما لم يصح سنده، وفيه كتب مؤلفة، من ذلك قراءة: (مَلَك

يوم الدين) بصيغة الماضي، ونصب يوم، و **(إياك نعبد)** ببنائه للمفعول.

خامسها الموضوع: كقراءات الخزاعى.

وظهر لنا سادس يشبهه من أنواع الحديث المدرج، وهو ما يزيد فى القراءات على وجه التفسير، كقراءة سعد بن أبي وقاص: **(وله اخ او اخت من ام)**. أخرجها سعيد بن منصور. وقراءة ابن عباس: **(ليس عليكم جناح ان تبتغوا فضلاً من ربكم فى مواسم الحج)** وقراءة ابن الزبير: **(ولتكن منكم امة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويستعينون بالله على ما اصابكم)** قال عمر: فما أدرى أكانت قراءته أم فسر أخرجه سعيد بن منصور، وأخرجه ابن الأنباري، وجزم بأنه تفسير. وأخرج عن الحسن أنه كان يقرأ: **(وإن منكم إلا واردها)**، الورود الدخول. قال ابن الأنبارى: قوله «الورود الدخول» تفسير من الحسن لمعنى الورود، وغلط فيه بعض الرواة فألحقه بالقرآن.

قال ابن الجزري فى آخر كلامه: وربما كانوا يدخلون التفسير فى القراءة إيضاحاً وبياناً، لأنهم محققون لما تلقوه عن النبي ﷺ قرآناً منهم آمنون من الالتباس، وربما كان بعضهم يكتبه معه، وأما من يقول: إن بعض الصحابة كان يجيز القراءة بالمعنى، فقد كذب.

حكم القراءة بالشاذ

أجمع العلماء على أنه لا يجوز قراءة القرآن بما هو شاذ من القراءات، لا فى الصلاة ولا خارجها، ولم يجوّز ذلك إلا بعضُ العلماء فى غير الصلاة قياساً على رواية الحديث بالمعنى، وكلامهم هنا فى غاية الضعف؛ فإنه قياس مع الفارق، وإلا فكيف يقاس القرآن الكريم، الذي هو ليس له هذه الخاصية.

حكم العمل بالقراءة الشاذة: أما حكم العمل بالقراءة الشاذة، واستنباط الأحكام الشرعية منها، فالجمهور من العلماء على جواز ذلك، تنزيلاً لها منزلة خبر الآحاد، وقد أوضح العلماء بها فى أحكام كثيرة، كما فى قطع يمين السارق،

مستدلين على ذلك بقراءة ابن مسعود: **(فالسارق والسارقة فاقطعوا أيمانهما)**.

كما احتج الحنفية على وجوب التتابع فى صوم كفارة اليمين بقراءة ابن مسعود أيضاً **(فصيام ثلاثة أيام متتابعات)**.

وخالف فى هذا الاستدلال جمهور الشافعية وغيرهم لثبوت نسخ هذه القراءة عندهم. وذهب الإمام الشافعي فى بعض النقول عنه وتبعه أبو نصر القشيري، وابن الحاجب مستدلين على ذلك بأن القراءة الشاذة لم تثبت قرآنيتها، وأجاب الجمهور عن ذلك بأنه لا يلزم من انتفاء قرآنيتها انتفاء عموم كونها أخباراً أي أنها لا تأخذ حكم العمل بخبر الواحد، وخبر الواحد يعمل به.

وقال أبو عبيدة فى «فضائل القرآن»: المقصد من القراءة الشاذة تفسير القراءة المشهورة وتبيين معانيها، كقراءة عائشة وحفصة: **(الوسطى صلاة العصر)** وقراءة ابن مسعود: **(فاقطعوا أيمانهما)**، وقراءة جابر: **(فإن الله من بعد إكراههن لهن غفور رحيم)** قال: فهذه الحروف وما شاكلها قد صارت مفسِّرة للقرآن، وقد كان يُروَى مثل هذا عن التابعين فى التفسير، فيستحسن، فكيف إذا رُوى عن كبار الصحابة «ثم صار فى نفس القراءة فهو أكثر من التفسير وأقوى، فأدنى ما يستنبط من هذه الحروف معرفة صحة التأويل».

قال الإمام ابن الجزري: كل قراءة وافقت العربية مطلقاً ووافقت أحد المصاحف العثمانية، ولو تقديراً، وتواتر نقل هذه القراءة المتواترة المقطوع بها. ومعنى [العربية مطلقاً] أي: ولو بوجهٍ من الإعراب، نحو قراءة حمزة **(والأرحام)** بالجر، وقراءة أبي جعفر: **(ليُجزى قوماً)** ببناء الفعل للمجهول مع نصب **(قوماً)**.

ومعنى [أحد المصاحف العثمانية] واحد من المصاحف التي وجّهها عثمان ﷺ إلى الأمصار، كقراءة ابن كثير فى التوبة: **(جنات تجرى من تحتها الأنهار)** بزيادة (من) فإنها لا توجد إلا فى مصحف مكة.

ومعني [ولو تقديراً] ما يحتمله رسم المصحف، كقراءة من قرأ: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ

﴿ٱلدِّينِ﴾ بالألف فإنها كتبت بغير ألف فى جميع المصاحف، فاحتملت الكتابة أن تكون ﴿مَلِكِ﴾ وفُعل بها كما فعل الفاعل من قوله قادر وصالح، ونحو ذلك مما حذفت منه آلاف، للاختصار، فهو موافق للرسم تقديراً.

ونعنى **[بالتواتر]** ما رواه جماعة عن جماعة كذا من أول السند إلى منتهاه، يفيد العلم من غير تعيين عدد هذا هو الصحيح وقيل بالتعيين، واختلفوا فيه، فقيل: ستة، وقيل: اثنا عشر، وقيل: عشرون، وقيل أربعون، وقيل:سبعون. والذي جمع فى زماننا هذه الأركان الثلاثة هو قراءة الأئمة العشرة التي أجمع الناس على تلقيها بالقبول وهم: أبو جعفر، ونافع، وابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب، وابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف. فقد أخذها الخلف عن السلف إلى أن وصلت إلى زماننا هذا.

وقول من قال: إن القراءات المتواترة لا حد لها إن أراد فى زماننا فغير صحيح، لأنه لا يوجد اليوم قراءة متواترة وراء العشر، وإن أراد فى الصدر الأول فيحتمل إن شاء الله.

وأما القراءة الصحيحة فهي على قسمين:

الأول: ما صح سنده بنقل العدل الضابط عن الضابط، كذا من أول السند إلى منتهاه، ووافق العربية والرسم وهذا على ضربين:

أ- ضرب استفاض نقله، وتلقاه الأئمة بالقبول، كما انفرد به بعض الرواة وبعض الكتب المعتبرة، أو كمراتب القراء ونحو ذلك، فهذا صحيح مقطوع به أنه منزَّل على النبي ﷺ من الأحرف السبعة، كما نبين حكم المتلقَّي بالقبول، وهذا ضرب يُلحَق بالقراءة المتواترة وإن لم يبلغ مبلغها كما سيجيء.

ب- وضرب لم تتلقه الأمة بالقبول، ولم يستفض، فالذي يظهر من كلام كثير من العلماء جواز القراءة به، والصلاة به والذي نص عليه أبو عمرو ابن الصلاح وغيره: أن ما وراء العشرة ممنوع من القراءة به منع تحريم لا منع كراهة كما سيأتي.

وقال شيخنا قاضى القضاة أبو نصر عبد الوهاب بن السبكي فى كتابه «جمع الجوامع فى الأصول» ولا تجوز القراءة بالشاذ، والصحيح أن ما وراء العشرة شاذ، وفاقاً للبغوي والشيخ الإمام.

والمراد بالشيخ والده مجتهد العصر أبا الحسن علىّ بن عبد الكافي السبكي.

والقسم الثاني من القراءة الصحيحة: ما وافق العربية، وصح سنده، وخالف الرسم، كما ورد فى صحيح من زيادة ونقص وإبدال لكلمة بأخرى، ونحو ذلك مما جاء عن أبي الدرداء وعن ابن مسعود وغيرهم، فهذه القراءة تسمى اليوم شاذة، لكونها شذت عن رسم المصحف المُجْمَع عليه، وإن كان إسنادها صحيحاً، فلا تجوز القراءة بها لا فى الصلاة ولا فى غيرها.

قال الإمام أبو عمر ابن عبد البر فى كتابه «التمهيد» وقد قال مالك: إن من قرأ فى صلاته بقراءة ابن مسعود أو غيره من الصحابة مما يخالف المصحف لم يُصلَّ وراءه، وعلماء المسلمين مجمعون على ذلك إلا قوماً شذوا لا يعرج عليهم، ولا يؤخذ بقولهم.

قلت: قال أصحابنا- الشافعية- وغيرهم لو قرأ بالشاذ فى الصلاة بطلت صلاته إن كان عالماً، وإن كان جاهلاً لم تبطل صلاته، ولم تحسب له تلك القراءة، واتفق علماء بغداد على تأديب الإمام ابن شنبوذ واستتابته على قراءته وإقرائه بالشاذ.

وحكى الإمام أبو عمر ابن عبد البر إجماع المسلمين على أنه لا تجوز القراءة بالشاذ، وأنه لا يجوز أن يصلىَّ خلف من يقرأ بها.

وأما ما وافق المعنى والرسم أو أحدهما من غير نقل فلا تسمى شاذة، بل مكذوبة، يكفر متعمدها.

وأجاب الإمامان الحافظ أبو عمرو ابن الصلاح وأبو عمرو ابن الحاجب عن سؤال الذي ورد دمشق من العجم فى حدود الأربعين وستمائة، وهو:

هل تجوز القراءة بالشاذ، أو يجوز أن يقرأ القارئ عشراً كل آية بقراءة ورواية؟

قال الشيخ أبو عمرو ابن الصلاح المجتهد المفيد فى ذلك العصر ما صورته: يشترط أن يكون المقروء به قد تواتر نقله عن رسول الله ﷺ قرآناً، واستفاض نقله كذلك، وتلقته الأمة بالقبول، كهذه القراءات السبع، لأن المعتبر فى ذلك اليقين والقطع على ما تقرر وتمهد فى الأصول، فما لم يوجد فيه ذلك وهو ما وراء العشرة فممنوع من القراءة به منع تحريم، لا منع كراهة، فى الصلاة وخارج الصلاة، وممنوع منه من عرف المصادر والمعاني، ومن لم يعرف ذلك، واجب على من قدر على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أن يقوم بواجب ذلك وإنما نقلها مَنْ نقلها من العلماء لفوائد فيها تتعلق بعلم العربية لا للقراءة بها؛ هذا طريق من استقام سبيله. ثم قال والقراءة الشاذة ما نقل القرآن من غير تواتر واستفاضة متلقاة بالقبول من الأمة كما أشتمل عليه «المحتسب» لابن جني وغيره فى توجيه القراءة الشاذة.

وأما القراءة بالمعنى من غير أن ينقل قرآناً فليس ذلك من القراءات الشاذة أصلاً، والمجترئ على ذلك مجترئ على عظيم، وضل ضلالاً بعيداً فيعزر ويمنع بالحبس ونحوه، ولا يخلى ذا ضلالة ولا يحل للمتمكن من ذلك إمهاله، ويجب منع القارئ بالشاذ وتأثيمه بعد تعريفه، وإن لم يمنع فعليه التعزير بشرطه.

وقال الشيخ الإمام شيخ المالكية أبو عمرو ابن الحاجب: لا يجوز أن يقرأ بالقراءة الشاذة فى صلاة ولا فى غيرها، عالماً كان بالعربية أو جاهلاً، وإذا قرأ بها قارئ، فإن كان جاهلاً بالتحريم عُرّف به وأمر بتركها، وإن كان عالماً أُدّب بشرطه، وإن أصر على ذلك أُدّب على إصراره، وحبس إلى أن يرتدع عن ذلك.

وأما تبديل مثل آتنا أعطنا، وسولت بزينت ونحوه، فليس هذا من الشواذ، وهو أشد تحريماً، والتأديب عليه أبلغ، والمنع منه أوجب.

فإن قيل: كيف يُعرف الشاذ من غيره إذا لم يدّع أحد الحصر؟

فنقول: من الكتب المؤلفة فى هذا الفن فى العشرة والثماني وغير ذلك

ومؤلفوها على قسمين: منهم من اشترط الأشهر، واختار ما قطع به عنده، فتلقى الناس كتابه بالقبول وأجمعوا عليه من غير معارض، وذلك «كغايتي» ابن مهران وأبي العلاء الهمذانى، و«سبعة» ابن مجاهد، و«إرشاد» أبي العز القلاني، و«تيسير» أبي عمرو الداني، و«موجز» أبي عليّ الأهوازي، و«تبصرة» ابن أبي طالب، و«كافي» ابن شريح، و«تلخيص» أبي معشر الطبري، و«إعلان» الصفراوي، و«تجريد» ابن الفحام، و«حرز الأماني» لأبي القاسم الشاطبي ،وغيرها.

فلا إشكال فى أن ما تضمنه من القراءات مقطوع به إلا أحرفاً يسيرة، يعرفها الحفاظ من الثقات والأئمة النقاد.

ومنهم من ذكر ما وصل إليه من القراءات، كسبط الخياط، وأبي معشر فى الجامع، وأبي القاسم الهذلي، وأبي الكرم الشهرزوري، وأبي عليّ المالكي، وابن فارس، وأبي عليّ الأهوازي، وغيرهم. فهؤلاء وأمثالهم لم يشترطوا شيئاً، وإنما ذكروا ما وصلهم، فيرجع منها إلى كتاب مقيد أو مقرئ مقلد.

فإن قلت كيف وجدنا فى الكتب المشهورة المتلقاة بالقبول تبايناً فى بعض الأصول والفرش، كما فى الشاطبية من نحو قراءة ابن ذكوان (ولا تتبعان) بتخفيف النون، وقراءة هشام (أفئيدة) بياء بعد الهمزة، وقراءة قنبل (على سئوقه) بواو بعد الهمزة، وغير ذلك من التسهيلات والإمالات التي لا توجد فى غيرها من الكتب إلا فى كتاب أو اثنين، وهذا لا يثبت به تواتر.

قلت: هذا وشبهه وإن لم يبلغ مبلغ التواتر، لكنه صحيح مقطوع به، نعتقد أنه من القرآن، وأنه من الأحرف السبعة التي نزل القرآن بها، والعدل الضابط إذا انفرد بشيء تحتمله اللغة العربية والرسم واستفاض وتلقي بالقبول قطع به، وحصل به العلم، وهذا ما قاله الأئمة فى الحديث المتلقّى بالقبول أنه يفيد القطع وبحثه الإمام أبو عمرو ابن الصلاح فى كتابه «علوم الحديث»، وظن أن أحداً لم يسبقه إليه، وقد قاله قبله الإمام أبو إسحاق الشيرازي فى كتابه «اللمع فى أصول الفقه»، ونقله الإمام

الثقة مجتهد عصره أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية عن جماعة من الأئمة منهم القاضى عبد الوهاب المالكي والشيخ أبو حامد الإسفراييني والقاضي أبو الطيب الطبري. وأبو اسحاق من الشافعية وابن حامد وأبو يعلى ابن الفراء وأبو الخطاب وابن الزغواني وأمثالهم من الحنابلة، وشمس الأئمة السرخسي من الحنفية.

قال ابن تيمية: وهو مذهب أهل الكلام من الأشعرية وغيرهم كأبي إسحاق الإسفراييني وابن فورك. قال: وهو مذهب أهل الحديث قاطبة، ومذهب السلف عامة.

قلت فثبت من ذلك أن خبر الواحد العدل الضابط إذا حفته قرائن يفيد العلم.

ونحن لا ندعى التواتر فى كل فرد مما انفرد به بعض الرواة، أو اختص ببعض الطرق، ولا يدعى ذلك إلا جاهل، لا يعرف ما هو التواتر، وإنما المقروء به عن القراء العشرة على قسمين متواتر وصحيح مستفاض متلقى بالقبول، والقطع حاصل بهما.

وأما ما قاله الإمام أبو حيان واستشكله، حيث قال: وعلى ما ذكره هؤلاء من المتأخرين من تحريم القراءة بالشاذ يكون على ذلك عالم كثير من الصحابة والناس من بعدهم إلى زماننا قد ارتكبوا محرماً فيسقط بذلك الاحتجاج بخبر من يرتكب المحرم دائماً، وهم نقلة الشريعة، فيسقط ما نقلوه، فيفسد على قول هؤلاء نظام الإسلام، والعياذ بالله تعالى من ذلك. قال: ويلزم أيضاً أن الذين قرؤوا بالشواذ لم يصلوا قط؛ لأن الواجب لا يتأدى بفعل المحرم.

قال: وقد كان قاضى القضاة أبو الفتح محمد بن عليّ- يعنى ابن دقيق العيد- يستشكل هذه المسألة، ويستصعب الكلام فيها. وكان يقول: هذه الشواذ نُقلت نقلَ آحاد عن رسول الله ﷺ ، فيعلم ضرورة أن الرسول ﷺ قرأ بالشاذ منها، وإن لم يعين، كما أن حاتماً نقلت عنه أخباراً فى الجود كلها آحاد،ولكن حصل من مجموعها الحكم بسخائه، وإن لم يتعين ما تسخى به. وإذ كان كذلك فقد تواترت قراءة الرسول ﷺ بالشاذ وإن لم يتعين بالشخص، فكيف يسمى شاذاً والشاذ لا يكون متواتراً.

قلت: هذه ونحوها مباحث لا طائل تحتها، إذ القول فى القراءات الشاذة

كالقول فى الأحاديث الضعيفة المنقولة فى كتب الأئمة وغيرهم، يعلم فى الجملة أن النبي ﷺ قال شيئاً منها، وإن لم تعرف عينه، فلا يقال ضعيفة على ما بحثناه، وأيضاً فنحن نقطع بأن كثيراً من الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يقرؤون بما خالف رسم المصاحف العثمانية قبل الإجماع عليها، من زيادة كلمة أو أكثر، وإبدال أخرى بأخرى، ونقص بعض الكلمات. كما ثبت فى الصحيحين وغيرهما، ونحن اليوم نمنع من يقرأ بها فى الصلاة وغيرها منع تحريم، لا منع كراهة، ولا إشكال فى ذلك، ومن نظر أقوال الأولين علم حقيقة الأمر.

وذلك أن المصاحف العثمانية لم تكن محتوية على جميع الأحرف السبعة، وعلى قول هؤلاء لا يجيء ما استشكله ابن دقيق العيد وبحثه ابن حيان وغيرهما؛ لأننا إذا قلنا إن المصاحف العثمانية محتوية على جميع الأحرف السبعة التي أنزلها الله تعالى كان ما خالف الرسم يقطع بأنه ليس من الأحرف السبعة، وهذا قول محظور.

لأن كثيراً مما خالف الرسم قد صح عن الصحابة ﷺ وعن النبي ﷺ والحق ما تحرر من كلام الإمام محمد بن جرير الطبري وأبي عمر بن عبد البر، وأبي العباس المهدوي ومكي بن أبي طالب القيسي، وأبي القاسم الشاطبي، وابن تيمية وغيرهم، وذلك أن المصاحف التي كتبت فى زمن أبي بكر ﷺ كانت محتوية على جميع الأحرف السبعة، فلما كثرت الاختلافات وكاد المسلمون يكفر بعضهم بعضاً أجمع الصحابة على كتابة القرآن العظيم على العرضة الأخيرة، التي قرأها النبي ﷺ على جبريل عام قُبض، وعلى ما أنزل الله دون ما أذن فيه، وعلى ما صح مستفاضاً عن النبي ﷺ دون غيره. إذ لم تكن الأحرف السبعة واجبة على الأمة، وإنما كان ذلك جائزاً لهم مرخصاً فيه، وقد جُعل إليهم الاختيار فى أي حرف اختاروه، قالوا: فلما رأى الصحابة أن الأمة تتفرق وتختلف وتتقابل إذا لم يجتمعوا على حرف واحد، اجتمعوا على ذلك اجتماعاً سائغاً وهم معصومون أن يجتمعوا على ضلالة ولم يكن فى ذلك ترك واجب ولا فعل محظور.

قلت: فكتبوا المصاحف على لفظ لغة قريش والعرضة الأخيرة وما صح عن النبي ﷺ واستفاض دون ما كان قبل ذلك، مما كان بطريق الشذوذ والآحاد من زيادة ونقصان وإبدال وتقديم وتأخير وغير ذلك، وجردوا المصاحف عن النقط والشكل لتحتمله صورة ما بقي من الأحرف السبعة غير لغة قريش، وكالغيب والخطاب والجمع والتثنية، وغير ذلك من أضداده مما تحتمله العرضة الأخيرة، إذ هو موجود فى لغة قريش وفي غيرها، ووجهوا بها إلى الأمصار، فأجمع الناس عليهم.

ثم كثر الاختلاف أيضاً فيما يحتمله الرسم، وقرأ أهل البدع والأهواء بما لا يحل لأحد من المسلمين تلاوته، فوضعوه من عند أنفسهم وفاقاً لبدعتهم، كمن قال من المعتزلة «وكلم الله موسى تكليما» بنصب الهاء، ومن الرافضة «وما كنت متخذ المضلين عضدا» بفتح اللام، يعنون أبا بكر وعمر رضي الله عنهما فلما وقع ذلك رأى المسلمون أن يجمعوا على قراءات أئمة ثقات تجردوا للقيام بالقرآن العظيم، فاختاروا من كل مصر من وجّه إليه بمصحف، أئمة مشهورين بالثقة والأمانة فى النقل وحسن الدين وكمال العلم، أمضوا عمرهم فى القراءة والإقراء، واشتهر أمرهم، وأجمع أهل مِصرِهم على عدالتهم فيما نقلوا، وتوثيقهم فيما قرؤوا ورووا، وعلمهم بما يقولون، ولم تخرج قراءتهم عن خط مصحفهم، فمنهم بالمدينة أبو جعفر وشيبة ونافع، وبمكة عبد الله بن كثير وحميد بن قيس الأعرج وابن محيص.

وبالكوفة يحيى بن وثاب وعاصم والأعمش وحمزة والكسائي، وبالشام عبد الله ابن عامر وعطية بن عيسى الكلابي ويحيى بن الحارث الزمارى، وبالبصرة عبد الله ابن أبي إسحق وأبو عمرو ابن العلاء وعاصم الجحدري ويعقوب الحضرمي. ثم إن القراء بعد ذلك تفرقوا فى البلاد وخلفهم أمم بعد أمم، وكثر بينهم الخلاف، وقل الضبط، واتسع الخرق، فقام الأئمة الثقات النقاد، وحرروا وضبطوا وأجمعوا، وألفوا على حسب ما وصل إليهم وصح لديهم، فالذي وصل إلينا اليوم متواتراً وصحيحاً مقطوعاً به قراءات الأئمة العشرة ورواتهم المشهورين.

هذا الذي تحرر من أقوال العلماء، وعليه الناس اليوم بالشام والعراق ومصر والحجاز وسائر الأقطار الإسلامية، فثبت من ذلك أن القراءة الشاذة ولو كانت صحيحة فى نفس الأمر، فإنها مما كان أُذن فى قراءته ولم يتحقق إنزاله، وإن كان الناس مخيرين فيها فى الصدر الأول، ثم أجمعت الأمة على تركها للمصلحة، وليس فى ذلك خطر ولا إشكال؛ لأن الأمة معصومة من أن تجتمع على خطأ، والله أعلم.

فصل

فى معرفة الوجوه والنظائر

صنف فى هذا الباب من المتقدمين مقاتل بن سليمان ومن المتأخرين ابن الجوزي وابن الدامغاني وأبو الحسن محمد بن عبد الصمد المصري وابن فارس وآخرون، فالوجوه فى اللفظ المشترك الذي يستعمل فى عدة معاني كلفظ الأمة، وكذلك أفرد السيوطي فى هذا الفن كتاباً أسماه «معترك الأقران فى مشترك القرآن».

وأما النظائر فكالألفاظ المتواطئة، وقيل: النظائر فى اللفظ، والوجوه فى المعاني. وهو قول ضعيف؛ لأنه لو أريد هذا لكان الجمع فى الألفاظ المشتركة، وهم يذكرون فى تلك الكتب اللفظ الذي معناه واحد فى مواضع كثيرة، فيجعلون الوجوه نوعاً لأقسام، والنظائر نوعاً لآخر.

وقد جعل بعضهم ذلك من أنواع معجزات القرآن، حيث كانت الكلمة الواحدة تنصرف إلى عشرين وجهاً وأكثر وأقل، ولا يوجد ذلك فى كلام البشر.

وذكر مقاتل فى صدر كتابه حديثاً مرفوعاً: «لا يكون الرجل فقيهاً كل الفقه، حتى يرى للقرآن وجوهاً كثيرة».

قلت: هذا أخرجه ابن مسعود وغيره عن أبي الدرداء موقوفاً، ولفظه: «لا يفقه الرجل كل الفقه»، وقد فسره بعضهم بأن المراد أن يرى اللفظ الواحد يحتمل معاني متعددة، فيحمله عليها إذا كانت غير متضادة ولا يقتصر به على معنى واحد.

وأشار آخرون إلى أن المراد به استعمال الإشارات الباطنة وعدم الاقتصار على التفسير الظاهر.

وقد أخرجه ابن عساكر فى «تاريخه» من طريق حماد بن زيد، عن أيوب عن أبي قلابة عن أبي الدرداء، قال: «إنك لن تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوهاً».

قال حماد: فقلت لأيوب: أرأيت قوله: «حتى ترى للقرآن وجوهاً» أهو أن يرى له وجوهاً فيهاب الإقدام عليه ؟ قال نعم هو هذا.

وأخرج ابن سعد من طريق عكرمة عن ابن عباس أن عليَّ بن أبي طالب أرسله إلى الخوارج فقال: «اذهب إليهم فخاصمهم، ولا تحاجهم بالقرآن، فإنه ذو وجوه، ولكن خاصمهم بالسنة».

وأخرج من وجه آخر أن ابن عباس قال له: يا أمير المؤمنين، فأنا أعلم بكتاب الله منهم، فى بيوتنا نزل. قال: صدقت، ولكن حمال ذو وجوه، تقول ويقولون. ولكن خاصمهم بالسنن، فإنهم لن يجدوا عنها محيصاً. فخرج إليهم فخاصمهم بالسنن فلم تبق بأيديهم حجة.

وهذه عيون من أمثلة هذا النوع فمن ذلك:

(الهدى) يأتي على سبعة عشر وجهاً:

بمعنى الثبات: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة: ٦).

والبيان: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ (البقرة: ٥).

والدين: ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ (البقرة: ١٢٠).

والإيمان: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ (مريم: ٧٦).

والدعاء: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ (الرعد:٧)، ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ (الأنبياء:٧٣).

وبمعنى الرسل والكتب: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ (البقرة: ٣٨).

والمعرفة: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (النحل:١٦).

وبمعنى النبي ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ﴾ (البقرة: ١٥٩).

وبمعنى القرآن: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ (النجم: ٢٣).

والتوراة: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾ (غافر: ٥٣).

والاسترجاع: ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ١٥٧).

والحجة: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ (البقرة: ٢٥٨)، بعد قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ (البقرة: ٢٥٨) أي لا يهديهم حجة.

والتوحيد: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ﴾ (القصص:٥٧).

والسنة: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ (الأنعام: ٩٠)،﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ (الزخرف:٢٢).

والإصلاح: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ (يوسف:٥٢).

والإلهام: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ (طه: ٥٠) أي ألهمهم المعاش.

والتوبة: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ (الأعراف: ١٥٦).

والإرشاد: ﴿أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ (القصص: ٢٢).

ومن ذلك: (السوء)،: يأتي على أوجه:

الشدة: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ (البقرة: ٤٩).

العقر﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ (الأعراف: ٧٣).

والزني: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ (يوسف: ٢٥)، ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ﴾ (مريم: ٢٨).

والبرص: ﴿بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ (طه: ٢٢).

والعذاب: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ﴾ (النحل: ٢٧).

والشرك: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾ (النحل: ٢٨).

والشدة: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ﴾ (النساء: ١٤٨).

وألسنته: ﴿وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ (الممتحنة: ٢).

والذنب: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ﴾ (النساء: ١٧).

وبمعنى بئس: ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ (غافر: ٥٢).

والضر: ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ (النمل: ٦٢)، ﴿وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾ (الأعراف: ١٨٨).

والقتل والهزيمة: ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ (آل عمران: ١٧٤).

ومن ذلك: (الصلاة)، تأتي على أوجه:

الصلوات الخمس: ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ (المائدة: ٥٥).

وصلاة العصر: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ (المائدة: ١٠٦).

وصلاة الجمعة: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ﴾ (الجمعة: ٩).

والجنازة: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ (التوبة: ٨٤).

والدعاء: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ (التوبة: ١٠٣).

والدين: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ (هود: ٨٧).

والقراءة: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ (الإسراء: ١١٠).

والرحمة والاستغفار: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾ (الأحزاب: ٥٦).

مواضع الصلاة: ﴿وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ﴾ (الحج: ٤٠)، ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ (النساء: ٤٣).

ومن ذلك: (الرحمة)، وردت على أوجه:

الإسلام: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ (البقرة: ١٠٥).

الإيمان: ﴿وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ (هود: ٢٨).

والجنة: ﴿فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٧).

والمطر: ﴿بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ (الأعراف: ٥٧).

والنعمة: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ (النور: ١٠).

والنبـــوة: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ (ص: ٩)، ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ (الزخرف: ٣٢).

والرزق: ﴿خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ﴾ (الإسراء: ١٠٠).

والنصر والفتح: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ (الأحزاب: ١٧).

والعافية: ﴿أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ﴾ (الزمر: ٣٨).

والمودة: ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ (الحديد: ٢٧)، ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ (الفتح: ٢٩).

والسعة: ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ (البقرة: ١٧٨).

والمغفرة: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ (الأنعام: ١٢).
والعصمة: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ (هود: ٤٣).
ومن ذلك: (الفتنة)، وردت على أوجه:
الشرك: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ (البقرة: ١٩١)، ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ (البقرة: ١٩٣).
والإضلال: ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾ (آل عمران: ٧).
والقتل: ﴿أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ (النساء: ١٠١).
والصد: ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ﴾ (المائدة: ٤٩).
والضلالة: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ﴾ (المائدة: ٤١).
والمعذرة: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ (الأنعام: ٢٣).
والقضاء: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ (الأعراف: ١٥٥).
والإثم: ﴿أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ (التوبة: ٤٩).
والمرض: ﴿يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ﴾ (التوبة: ١٢٦).
والعبرة: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾ (يونس: ٨٥).
والعقوبة: ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ (النور: ٦٣).
والاختبار: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ (العنكبوت: ٣).
والعذاب: ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ (العنكبوت: ١٠).
والإحراق: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ (الذاريات: ١٣).
والجنون: ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ (القلم: ٦).
ومن ذلك: (الروح)، ورد على أوجه:
الأمر: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ (النساء: ١٧١).
والوحي: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ (النحل: ٢).
والقرآن: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ (الشورى: ٥٢).
والرحمة: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ (البقرة: ٨٧).

والحياة: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ (الواقعة: ٨٩).
وجبريل: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ (مريم: ١٧)، ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ (الشعراء: ١٩٣).
وملك عظيم: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ (النبأ: ٣٨).
وجيش من الملائكة: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾ (القدر: ٤).
وروح البدن: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ (الإسراء: ٨٥).
ومن ذلك: (القضاء)، ورد على أوجه:
الفراغ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ﴾ (البقرة: ٢٠٠).
والأمر: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾(مريم: ٣٥).
والأجل: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾ (الأحزاب: ٢٣).
والفصل: ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ (الأنعام: ٥٨).
والمضي: ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ (الأنفال: ٤٢).
والهلاك: ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ (يونس: ١١).
والوجوب: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ (يوسف: ٤١).
والإبرام: ﴿فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ (يوسف: ٦٨).
والإعلام: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (الإسراء: ٤).
والوصية: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ (الإسراء: ٢٣).
والموت: ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ (القصص: ١٥).
والنزول: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ﴾ (سبأ: ١٤).
والخلق: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ (فصلت: ١٢).
والعقل: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ (عبس: ٢٣).
والعد: ﴿إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾ (القصص: ٤٤).
ومن ذلك: (الذكر)، ورد على أوجه:
ذكر اللسان: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ (البقرة: ٢٠٠).
ذكر القلب: ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ (آل عمران: ١٣٥).

والحفظ: ﴿وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ (البقرة: ٦٣).
والطاعة والجزاء: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ (البقرة: ١٥٢).
والصلوات الخمس: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ (البقرة: ٢٣٩).
والعظة: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ (الأنعام: ٤٤)، ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ (الذاريات:٥٥).
والبيان: ﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ (الأعراف: ٦٣).
والحديث: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ (يوسف: ٤٢)، أي حدثه بحالي.
والقرآن: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي﴾ (طه: ١٢٤)، ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٍ﴾ (الأنبياء: ٢).
والتوراة: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾ (النحل: ٤٣).
والخبر: ﴿سَأَتۡلُواْ عَلَيۡكُم مِّنۡهُ ذِكۡرًا﴾ (الكهف: ٨٣).
والشرف: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾ (الزخرف: ٤٤).
والعيب: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ (الأنبياء: ٣٦).
واللوح المحفوظ: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ﴾ (الأنبياء: ١٠٥).
والثناء: ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ (الأحزاب: ٢١).
والوحي: ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ (الصافات: ٣).
والصلاة: ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ (العنكبوت: ٤٥).
وصلاة الجمعة: ﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾ (الجمعة: ٩).
وصلاة العصر: ﴿عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ (ص: ٣٢).
ومن ذلك: (الدعاء)،ورد على أوجه:
العبادة: ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ﴾ (يونس: ١٠٦).
والاستعانة: ﴿شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٣).
والسؤال: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ (غافر: ٦٠).
القول: ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ﴾ (يونس: ١٠).
والنداء: ﴿يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ﴾ (الإسراء: ٥٢).
والتسمية: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ﴾ (النور:٦٣).

ومن ذلك: (الإحصان)،ورد على أوجه:

العفة: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ (النور: ٤).

والتزوج: ﴿فَإِذَآ أُحۡصِنَّ﴾ (النساء: ٢٥).

والحرية: ﴿نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ (النساء: ٢٥).

فصل

قال ابن فارس فى كتاب «الأفراد»:

كل ما فى القرآن من ذكر (الأسف)، فمعناه الحزن إلا: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ (الزخرف: ٥٥) فمعناه أغضبونا.

وكل ما فيه من ذكر (البروج) فهي الكواكب إلا: ﴿وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖ﴾ (النساء: ٧٨) فهي القصور الطوال الحصينة.

وكل ما فيه من ذكر (البر والبحر) فالمراد بالبحر الماء، وبالبر التراب اليابس، إلا: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ (الروم: ٤١) فالمراد به البرية والعمران.

وكل ما فيه من (بخس)، فهو النقص إلا: ﴿بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ﴾ (يوسف: ٢٠) أي حرام.

وكل ما فيه من (البعل) فهو الزوج إلا: ﴿أَتَدۡعُونَ بَعۡلٗا﴾ (الصافات: ١٢٥) فهو الصنم.

وكل ما فيه من (البكم) فالخرس عن الكلام بالإيمان إلا: ﴿عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗا﴾ (الإسراء: ٩٧) فى الإسراء ﴿أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ﴾ فى النحل، فالمراد به عدم القدرة على الكلام مطلقاً.

وكل ما فيه (جثياً) فمعناه جميعاً، إلا: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗ﴾ (الجاثية: ٢٨) فمعناه تجثو على ركبها.

وكل ما فيه من (حسبان) فهو العدد إلا: ﴿حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ (الكهف: ٤٠) فى الكهف فهو العذاب.

وكل ما فيه من (حسرة) فالندامة إلا: ﴿لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ (آل عمران: ١٥٦) فمعناه الحزن.

وكل ما فيه من (الدحض) فالباطل إلا: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ (الصافات: ١٤١). فمعناه من المقروعين.

وكل ما فيه من (رجز) فالعذاب إلا: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ (المدثر: ٥) فالمراد به الصنم.

وكل ما فيه من (ريب) فالشك إلا: ﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ (الطور: ٣٠)، يعنى حوادث الدهر.

كل ما فيه من (الرجم) فهو القتل إلا: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ (مريم: ٤٦)، فمعناه لأشتمنك ﴿رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ﴾ (الكهف: ٢٢) ظناً.

وكل ما فيه من (الزور) فالكذب مع الشرك إلا: ﴿مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾ (المجادلة: ٢) فإنه كذب غير الشرك.

وكل ما فيه من (زكاة) فهو المال إلا: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً﴾ (مريم: ١٣) أي طهرة.

وكل ما فيه من (الزيغ) فالميل إلا: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ (الأحزاب: ١٠) أي شخصت.

وكل ما فيه من (سخر) فالاستهزاء إلا: ﴿سِخْرِيًّا﴾ (المؤمنون: ١١٠) فى الزخرف فهو من التسخير والاستخدام.

وكل (سكينة) فيه طمأنينة إلا التي فى قصة طالوت فهو شيء كرأس الهرة له جناحان.

وكل (سعير) فيه فهو النار والوقود إلا: ﴿فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ (القمر: ٤٧) فهو العناء.

وكل (شيطان) فيه فإبليس وجنوده إلا: ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ (البقرة: ١٤).

وكل (شهيد) فيه غير القتلى فيمن يشهد فى أمور الناس إلا: ﴿وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم﴾ (البقرة: ٢٣) فهو شركاؤكم.

وكل ما فيه من (أصحاب النار) فأهلها إلا: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ (المدثر: ٣١) فالمراد خزنتها.

وكل (صلاة) فيه عبادة ورحمة إلا: ﴿وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ﴾ (الحج: ٤٠) فهي الأماكن.

وكل (صمم) فيه، ففي سماع الإيمان والقرآن خاصة إلا الذي فى الإسراء ﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ (الإسراء: ٩٧).

وكل (عذاب) فيه التعذيب إلا: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا﴾ (النور: ٢) فهو الضرب.

وكل (قنوت) فيه طاعة إلا: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ (البقرة: ١١٦) فمعناه مقربون.

وكل (كنز) فيه مال إلا (الذي فى الكهف) فهو صحيفة علم.

وكل (مصباح) فيه كوكب إلا (الذي فى النور) فالسراج.

وكل (نكاح) فيه تزوج إلا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ﴾ (النساء: ٦) فهو الحلم.

وكل (نبأ) فيه خبر إلا: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ﴾ (القصص: ٦٦) فهي الحجج.

وكل (ورود) فيه دخول إلا: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ (القصص: ٢٣) يعنى هجم عليه ولم يدخله.

وكل ما فيه من ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦) فالمراد: من العمل، إلا التي فى الطلاق فالمراد: من النفقة.

وكل (يأس) فيه قنوط إلا التي فى الرعد فهي العلم.

وكل (صبر) فيه محمود إلا: ﴿لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ (الفرقان: ٤٢)، ﴿وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ (ص: ٦) هذا آخر ما ذكره ابن فارس.

وقال غيره: كل (صوم) فيه فهو من العبادة المعروفة إلا: ﴿نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ (مريم: ٢٦) أي صمتاً.

وكل ما فيه من (الظلمات والنور) فالمراد الكفر والإيمان إلا التي فى أول الأنعام فالمراد ظلمة الليل ونور النهار.

وكل (إنفاق) فيه فهو الصدقة إلا: ﴿فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ أَزۡوَٰجُهُم مِّثۡلَ مَآ أَنفَقُواْۚ﴾ (الممتحنة: ١١) فالمراد به المهر.

وقال الدانى: كل ما فيه من (الحضور) بالضاد- فهو من المشاهدة إلا موضعاً واحداً فإنه بالظاء من الاحتظار وهو المنع، وهو قوله تعالى: ﴿كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾ (القمر: ٣١).

وقال ابن خالويه: ليس فى القرآن (بعد) بمعنى (قبل) إلا حرف واحد ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ﴾ (الأنبياء: ١٠٥).

قال مغلطاوى فى كتاب «الميسر»: قد وجدنا حرفاً آخر، وهو قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ (النازعات: ٣٠).

قال أبو موسى فى كتاب «المغيث»: معناها هنا (قبل) لأنه تعالى خلق الأرض فى يومين، ثم استوى إلى السماء، فعلى هذا خلق الأرض.

قلت: قد تعرض النبي ﷺ والصحابة والتابعين بشيء من هذا النوع.

فأخرج الإمام أحمد فى مسنده، وابن أبي حاتم وغيرهما من طريق دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ قال: «**كل حرف فى القرآن يذكر فيه القنوت فهو طاعة**». هذا إسناده جيد، ابن حبان يصححه.

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق عكرمة، عن ابن عباس، قال: كل شيء فى القرآن (أليم) فهو الموجع.

وأخرج من طريق عليّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس، قال: كل شيء فى القرآن. (قتل) فهو لعن.

وأخرج من طريق الضحاك عن ابن عباس، قال: كل شيء فى كتاب الله من (الرجز) يعنى به العذاب.

وقال الفريابي: حدثنا قيس، عن عمار الدهني، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كل شيء (تسبيح) فى القرآن صلاة، وكل (سلطان) فى القرآن حجة.

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق عكرمة، عن ابن عباس قال: كل شيء فى القرآن «الدين» فهو الحساب.

وأخرج ابن الأنبارى فى كتاب «الوقف والابتداء» من طريق السدي، عن ابن أبي مالك عن ابن عباس قال: كل (ريب) شك إلا مكاناً واحداً فى الطور ﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ (الطور: ٣٠)، يعنى حوادث الأمور.

وأخرج ابن أبي حاتم وغيره عن أبي بن كعب، قال: كل شيء فى القرآن من (الرياح) فهي رحمة، وكل شيء فيه من (الريح) فهو عذاب.

وأخرج عن الضحاك، قال: كل (كأس) ذكره الله فى القرآن إنما عنى به الخمر.

وأخرج عنه قال: كل شيء فى القرآن من لفظ (فاطر) فهو خالق.

وأخرج عن سعيد بن جبير، قال: كل شيء (إفك) فهو كذب.

وأخرج عن ابن أبى العالية، قال: كل آية فى القرآن يذكر فيها (حفظ الفرج) فهو من الزنى إلا قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ (النور: ٣٠) فالمراد ألا يراها أحد.

وأخرج عن مجاهد، قال: كل شيء فى القرآن:﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ﴾(الحج : ٦٦) إنما يعنى به الكفار.

وأخرج عن عمر بن عبد العزيز، قال: كل شيء فى القرآن: (خلود) فإنه لا توبة له.

وأخرج عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، قال: كل شيء فى القرآن: (بقدر) فمعناه يقل.

وأخرج عنه: (التزكي) فى القرآن لله الإسلام.

وأخرج عن أبي مالك، قال: (وراء) فى القرآن (أمام) كله غير حرفين: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ (المؤمنون: ٧)، يعنى سوى ذلك ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ (النساء: ٢٤) يعنى سوى ذلكم.

وأخرج عن أبي بكر ابن عياش، قال: ما كان (كِسْفاً) فهو عذاب، وما كان (كِسَفاً) فهو قطع السحاب.

وأخرج عن عكرمة، قال: ما صنع الله فهو (السُّد)، ما صنع الناس فهو (السَّد).

وأخرج ابن جرير عن أبي روق، قال: كل شيء فى القرآن (جعل) فهو خلق.

وأخرج عن مجاهد، قال: (المباشرة) فى كل كتاب الله جماع.

وأخرج عن ابن زيد، قال: كل شيء فى القرآن: (حنيفا مسلما) وما كان فى القرآن (حنفاء مسلمين) حجاجاً.

وأخرج عن سعيد بن جبير، قال: (العفو) فى القرآن على ثلاثة أنحاء: نحو تجاوز عن الدنيا، ونحو فى القصد فى النفقة: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ (البقرة: ٢١٩)، ونحو فى الإحسان فيما بين الناس: ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ (البقرة: ٢٣٧).

وفي «صحيح البخاري» قال سفيان بن عيينة: ما سمى الله المطر فى القرآن إلا (عذاب) وتسميه العرب الغيث.

قلت: استثنى من ذلك: ﴿إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ﴾ (النساء: ١٠٢)، فإن المراد به الغيث قطعاً.

وقال أبو عبيدة: إذا كان فى العذاب فهو (أمطرت)، وإذا كان فى الرحمة فهو (مطرت).

فرع

أخرج ابن الشيخ عن الضحاك قال: قال لي ابن عباس: احفظ عنى كل شيء فى القرآن: ﴿وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (التوبة: ٧٤) فهو للمشركين، فأما المؤمنون فما أكثر أنصارهم وشفعاؤهم.

وأخرج سعيد بن منصور عن مجاهد، قال: كل طعام فى القرآن فهو نصف صاع إلا: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ (الحاقة: ٣٤) فالمراد، ماله.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن وهب بن منبه، قال: كل شيء فى القرآن (قليل) و (إلا قليل) فهو على دون العشرة.

وأخرج عن سفيان بن عيينة، قال: كل شيء فى القرآن (وما يدريك) فلم يخبر، (وما أدراك) فقد أخبر به.

وأخرج عنه قال: كل (مكر) فى القرآن فهو عمل.

وأخرج عن مجاهد، قال: ما كان فى القرآن (قتل)، لعن فإنما عنى به الكافر.

وقال الراغب فى «مفرداته»: قيل كل شيء ذكره الله بقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ سره، وكل شيء ذكره بقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ تركه، وقد ذكر: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾ (المطففين: ٨)، ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ (المطففين: ١٩) ثم فسر الكتاب، لا السجين ولا العليون، وفي ذلك نكتة لطيفة انتهى، ولم يذكرها.

وبقيت أشياء تأتي فى النوع الذي يلى هذا إن شاء الله تعالى والله أعلم.

فصل
فى المحكم والمتشابه

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ﴾ (آل عمران: ٧) وقد حكى ابن حبيب النيسابوري فى المسألة ثلاثة أقوال:

أحدها: أن القرآن كله محكم، لقوله تعالى: ﴿كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ﴾ (هود: ١).

الثاني: كله متشابه، لقوله تعالى: ﴿كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾ (الزمر: ٢٣).

الثالث- وهو الصحيح-: انقسامه إلى محكم ومتشابه، للآية المصدّر بها هذا الباب، والجواب عن الآيتين أن المراد بإحكامه إتقانه وعدم تطرق النقض

والاختلاف إليه، وبتشابهه كونه يشبه بعضه بعضاً فى الحق والصدق والإيجاز.

وقال بعضهم: الآية لا تدل على الحصر فى الشيئين، إذ ليس فيهما شيء من طرقه، وقد قال تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل: ٤٤) والمحكم ما لا تتوقف معرفته على البيان، والمتشابه ما لا يرجى بيانه.

وقيل: المحكم ما عُرِف المراد منه، إما بالظهور وإما بالتأويل، والمتشابه ما استأثر الله بعلمه، كقيام الساعة وخروج الدجال والحروف المقطعة فى أوائل السور.

وقيل: المحكم ما وضح معناه، والمتشابه نقيضه.

وقيل: المحكم ما لا يحتمل من التأويل إلا وجهاً واحداً، والمتشابه ما احتمل أوجهاً متعددة.

وقيل: المحكم ما كان معقول المعنى، والمتشابه بخلافه، كأعداد الصلوات واختصاص الصيام برمضان دون شعبان، قاله الماوردى.

وقيل: المحكم ما استقل بنفسه، والمتشابه ما لا يستقل بنفسه إلا برده إلى غيره، وقيل: المحكم ما تأويله تنزيله، والمتشابه ما لا يدرى إلا بالتأويل.

وقيل: المحكم ما لا تتكرر ألفاظه ومقابله المتشابه.

وقيل: المحكم الفرائض والوعد والوعيد، والمتشابه القصص والأمثال.

أخرج ابن أبي حاتم من طريق عليّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس، قال: المحكمات ناسخه وحلاله وحرامه وحدوده وفرائضه وما يؤمن به ويعمل به.

والمتشابهات منسوخه ومقدمه ومؤخره وأمثاله وأقسامه وما يؤمن به ولا يعمل به.

وأخرج الفريابي عن مجاهد، قال: المحكمات ما فيه الحلال والحرام، وما سوى ذلك منه متشابه يصدق بعضه بعضاً.

وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع، قال: المحكمات هي الآمرة الزاجرة.

وأخرج عن إسحاق بن سويد، أن يحيى بن يعمر وأبا فاختة تراجعا فى هذه الآية، فقال أبو فاختة: فواتح السور، وقال يحيى: الفرائض والأمر والنهى والحلال.

وأخرج الحاكم وغيره، عن ابن عباس، قال: الثلاث آيات من آخر سورة الأنعام محكمات: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ﴾ (الأنعام: ١٥١) والآيتان بعدها.

وأخرج ابن أبى حاتم من وجه آخر، عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ (آل عمران: ٧) قال: من هاهنا ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ﴾ (الأنعام: ١٥١)، إلى ثلاث آيات، ومن هاهنا ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ (الإسراء: ٢٣) إلى ثلاث آيات بعدها.

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك، قال: المحكمات ما لم ينسخ منه، والمتشابهات ما قد نسخ.

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان، قال: المتشابهات فيما بلغنا: الم، والمص والمر والر.

قال ابن أبى حاتم: وقد روى عن عكرمة وقتادة وغيرهما: أن المحكم الذي يعمل به، والمتشابه الذي يؤمن به ولا يعمل به.

وقد اختلف العلماء فى هل المتشابه مما يمكن الاطلاع على علمه، أو لا يعلمه إلا الله على قولين، منشؤهما الاختلاف فى قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ (آل عمران: ٧) هل هو معطوف ﴿يَقُولُونَ﴾ حال، أو مبتدأ خبر﴿يَقُولُونَ﴾، والواو للاستئناف، على الأول طائفة يسيرة، منهم مجاهد، وهو رواية عن ابن عباس، فأخرج ابن المنذر من طريق مجاهد عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ (آل عمران: ٧) قال: أنا ممن يعلم تأويله.

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد فى قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ قال: يعلمون تأويله ويقولون آمنا به.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن الضحاك قال: الراسخون فى العلم يعلمون تأويله، ولو لم يعلموا تأويله لم يعلموا ناسخه من منسوخه، ولا حلاله من حرامه، ولا محكمه من متشابهه، واختار هذا القول النووي، فقال فى «شرح مسلم»: لأنه الأصح، لأنه يبعد أن يخاطب الله عباده بما لا سبيل لأحد من الخلق إلى معرفته.

وقال ابن الحاجب: إنه الظاهر، وأما الأكثرون من الصحابة والتابعين وأتباعهم ومن بعدهم خصوصاً أهل السنة، فذهبوا إلى الثاني، وهو أصح الروايات عن ابن عباس.

قال ابن السمعاني: لم يذهب إلى القول الأول إلا شرذمة قليلة، واختاره القتبي قال: وقد كان يعتقد مذهب أهل السنة، ولكنه سها فى هذه المسألة قال: ولا غرو، فإن لكل جواد كبوة، ولكل عالم هفوة.

قلت: ويدل لصحة مذهب الأكثرين، ما أخرجه عبد الرزاق فى «تفسيره» والحاكم فى «مستدركه»، عن ابن عباس أنه كان يقرأ: **(وما يعلم تاويله إلا الله ويقول الراسخون فى العلم آمنا به)** فهذا على أن الواو للاستئناف، لأن هذه الرواية وإن لم تثبت بها القراءة، فأقل درجاتها أن يكون خبراً بإسناد صحيح إلى ترجمان القرآن، فيقدم كلامه فى ذلك على من دونه.

ويؤيد ذلك أن الآية دلت على ذم متبعي المتشابه ووصفهم بالزيغ وابتغاء الفتنة، وعلى مدح الذين فوَّضوا العلم إلى الله، وسلموا إليه، كما مدح الله المؤمنين بالغيب.

وحكى القراء أن فى قراءة أبيّ بن كعب أيضاً: **(ويقول الراسخون)**.

وأخرج ابن أبي داود فى «المصاحف» من طريق الأعمش، قال: فى قراءة ابن مسعود: **(وإن تأويله إلا عند الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به)**.

وأخرج الشيخان وغيرهما عن عائشة، قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ (آل عمران:٧) إلى قوله: ﴿أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ قالت: قال رسول الله ﷺ: «**فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمَّى الله فاحذرهم**».

وأخرج الطبراني في «الكبير» عن أبي مالك الأشعري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**لا أخاف على أمتي إلا ثلاث خلال: أن يكثر لهم المال فيتحاسدوا فيقتتلوا، وأن يفتح لهم الكتاب، فيأخذه المؤمن يبتغي تأويله:** ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ (آل عمران: ٧) الحديث.

وأخرج ابن مردويه، من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده، عن رسول الله ﷺ قال: «**إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما تشابه فآمنوا**».

وأخرج الحاكم، عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «**كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد على حرف واحد، ونزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف: زاجر، وآمر، وحلال، وحرام، متشابه، وأمثال. فأحلوا حلاله، وحرموا حرامه، وافعلوا ما أمرتم به، وانتهوا عما نهيتم عنه، واعتبروا بأمثاله، واعملوا بمحكمه، وآمنوا بمتشابهه، وقولوا آمنا به كل من عند ربنا**».

وأخرج البيهقي في «الشعب» نحوه، من حديث أبي هريرة.

وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس مرفوعاً: «**أنزل القرآن على أربعة أحرف: حلال وحرام، لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير تفسره العرب، وتفسير تفسره العلماء، ومتشابه لا يعلمه إلا الله، ومن ادعى علمه سوى الله فهو كاذب**» ثم أخرجه من وجه آخر عن ابن عباس موقوفاً بنحوه.

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق العوفي، عن ابن عباس، قال: «**نؤمن بالمحكم، وندين به، ونؤمن بالمتشابه ولا ندين به، وهو من عند الله كله**».

وأخرج أيضاً عن عائشة: قالت «كان رسوخهم فى العلم أن آمنوا بمتشابهه ولا يعلمونه».

وأخرج الدارمي فى «مسنده»، عن سليمان بن يسار، أن رجلاً يقال له صبيغ، قدم المدينة، فجعل يسأل عن متشابه القرآن، فأرسل إليه عمر، وقد أعد له عراجين النخل فقال: من أنت؟ فقال: أنا عبد الله صبيغ، فأخذ عمر عرجوناً من العراجين، فضربه حتى دمى رأسه، وفي رواية عنده: فضربه بالجريد حتى ترك ظهره دبرة، ثم تركه حتى برأ، فدعا به ليعود، فقال: إن كنت تريد قتلى فاقتلني قتلاً جميلاً.

فأذن له إلى أرضه، وكتب إلى أبي موسى الأشعري ألا يجالسه أحد من المسلمين.

وأخرج الدارمي عن عمر بن الخطاب قال: إنه سيأتيكم ناس يجادلونكم بمتشابهات القرآن فخذوهم بالسنن، فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله.

فهذه الأحاديث والآثار تدل على أن المتشابه مما لا يعلمه إلا الله، وأن الخوض فيه مذموم، وسيأتي قريباً زيادة على ذلك.

قال الطيبي: المراد بالمحكم ما اتضح معناه، والمتشابه بخلافه؛ لأن اللفظ الذي يقبل معنى إما أن يحتمل غيره أو لا والثاني النص، والأول إما أن تكون دلالته على ذلك الغير أرجح أو لا، والأول هو الظاهر والثاني إما أن يكون مساوية أو لا، والأول هو المجمل، والثاني المؤول، فالمشترك بين النص والظاهر هو المحكم، والمشترك بين المجمل والمؤول هو المتشابه.

ويؤيد هذا التقسيم أنه تعالى أوقع المحكم مواقعاً للمتشابه، قالوا: فالواجب أن يفسر المحكم بما يقابله، ويعضد ذلك أسلوب الآية، وهو الجمع مع التقسيم، لأنه تعالى فرّق ما جمع فى معنى الكتاب بأن قال: ﴿مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ﴾ (آل عمران: ٧) وأراد أن يضيف إلى كل منهما ما شاء فقال أولاً: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ إلى أن قال: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ (آل عمران: ٧).

وكان يمكن أن يقال: (وأما الذين في قلوبهم استقامة فيتبعون المحكم) لكنه وضع موضع ذلك: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾لإتيان لفظ الرسوخ، لأنه لا يحصل إلا بعد التتبع العام والاجتهاد البليغ، فإذا استقام القلب على طرق الإرشاد، ورسخ القدم فى العلم، أفصح صاحبه النطق بالقول الحق، وكفى بدعاء الراسخين في العلم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ إلى آخره شاهداً على أن: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ مقابل لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ وفيه إشارة إلى أن الوقف على قوله:﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾وقف تام، وإلى أن علم بعض المتشابه مختص بالله تعالى، وأن من حاول معرفته فهو الذي أشير إليه فى الحديث بقوله: «**فاحذروهم**».

وقال بعضهم: العقل مبتلى باعتقاد حقيقة المتشابه، كابتلاء البدن بأداء العبادة، كالحكيم إذا صنف كتاباً أجمل فيه أحياناً ليكون موضع خضوع المتعلم لأستاذه، وكالملك يتخذ علامة يجتاز بها من يطلعه على سره، وقيل: لو لم يبتلَ العقل الذي هو أشرف البدن لاستمر العالم فى أبهة العلم على التمرد، فبذلك يستأنس إلى التذلل بعز العبودية، والمتشابه هو موضع خضوع العقول لبارئها استسلاماً واعترافاً بقصورها.

وفي ختم الآية بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ تعريض بالزائغين ومدح للراسخين، يعنى من لم يتذكر ويتعظ ويخالف هواه، فليس من أولى العقول، ومن ثَمَّ قال الراسخون: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ إلى آخر الآية فخضعوا لبارئهم لاستنزال العلم اللدنى، بعد أن استعاذوا به من الزيغ النفساني.

وقال الخطابي: المتشابه على ضربين: أحدهما إذا رد إلى المحكم واعتبر به عرف معناه، والآخر ما لا سبيل إلى الوقوف على حقيقته، وهو الذي يتبعه أهل الزيغ، فيطلبون تأويله، ولا يبلغون كنهه، فيرتابون فيه فيفتتنون.

وقال ابن الحصار: قسَّم الله آيات القرآن إلى محكم ومتشابه، وأخبر عن المحكمات أنها أم الكتاب، لأن إليها ترد المتشابهات، وهى التي تعتمد فى فهم مراد الله من فى كل ما تعبدهم به من معرفته وتصديق رسله وامتثال أوامره واجتناب

نواهيه، وبهذا الاعتبار كانت أمهات، ثم أخبر عن الذين فى قلوبهم زيغ أنهم هم الذين يتبعون ما تشابه منه.

ومعنى ذلك أن من لم يكن على يقين من المحكمات وفى قلبه شك واسترابة كانت راحته فى تتبع المشكلات المتشابهات، ومراد الشارع منها التقدم إلى فهم المحكمات، وتقديم الأمهات، حتى إذا حصل اليقين ورسخ العلم لم تبلِ بما أشكل عليك.

ومراد هذا الذي فى قلبه زيغ التقدم إلى المشكلات، وفهم المتشابه قبل فهم الأمهات، وهو عكس المعقول والمعتاد والمشروع، ومثل هؤلاء مثل المشركين الذين يقترحون على رسلهم آيات غير الآيات التي جاءوا بها، ويظنون أنهم لو جاءتهم آيات أخر لآمنوا عندها جهلاً منهم، وما علموا أن الإيمان بإذن الله تعالى.انتهى.

وقال الراغب فى «مفردات القرآن»: الآيات عند اعتبار بعضها ببعض ثلاثة أضرب:

محكم على الإطلاق، ومتشابه على الإطلاق، ومحكم من وجه ومتشابه من وجه.

فالمتشابه بالجملة ثلاثة أضرب: متشابه من جهة اللفظ فقط، ومن جهة المعنى فقط، ومن جهتهما. فالأول ضربان: أحدهما يرجع إلى الألفاظ المفردة، إما من جهة الغرابة نحو (الأب) و(يزفون) أو الاشتراك كاليد واليمين وثانيهما يرجع إلى جملة الكلام والمركب، وذلك ثلاثة أضرب:

١- ضرب لاختصار الكلام، نحو: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم﴾ (النساء: ٣).

٢- وضرب لبسطه، نحو: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى: ١١) لأنه لو قيل: (ليس مثله شيء) كان أظهر للسامع.

٣- وضرب لنظم الكلام، نحو: ﴿أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا﴾ (الكهف: ١)،تقديره: (أنزل على عبده الكتاب قيماً ولم يجعل له عوجاً).

والمتشابه من جهة المعنى أوصاف الله تعالى وأوصاف القيامة، فإن تلك الأوصاف لا تتصور.

والمتشابه من جهتها خمسة أضرب:

الأول: من جهة الكمية كالعموم والخصوص، نحو: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ (التوبة: ٥).

والثاني: من جهة الكيفية كالوجوب والندب، نحو: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ (النساء: ٣).

والثالث: من جهة الزمان كالناسخ والمنسوخ، نحو: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ (آل عمران: ١٠٢).

والرابع: من جهة المكان والأمور التي نزلت فيها، نحو: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ (البقرة: ١٨٩)، ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ (التوبة: ٣٧)، فإن من لا يعرف عادتهم فى الجاهلية يتعذر عليه تفسير هذه الآية.

الخامس: من جهة الشروط التي بها يصح الفعل أو يفسد كشروط الصلاة والنكاح. قال: وهذه الجملة إذا تصورت علم أن كل ما ذكره المفسرون فى تفسير المتشابه لا يخرج عن هذه التقاسيم. ثم اعلم أن جميع المتشابه على ثلاثة أضرب:

١- ضرب لا سبيل إلى الوقوف عليه، كوقت الساعة، أي قيامها وخروج الدابة ونحو ذلك.

٢- وضرب للإنسان سبيل إلى معرفته كالألفاظ الغريبة والأحكام المغلقة.

٣- وضرب متردد بين الأمرين يختص بمعرفته بعض الراسخين فى العلم، ويخفى على من دونهم، وهو المشار إليه بقوله ﷺ لابن عباس: «**اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل**» وإذا عرفت هذه الجهة عرفت أن الوقوف على قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ (آل عمران: ٧)، ووصله بقوله تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ جائز، وأن لكل واحد منها وجهاً حسبما دل عليه التفصيل المتقدم.

وقال الإمام فخر الدين: صرف اللفظ عن الراجح إلى المرجوح لابد فيه من دليل منفصل، وهو إما لفظي أو عقلي: فالأول لا يمكن اعتباره فى المسائل الأولية

لأنه لا يكون قاطعاً، ولأنه موقوف على انتفاء الاحتمالات العشرة المعروفة وانتفاؤها مظنون والموقوف على المظنون مظنون، والظن لا يكتفي به فى الأصول.

وأما العقلي فإنه يفيد صرف اللفظ من ظاهره لكونه الظاهر محالاً، وأما إثبات المعنى المراد فلا يمكن بالعقل، لأن طريق ذلك ترجيح مجاز على مجاز، وتأويل على تأويل، وذلك الترجيح لا يمكن إلا بالدليل اللفظي، والدليل اللفظي فى الترجيح ضعيف، لا يفيد إلا الظن، والظن لا يعوّل عليه فى المسائل الأصولية، فلهذا اختار الأئمة المحققون من السلف والخلف بعد إقامة الدليل القاطع على أن حمل اللفظ على ظاهره محال، ترك الخوض فى تعيين التأويل: وحسبك بهذا الكلام من الإمام.

فصل

فى المتشابه من آيات الصفات

ولابن اللبان فيها تصنيف مفرد، وهى نحو قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ (طه: ٥)، ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾ (القصص: ٨٨)، ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ﴾ (الرحمن:٢٧)، ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ (طه: ٣٩) ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ (الفتح: ١٠)، ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ (الزمر: ٦٧).

وجمهور أهل السنة منهم السلف وأهل الحديث على الإيمان بها، وتفويض معناها المراد منها إلى الله تعالى، ولا نفسرها مع تنزيهنا له عن حقيقتها.

قد أخرج أبو القاسم اللالكائي[1] فى «السنة» من طريق قرة بن خالد عن الحسن عن أمه، عن أم سلمة فى قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ (طه: ٥) قالت: الكيف غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإقرار به من الإيمان، والجحود به كفر.

وأخرج أيضاً عن ربيعة بن عبد الرحمن، أنه سئل عن قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ

(١) من فقهاء الشافعية.

ٱسْتَوَىٰ﴾ فقال: الإيمان غير مجهول، والكيف غير معقول، ومن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ المبين، وعلينا التصديق.

وأخرج أيضاً عن مالك، أنه سئل عن الآية، فقال: الكيف غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وأخرج البيهقي عنه أنه قال: « هو كما وصف نفسه، ولا يقال كيف وكيف » مرفوع.

وأخرج اللالكائي عن محمد بن الحسن، قال: اتفق الفقهاء كلهم من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالصفات من غير تفسير ولا تشبيه.

وقال الترمذي فى الكلام على حديث الرؤية: المذهب فى هذا عند أهل العلم من الأئمة؛ مثل سفيان الثوري ومالك وابن المبارك وابن عيينة ووكيع وغيرهم، أنهم قالوا: (نروى هذه الأحاديث كما جاءت ونؤمن بها، ولا يقال: كيف، ولا نفسر ولا نتوهم).

وذهب طائفة من أهل السنة إلى أننا نؤولها على ما يليق بجلاله تعالى، وهذا مذهب الخلف، وكان إمام الحرمين يذهب إليه، ثم رجع عنه، فقال فى الرسالة النظامية: الذي نرتضيه ديناً، وندين الله به عقداً، اتباع سلف الأمة، فإنهم درجوا على ترك التعرض لمعانيها. وقال ابن الصلاح: على هذه الطريقة قضى صدر الأمة وسادتها، وإياها اختار أئمة الفقهاء وقادتها، وإليها دعا أئمة الحديث وأعلامه، ولا أحد من المتكلمين من أصحابنا يصدف عنها ويأباها، واختار ابن برهان مذهب التأويل، قال:ومنشأ الخلاف بين الفريقين: هل يجوز أن يكون فى القرآن شيء لم نعلم معناه أو لا، بل يعلم الراسخون فى العلم؟

وتوسط ابن دقيق العيد فقال: إذا كان التأويل قريباً من لسان العرب لم ينكر، أو بعيداً توقفنا عنه، وآمنا بمعناه على الوجه الذي أريد به مع التنزيه قال: وما كان معناه من هذه الألفاظ ظاهراً مفهوماً من تخاطب العرب، قلنا به من غير توقيف كما فى قوله تعالى:﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ (الزمر: ٥٦) فتحمله على حق الله وما يجب به.

قال السيوطي- رحمه الله- وإليك: ذكر ما وقفت عليه من تأويل الآية المذكورة على طريقة أهل السنة:

من ذلك صفة الاستواء، وحاصل ما رأيت فيها سبعة أجوبة:

أحدها: حكى مقاتل والكلبى عن ابن عباس أن (استوى) بمعنى استقر، وهذا إن صح يحتاج إلى تأويل، فإن الاستقرار يشعر بالتجسيم.

ثانيها: أن (استوى) بمعنى (استولى) ورُدَّ بوجهين:

أحدهما: أن الله تعالى مستولٍ على الكونين والجنة والنار وأهلها، فأي فائدة فى تخصيص العرش والآخر: أن الاستيلاء، إنما يكون بعد قهر وغلبة، والله سبحانه وتعالى منزه عن ذلك. أخرج اللالكائي فى «السنة» عن ابن الأعرابي أنه سئل عن معنى (استوى) فقال: هو على عرشه كما أخبر، فقيل: يا أبا عبد الله معناها (استوى)؟ قال: اسكت لا يقال استوى على الشيء، إلا إذا كان له مضاداً فإذا غلب أحدهما قيل: استوى.

ثالثها: أنه بمعنى صعد، قاله أبو عبيد، ورُدَّ بأنه تعالى منزه عن الصعود أيضاً.

رابعها: أن التقدير (الرحمن علا) أي ارتفع من العلو، والعرش له استوى، حكاه إسماعيل فى «تفسيره».

ورُدَّ بوجهين: أحدهما أنه جعل على فعلا، وهي حرف هنا باتفاق، فلو كانت لكتبت بالألف، كقوله: ﴿عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ (القصص: ٤)، والآخر أنه رفع (العرش) ولم يرفعه أحد من القراء.

خامسها: أن الكلام عند قوله:﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ وقف ثم ابتدأ بقوله:﴿ٱسْتَوَىٰ ۝ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾(طه:٥).

ورُدَّ بأنه يزيل الآية عن نظمها ومرادها.

قلت: لا يتأتى له فى قوله:﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

سادسا: أن معنى (استوى) أقبل على خلق العرش وعمد إلى خلقه، كقوله: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ﴾ (فصلت: ١١)، أي قصد وعمد إلى خلقها. قاله الفراء والأشعري وجماعة أهل المعاني وقال إسماعيل الضرير: إنه الصواب.

قلت: يبعده تعديته بـ «على»، ولو كان كما ذكره لتعدى بـإلى كما فى قوله: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ (فصلت: ١١).

سابعها: قال ابن اللبان: الاستواء المنسوب إليه تعالى بمعنى اعتدال، أي قام بالعدل، كقوله تعالى: ﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ والعدل هو استواؤه، ويرجع معناه إلى أنه أعطى بعزته كل شيء خلقه موزوناً بحكمته البالغة، والله أعلم.

ومن ذلك النفس: فى قوله تعالى: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾ (المائدة: ١١٦)، ووجه بأنه خرج على سبيل المشاكلة مراداً به الغيب مستتر كالنفس، وقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ أي عقوبته، وقيل: إياه.

وقال السهيلى: النفس عبارة عن حقيقة الوجود دون معنى زائد، وقد استعمل من لفظة النفاسة والشيء النفيس، فصلحت للتعبير عنه سبحانه وتعالى.

وقال ابن اللبان: أولها العلماء بتأويلات، منها أن النفس عبرّ بها عن الذات، وقال: وهذا وإن كان سائغاً فى اللغة، ولكن تعدى الفعل إليها بـ (فى) المفيدة للظرفية محال عليه تعالى، وقد أولها بعضهم بالغيب أي ولا أعلم ما فى غيبك وسرك، قال: وهذا حسن لقوله فى آخر الآية: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ (المائدة:١٠٩).

ومن ذلك الوجه: وهو مؤول بالذات، وقال ابن اللبان فى قوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ﴾ (الأنعام:٥٢)، ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ﴾ (الإنسان: ٩)، ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ (الليل:٢٠)، المراد بذلك كله إخلاص النية.

وقال غيره فى قوله: ﴿فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ﴾ (البقرة: ١١٥)، أي الجهة التي أمر بالتوجه إليها.

ومن ذلك العين: وهى مؤولة بالبصر أو بالإدراك، بل قال بعضهم: إنها حقيقة

فى ذلك خلافاً لتوهم بعض الناس أنها مجازاً، وإنما المجاز فى تسمية العضو بهـا، وقـال ابن اللبان: نسبة العين إليه تعالى اسم لآياته المبصرة، التي بها سبحانه ينظر للمؤمنين، وبها ينظرون إليه، قـال تعـالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ﴾ (النمل: ١٣) فقـد نسب البصر للآيات على سبيل المجاز تحقيقـاً، لأنهـا المـراد بـالعين المنسـوبة إليـه، وقـال: ﴿قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ﴾ (الأنعام: ١٠٤) قـال: فقولـه: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ (الطور: ٤٨) أي بآياتنا تنظر بها إلينا، وننظر بها إليك.

قال: ويؤيد أن المراد بالأعين هنا الآيات، كونه علل بها الصبر لحكم ربه صريحاً فـي قولـه: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا ۝٢٣ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ (الإنسان: ٢٣-٢٤)، قال: وقوله فـي سفينة نـوح: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾ (القمر: ١٤)، أي بآياتنـا، بـدليل: ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآ﴾ (هـود: ٤١) وقال: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ (طه: ٣٩)، أي على حكم آيتي التي أوحيتها إلى أمك، وهي ﴿أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ (القصص: ٧) الآية، انتهى. وقال غيره: المراد فى الآيات كلاءته تعالى وحفظه.

ومـن ذلـك اليـد: فـي قولـه: ﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ (ص: ٧٥)، ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ (الفتح: ١٠)، ﴿مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ﴾ (يس: ٧١)، ﴿وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾ (الحديد: ٢٩)، وهي مؤولة بالقدرة.

وقال السهيلي: اليد فى الأصل كالبصر عبارة عن صفة لموصوف، ولذلك مدح سبحانه وتعالى بالأيدي مقرونة مع الأبصار فـي قولـه تعـالى: ﴿أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ (ص: ٤٥)، ولم يمدحهم بالجوارح، لأن المدح إنما يتعلق بالصفات لا بالجواهر، قال: ولهذا قال الأشعري: إن اليد صفة ورد بها الشرع.

والذي يلوح من معنى هذه الصفة أنها قريبة من معنى القـدرة إلا أنهـا أخـص والقدرة أعم، كالمحبة مع الإرادة والمشيئة، فإن فى اليد تشريفاً لازماً.

وقال البغوي فى قوله: (بيدى): فى تحقيق الله التثنية فى اليد دليل على أنها ليست بمعنى القدرة والقوة والنعمة، وإنما هي صفتان من صفات ذاته، وقال مجاهد: اليد هاهنا صلة وتأكيد، كقوله:﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ (الرحمن: ٢٧).

قال البغوي: وهذا تأويل غير قوى، لأنها لو كانت صلة، لكان لإبليس أن يقول إن كنت خلقته فقد خلقتني، وكذلك فى القدرة والنعمة لا يكون لآدم فى الخلق مزية على إبليس.

وقال ابن اللبان: فإن قلت: فما حقيقة اليدين فى خلق آدم ؟ قلت: الله أعلم بما أراد، ولكن الذي استثمرته من تدبر كتابه، أن (اليدين) استعارة لنور قدرته القائم بصفة عدله. ونبه على تخصيص آدم وتكريمه بأن جمع له فى خلقه بين فضله وعدله.

قال: وصاحبة الفضل هي اليمين التي ذكرها فى قوله تعالى:﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ (الزمر: ٦٧) سبحانه وتعالى، والله أعلم.

فصل فى
العام والخاص

اعلم: أن للنظم التشريعية والأحكام الدينية مقاصد تهدف إليها، وقد يجتمع للحكم التشريعي خصائص تجعله عاماً يشمل كل الأفراد، أو ينطبق على جميع الحالات، وقد يكون لذلك القصد غاية خاصة، فالتعبير عنه يتناول بعمومه الحكم، ثم يأتي ما يبين حده أو يحصر نطاقه، والبيان العربي فى تلوين الخطاب وبيان المقاصد والغايات مظهر من مظاهر قوة اللغة واتساع مادتها، فإذا ورد هذا فى كلام الله المعجز كان لوقعه فى النفس عنوان تشريعي مع الإعجاز اللغوي.

تعريف العام وصيغ العموم:

العام: هو اللفظ المستغرق لما يصلح له من غير حصر.

وقد اختلف العلماء فى معنى العموم، هل له فى اللغة صيغة موضوعة له

خاصة به تدل عليه أم لا ؟ ذهب أكثر العلماء إلى أن له صيغة فى اللغة وضعت له خاصة للعموم للدلالة، وتستعمل مجازاً فيما عداه، واستدلوا على ذلك بأدلة نصية وإجماعية ومعنوية.

١ - فمن الأدلة النصية قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ۝ قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ (هود: ٤٥-٤٦) ووجه الدلالة أن نوحاً عليه السلام توجه بهذا النداء تمسكاً منه بقوله تعالى: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾ (العنكبوت: ٣٣) وأقره الله تعالى على هذا النداء، وأجابه بما دل على أنه ليس من أهله، ولولا أن إضافة الأهل إلى نوح للعموم لما صح ذلك.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ۝ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ (العنكبوت: ٣١-٣٢)، ووجه الدلالة أن إبراهيم فهم من قول الملائكة: ﴿أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ العموم حيث ذكر (لوطاً) فأقره الملائكة على ذلك، وأجابوه بتخصيص لوط وأهله بالاستثناء واستثناء امرأته من الناجين، وذلك كله يدل على العموم.

٢- ومن الأدلة الإجماعية إجماع الصحابة على إجراء قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ (النور: ٢).

وقوله: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾ (المائدة: ٣٨)، ونحو ذلك على العموم فى كل زانٍ وسارق.

٣- ومن الأدلة المعنوية، أن العموم يفهم من استعمال ألفاظه، ولو لم تكن هذه الألفاظ موضوعة له لما تبادر إلى الذهن فهمه منها، كألفاظ الشرط والاستفهام والموصول.

وإننا ندرك الفرق بين (كل) و (بعض) ولو كان (كل) غير مفيد للعموم لما تحقق الفرق.

ولو قال قائل فى النكرة المنفية: (لا رجل فى الدار) فإنه يعد كاذباً إذا قُدّر أنه رأى رجلاً ما، كما ورد قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ (الأنعام: ٩١) تكذيباً لمن قال: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ (الأنعام: ٩١) وهذا يدل على أن النكرة بعد النفي للعموم، ولو لم تكن للعموم لما كان قولنا: (لا إله إلا الله) توحيداً لعدم دلالته على نفي كل إله سوى الله تعالى.

وبناء على هذا فللعموم صيغه التي تدل عليه:

منها (كل): كقوله تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ (آل عمران: ١٨٥).

وقوله: ﴿ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ (الرعد: ١٦)، ومثلها جميع.

ومنها: المعرف بأل التي ليست للعهد، كقوله: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ (العصر: ١-٢)، أي كل إنسان بدليل قوله بعد ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ (العصر: ٣)، وقوله: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ (البقرة: ٢٧٥)، وقوله: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾ (٣٨- المائدة).

ومنها: النكرة فى سياق النفي والنهي، كقوله: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ (البقرة: ١٩٧)، وقوله: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ (الإسراء: ٢٣)، أو فى سياق الشرط كقوله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ (براءة: ٦).

ومنها: لفظ (الذي والتي) وفروعهما، كقوله: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ (الأحقاف: ١٧)، أي كل من قال ذلك، بدليل قوله بُعد بصيغة الجمع: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ (الأحقاف: ١٨).

وقوله: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا﴾ (النساء: ١٦)، وقوله: ﴿وَٱلَّـٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَـٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّـٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ وَأُو۟لَـٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ (الطلاق: ٤).

وأسماء الشرط كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ (البقرة: ١٥٨).

وقوله: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ (البقرة:١٩٧) للعموم لغير العاقل. ومنها اسم الجنس المضاف إلى معرفة، كقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ (النور:٦٣).

أقسام العام

والعام على ثلاثة أقسام:

الأول: الباقي على عمومه، وقد قال القاضي جلال الدين البلقيني[1]: «ومثاله عزيز» إذ ما من عام إلا ويتخيل فيه التخصيص.

وذكر الزركشي في «البرهان» أنه كثير في القرآن، وأورد منه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ (النساء: ١٧٦).

وقوله: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (الكهف: ٤٩)، وقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ (النساء: ٢٣)، فإنه لا خصوص فيها.

الثاني: العام المراد به الخصوص – كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ (آل عمران:١٧٣)، فالمراد بالناس الأول نعيم بن مسعود الأشجعي، والمراد بالناس الثانية أبو سفيان لا العموم في كل منهما، يدل على هذا قوله تعالى بعد ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ (آل عمران:١٧٣) فوقعت الإشارة بقوله (ذلكم) إلى واحد بعينه، ولو كان المعنى به جمعاً لقال: (إنما أولئكم الشيطان)، وكقوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ﴾ (آل عمران: ٣٩)، والمنادي جبرائيل كما في قراءة ابن مسعود.

---

(١) هو عبد الرحمن بن رسلان، أبو الفضل جلال الدين البلقيني، كان عالماً بارعاً في الفقه والتفسير وأصول العربية، وله تعليق على البخاري، سماه « الإفهام لما في صحيح البخاري من الإبهام» تولى القضاء في مصر. وتوفي سنة ٨٢٤ هـ. وانظر الإتقان ص (١٦) ج (٢).

وقوله: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ (البقرة: ١٩٩)، والمراد بالناس إبراهيم، أو سائر العرب غير قريش.

الثالث: العام المخصوص وأمثلته فى القرآن كثيرة جداً وستأتي، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ (البقرة: ١٨٧) وقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ (آل عمران: ٩٧).

الفرق بين العام المراد به الخصوص والعام المخصوص:

الفرق بين العام المراد به الخصوص والعام المخصوص من وجوه أهمها:

١- أن العام المراد به الخصوص لا يراد شموله لجميع الأفراد من أول الأمر، لا من جهة تناول اللفظ ولا من جهة الحكم، بل هو ذو أفراد استعمل فى فرد واحد منها أو أكثر.

أما العام المخصوص فأريد عمومه وشموله لجميع الأفراد من جهة تناول اللفظ لا من جهة الحكم، فالناس فى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ (آل عمران: ١٧٣) وإن كان عاماً إلا أنه لم يرد به لفظاً وحكماً سوى فرد واحد، أما لفظ الناس فى قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ (آل عمران: ٩٧) فهو عام أريد به ما يتناوله اللفظ من الأفراد، وإن كان حكم وجوب الحج لا يتناول إلا المستطيع منهم خاصة.

٢- والأول مجاز قطعاً، لنقل اللفظ عن موضوعه الأصلي واستعماله فى بعض أفراده، بخلاف الثاني فالأصح فيه أنه حقيقة، وعليه أكثر الشافعية، وكثير من الحنفية، وجميع الحنابلة، ونقله إمام الحرمين[1] عن جميع الفقهاء، وقال الشيخ

---

(١) إمام الحرمين هو عبد الملك بن أبى عبد الله بن يوسف بن محمد الجوينى الشافعى العراقى، أبو المعالى، كان شيخ الإمام الغزالى، ومن أعلم أصحاب الشافعى. توفى سنة ٤٧٨ هـ.

أبو حامد الغزالي: إنه مذهب الشافعي وأصحابه، وصححه السبكي، لأن تناول اللفظ للبعض الباقي بعد التخصيص كتناوله له بلا تخصيص، وذلك التناول حقيقي اتفاقاً، فليكن هذا التناول حقيقياً أيضاً.

٣- وقرينة الأول عقلية غالباً ولا تنفك عنه، وقرينة الثاني لفظية وقد تنفك.

تعريف الخاص وبيان المخصص:

والخاص: يقابل العام فهو الذي لا يستغرق الصالح له من غير حصر، والتخصيص: هو إخراج بعض ما تناوله اللفظ العام، والمخصص: إما متصل، وهو الذي لم يفصل فيه بين العام والمخصص له بفاصل. وإما منفصل، وهو بخلافه.

والمتصل خمسة: **أحدها**: الاستثناء كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ (النور: ٤-٥).

وقوله: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ﴾ (المائدة: ٣٣-٣٤).

الثاني: الصفة كقوله تعالى:﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ (النساء: ٢٣)، فقوله: ﴿ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ صفة لنسائكم، والمعنى أن الربيبة من المرأة المدخول بها محرم على الرجل حلال له إذا لم يدخل بها.

الثالث: الشرط، كقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ١٨٠) فقوله: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ أي مالاً، شرط في الوصية، وقوله:﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ (النور: ٣٣)، أي قدرة على الأداء، أو أمانة وكسباً.

الرابع: الغاية كقوله: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ (البقرة: ١٩٦)، وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾(البقرة: ٢٢٢).

الخامس: بدل البعض من الكل، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ (آل عمران: ٩٧) فقوله: ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ﴾ بدل من الناس، فيكون وجوب الحج خاصاً بالمستطيع.

والمخصص المنفصل: ما كان في موضوع آخر من آية أو حديث أو إجماع أو قياس، فما خص بالقرآن كقوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾(البقرة: ٢٢٨)، فهو عام في كل مطلقة حاملاً كانت أو غير حامل، مدخولاً بها أو غير مدخول بها، خُصَّ بقوله: ﴿ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ (الطلاق: ٤).

وبقوله: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ ﴾ (الأحزاب: ٤٩).

وما خُصَّ بالحديث كقوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ (البقرة: ٢٧٥)، خص من البيع البيوع الفاسدة التي ذكرت في الحديث، كما في البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «**نهى رسول الله ﷺ عن عسب الفحل**» وفي الصحيحين عن ابن عمر: «**أن رسول الله ﷺ نهى عن بيع حبل الحبلة**» وكان بيعاً تبتاعه الجاهلية، كان الرجل يبتاع الجزور إلى أن تنتج الناقة ثم تنتج التي في بطنها واللفظ للبخاري، إلى غير ذلك من الأحاديث.

ورخَّص من الربا العرايا الثابتة بالسنة فإنها مباح، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: «**أن رسول الله ﷺ رخص في بيع العرايا بخرصها فيما دون خمسة أوسق أو في خمسة أوسق**».[(١)]

وما خص الإجماع آية المواريث: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ﴾(النساء: ١١)، خص منها بالإجماع الرقيق لأن الرق مانع من الإرث.

---

(١) متفق عليه.

وما خُصَّ بالقياس آية الزنا: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٖ﴾ (النور: ٢)، خص منها العبد بالقياس على الأمة التي نص على تخصيصها عموم الآية فى قوله تعالى: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ (النساء: ٢٥).

تخصيص السنة بالقرآن

وقد يخصص القرآن السنة ويحتفلون لذلك بما روى عن أبي واقد الليثي ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «**ما قطع من البهيمة وهي حية فهو ميت**»[1] فهذا الحديث خُصَّ بقوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ﴾ (النحل: ٨٠).

صحة الاحتجاج بالعام بعد تخصيصه فيما بقى:

اختلف العلماء فى صحة الاحتجاج بالعام بعد تخصيصه فيما بقى، والمختار عند المحققين صحة الاحتجاج به فيما وراء صور التخصيص[2]، واستدلوا على ذلك بأدلة إجماعية، وأدلة عقلية.

(أ) فمن أدلة الإجماع: أن فاطمة رضي الله عنها احتجت على أبي بكر ﷺ فى ميراثها من أبيها بعموم قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ (النساء: ١١) مع أنه مخصص بالكافر والقاتل، ولم ينكر أحد من الصحابة صحة احتجاجها مع ظهوره وشهرته، فكان إجماعاً على صحة احتجاجها، ولذا عدل أبو بكر ﷺ فى حرمانها إلى الاحتجاج بقوله ﷺ: «**نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة**»[3].

(ب) ومن الأدلة العقلية: أن العام قبل التخصيص حجة فى كل واحد من

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذي، وحسن، واللفظ له.

(٢) أنكر الاحتجاج به عيسى بن أبان، وأبو ثور مطلقاً.

وقال البلخي: إن خصَّ بدليل متصل كالشرط والصفة والاستثناء، فهو حجة. وإن خصَّ بدليل منفصل فليس بحجة. انظر الآمدى ص (٢١٣) جـ (٢).

(٣) الحديث في الصحيحين وغيرهما.

أقسامه إجماعاً، والأصل بقاء ما كان قبل التخصيص بعده إلا أن يوجد له معارض، وليس هناك معارض فيما وراء صور التخصيص، فيظل العام بعد التخصيص حجة فيما بقى.

ما يشمله الخطاب

اختلف فى الخطاب الخاص بالرسول ﷺ كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ (الأحزاب: ١)، وقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ (المائدة: ٤١). هل يشمل الأمة أم لا يشملها؟

(أ) فذهب قوم إلى أنه يشملها باعتباره قدوةً لها.

(ب) وذهب آخرون إلى أنه لا يشملها، لأن الصيغة تدل على اختصاصه بها.

واختلفوا أيضاً فى الخطاب من الله تعالى بـ «يا أيها الناس» كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ (النساء: ١) هل يشمل الرسول أم لا؟ والصحيح فى ذلك أنه يشمله لعمومه، وإن كان الخطاب قد ورد على لسانه ليبلغ غيره.

وقد فصَّل بعضهم، فقال: إن اقترن الخطاب بـ «قل» لم يشمله لأن ظاهره البلاغ، كقوله: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف: ١٥٨) وإلا شمله وما ورد من الخطاب مضافاً إلى الناس أو المؤمنين، كقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ (الحجرات: ١٣)، وقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ (المائدة: ٩٠).

فالمختار فى الأول أنه يشمل الكافر والعبد والأنثى. والمختار فى الثاني أنه يشمل الآخرين فقط، لمراعاة التكليف بالنسبة إلى الجميع، وخروج العبد عن بعض الأحكام كوجوب الحج والجهاد إنما هو لأمر عارض، كفقره واشتغاله بخدمة سيده.

ومتى اجتمع المذكر والمؤنث غلب التذكير، وأكثر خطاب الله تعالى فى القرآن بلفظ التذكير، والنساء يدخلن فى جملته، وقد يأتي ذكرهن بلفظ مفرد تبييناً وإيضاحاً.

وهذا لا يمنع دخولهن فى اللفظ العام الصالح لهن، كما جاء فى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ (النساء: ١٢٤).

الناسخ والمنسوخ

تعريف النسخ وشروطه:

والنسخ لغة يطلق بمعنى الإزالة، ومنه يقال: نسخت الشمس الظلَ، أي أزالته. ونسخت الريح أثر المشي ويطلق بمعنى نقل الشيء من موضع إلى موضع، ومنه نسخت الكتاب إذا نقلت ما فيه. وفي القرآن: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(الجاثية: ٢٩)، والمراد به نقل الأعمال إلى الصحف.

والنسخ فى الاصطلاح: رفع الحكم بخطاب شرعي فخرج بالحكم رفع البراءة الأصلية، وخرج بقولنا: بخطاب شرعي رفع الحكم بموت أو جنون أو إجماع أو قياس.

ويطلق الناسخ على الله تعالى، كقوله:﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ (البقرة: ١٠٦)، وعلى الآية، وما يعرف به النسخ، فيقال: هذه الآية ناسخة لآية كذا، وعلى الحكم الناسخ لحكم آخر.

والمنسوخ هو الحكم المرتفع، فآية المواريث مثلاً أو ما فيها من حكم ناسخ لحكم الوصية للوالدين والأقربين كما سيأتي، ومقتضى ما سبق أنه يشترط فى النسخ:

١- أن يكون الحكم المنسوخ شرعياً.

٢- أن يكون الدليل على ارتفاع الحكم خطاباً شرعياً متراخياً عن الخطاب المنسوخ حكمه.

٣- وألا يكون الخطاب المرفوع حكمه مقيداً بوقت معين، وإلا فالحكم ينتهي بانتهاء وقته، ولا يعد هذا نسخاً.

قال (مكي): ذكر جماعة أن ما ورد من الخطاب مشعراً بالتوقيت والغاية مثل قوله فى البقرة: ﴿ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾(البقرة:١٠٩) محكم غير منسوخ، لأنه مؤجل بأجل، والمؤجل بأجل لا نسخ فيه.

ما يقع فيه النسخ:

ومن هنا أن النسخ لا يكون إلا فى الأوامر والنواهي – سواء كانت صريحة فى الطلب، أو كانت بلفظ الخبر الذي بمعنى الأمر والنهي على أن يكون ذلك غير متعلق بالاعتقادات التي ترجع إلى ذات الله تعالى وصفاته وكتبه ورسله واليوم الآخر، أو الآداب الخلقية أو أصول العبادات والمعاملات، لأن الشرائع كلها لا تخلو من هذه الأصول، وهى متفقة فيها، قال تعالى:﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾(الشورى: ١٣).

وقال تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ (البقرة: ١٨٣).

وقال:﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ (الحج: ٢٧)، وقال فى القصاص: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ (المائدة: ٤٥).

وقال فى الجهاد:﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ (آل عمران: ١٤٦) وفي الأخلاق:﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾(لقمان: ١٨).

كما لا يدخل النسخ الخبر الصريح الذي ليس بمعنى الطلب كالوعد والوعيد.

ما به يعرف النسخ وأهميته:

ولمعرفة الناسخ والمنسوخ أهمية كبيرة عند أهل العلم من الفقهاء والأصوليين

والمفسرين، حتى لا تختلط الأحكام، ولـذلك وردت آثار كثيرة فـى الحث على معرفته، فقد روى أن علياً ﷺ مر على قاضٍ فقال له: أتعرف الناسخ من المنسوخ؟ قال: لا. فقال: هلكت وأهلكت. وعن ابن عباس أنه قال فـى قوله تعالى:﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (البقرة: ٢٦٩) قال: «ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره، وحرامه وحلاله».

ولمعرفة الناسخ والمنسوخ طرق:

١- النقل الصريح عن النبي ﷺ أو عن صحابي، كحديث: «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها**» رواه الحاكم، وقول أنس فى قصة أصحاب بئر معونة كما سيأتي: «ونزل فيهم قرآن قرأناه حتى رفع».

٢- إجماع الأمة على أن هذا ناسخ وهذا منسوخ.

٣- معرفة المتقدم من المتأخر فى التاريخ.

ولا يعتمد فى النسخ على الاجتهاد، أو قول المفسرين، أو التعارض بين الأدلة ظاهراً، أو تأخر إسلام أحد الراويين.

الآراء فى النسخ وأدلة ثبوته:

والناس فى النسخ على أربعة أقسام:

١- اليهود: وهؤلاء ينكرونه، لأنه يستلزم فى زعمهم البداء وهو الظهور بعد الخفاء، وهم يعنون بذلك: أن النسخ إما أن يكون لغير حكمة، وهذا عبث محال على الله، وإما أن يكون لحكمة ظهرت ولم تكن ظاهرة من قبل، وهذا يستلزم البداء وسبق الجهل، وهو محال على الله تعالى.

واستدلالهم هذا فاسد، لأن كلاً من حكمة الناسخ وحكمة المنسوخ معلوم لله تعالى من قبل، فلم يتجدد علمه بها. وهو سبحانه ينقل العباد من حكم إلى حكم لمصلحة معلومة له من قبل، بمقتضى حكمته وتصرفه المطلق فى ملكه.

واليهود أنفسهم يعترفون بأن شريعة موسى ناسخة لما قبلها، وجاء فى نصوص التوراة النسخ، كتحريم كثير من الحيوان على بنى إسرائيل بعد حله، قال تعالى فى إخباره عنهم: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾(آل عمران: ٩٣).

وقال: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ الآية (الأنعام: ١٤٦)، وثبت فى التوراة أن آدم كان يزوج من الأخت، وقد حرم الله ذلك على موسى، وأن موسى أمر بنى إسرائيل أن يقتلوا من عبد منهم العجل، ثم أمرهم برفع السبت منهم.

٢- الروافض: وهؤلاء غلوا فى إثبات النسخ، وتوسعوا فيه، وأجازوا البداء على الله تعالى، فهم مع اليهود على طرفي نقيض، واستدلوا على ذلك بأقوال نسبوها إلى علىّ ﷺ زوراً وبهتاناً، وبقوله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ (الرعد: ٣٩) على معنى أنه يظهر له المحو والإثبات.

وذلك إغراق فى الضلال وتحريف للقرآن، فإن معنى الآية ينسخ الله ما يستصوب نسخه، ويثبت بدله ما يرى المصلحة فى إثباته، وكل من المحو والإثبات موجود فى كثير من الحالات، كمحو السيئات بالحسنات: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ (هود: ١١٤). ومحو كفر التائبين ومعاصيهم بالتوبة، وإثبات إيمانهم وطاعتهم.

ولا يلزم من ذلك الظهور بعد الخفاء، بل يفعل الله هذا مع علمه به قبل كونه.

٣- أبو مسلم الأصفهاني: وهو يجوّز النسخ عقلاً، ويمنع وقوعه شرعاً، وقيل يمنعه فى القرآن خاصة، محتجاً بقوله تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾(فصلت: ٤٢) على معنى أن أحكامه لا تبطل أبداً، ويحمل الآيات النسخ على التخصيص، ورد عليه بأن معنى الآية أن القرآن لم يتقدمه ما يبطله من الكتب ولا يأتي بعده ما يبطله.

٤- وجمهور العلماء على جواز النسخ عقلاً ووقوعه شرعاً لأدلة:

١ - لأن أفعال الله لا تُعلل بالأغراض، فله أن يأمر بالشيء فى وقت، وينسخه بالنهى عنه فى وقت، وهو أعلم بمصالح العباد.

٢- ولأن نصوص الكتاب والسنة دالة على جواز النسخ ووقوعه:

(أ) قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ (النحل: ١٠١)، وقال: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ (البقرة: ١٠٦).

(ب) فى الصحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال عمر ﷺ: «أقرؤنا أبيّ، وأقضانا، وإنا لندع من قول أبيّ، وذاك أن أبياً يقول لا أدع شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ، وقال الله عز وجل: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾».

أقسام النسخ:

والنسخ أربعة أقسام:

القسم الأول: نسخ القرآن بالقرآن، وهذا القسم متفق على جوازه ووقوعه من القائلين بالنسخ، فآية الاعتداد بالحول مثلاً نسخت بآية الاعتداد بأربعة أشهر وعشراً، كما سيأتي فى الأمثلة.

القسم الثاني: نسخ القرآن بالسنة، وتحت هذا نوعان:

(أ) نسخ القرآن بالسنة الآحادية، والجمهور على عدم جوازه، لأن القرآن متواتر يفيد اليقين، والآحادي مظنون، ولا يصح رفع المعلوم بالمظنون.

(ب) ونسخ القرآن بالسنة المتواترة، وقد أجازه مالك وأبو حنيفة وأحمد فى رواية، لأن الكل وحي، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (النجم: ٣-٤).

وقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل: ٤٤) والنسخ نوع من البيان.

ومنعه الشافعي وأهل الظاهر، وأحمد فى الرواية الأخرى، لقوله تعالى:﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ (البقرة: ١٠٦) والسنة ليست خيراً من القرآن ولا مثله.

القسم الثالث: نسخ السنة بالقرآن، ويجيزه الجمهور، فالتوجه إلى بيت المقدس كان ثابتاً بالسنة، وليس في القرآن ما يدل عليه. وقد نسخ بالقرآن فى قوله:﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ (البقرة: ١٤٤) ووجوب صوم عاشوراء، كان ثابتاً بالسنة، ونسخه قوله:﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ (البقرة: ١٨٥). ومنع هذا القسم الشافعي فى إحدى روايتيه، وقال: «وحيث وقع بالسنة فمعها قرآن، أو بالقرآن فمعه سنة عاضدة تبين توافق الكتاب والسنة».

القسم الرابع: نسخ السنة بالسنة، وتحت هذا أربعة أنواع:

١- نسخ متواترة بمتواترة.

٢- نسخ آحاد بآحاد.

٣- ونسخ آحاد بمتواترة.

٤- ونسخ متواترة بآحاد.

والثلاثة الأولى جائزة، أما النوع الرابع ففيه الخلاف الوارد فى نسخ القرآن بالسنة الآحادية، والجمهور على عدم جوازه.

أما نسخ كل من الإجماع والقياس والنسخ بهما، فالصحيح عدم جوازه.

أنواع النسخ فى القرآن:

والنسخ فى القرآن ثلاثة أنواع:

النوع الأول: نسخ التلاوة والحكم معاً، ومثاله: ما رواه مسلم وغيره عن عائشة قالت: «كان فيما أنزل عشر رضعات معلومات يحرمن، فنسخن بخمس معلومات، فتوفى رسول الله ﷺ، وهن مما يقرأ من القرآن» فقولها: «وهن مما يقرأ فى القرآن»

ظاهره بقاء التلاوة، وليس كذلك فإنه غير موجود فى المصحف العثماني، وأجيب بأن المراد قارب الوفاة.

والأظهر أن التلاوة نسخت، ولم يبلغ ذلك كل الناس إلا بعد وفاة الرسول ﷺ فتوفي وبعض الناس يقرأها.

وحكى القاضي أبو بكر فى «الانتصار» عن قوم إنكار هذا القسم، لأن الأخبار فيه أخبار آحاد، ولا يجوز القطع على إنزال القرآن ونسخه بأخبار آحاد لا حجة فيها تفيد القطع، ولكنها ظنية.

ويجاب على ذلك: بأن ثبوت النسخ شيء، وثبوت نزول القرآن شيء آخر، فثبوت النسخ يكفي فيه الدليل الظني بخبر الآحاد، أما ثبوت نزول القرآن، فهو الذي يشترط فيه الدليل القطعي بالخبر المتواتر، والذي معنا ثبوت النسخ لا ثبوت القرآن، فيكفي فيه أخبار الآحاد، ولو قيل إن هذه القراءة لم تثبت بالتواتر لصح ذلك.

النوع الثاني: نسخ الحكم وبقاء التلاوة، ومثاله: نسخ حكم آية العدة بالحول مع بقاء قراءتها، وهذا النوع هو الذي ألفت فيه الكتب، وذكر المؤلفون فيه الآيات المتعددة.

والتحقيق أنها قليلة، كما بيّن ذلك القاضي أبو بكر ابن العربي. وقد يقال: ما الحكمة فى رفع الحكم وبقاء التلاوة؟

والجواب من وجهين: **احدهما أن** القرآن كما يتلى ليعرف الحكم منه والعمل به فإنه يتلى كذلك لكونه كلام الله تعالى، فيثاب عليه، فبقيت التلاوة لهذه الحكمة.

وثانيهما: أن النسخ غالباً يكون للتخفيف، فأبقيت التلاوة تذكيراً بالنعمة فى رفع المشقة.

وأما حكمة النسخ قبل العمل، كالصدقة عند النجوى، فيثاب على الإيمان به وعلى نية طاعة الأمر.

النوع الثالث: نسخ التلاوة مع بقاء الحكم، وقد ذكروا له أمثلة كثيرة منها آية الرجم: (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله، والله عزيز حكيم)، ومنها ما روى فى «الصحيحين» عن أنس فى قصة أصحاب بئر معونة الذين قتلوا، وقنت الرسول ﷺ يدعو على قاتليهم، قال أنس: ونزل فيهم قرآن قرأناه حتى رفع: (أن بلغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا)، ثم نسخت تلاوته.

وبعض أهل العلم ينكر هذا النوع من النسخ، لأن الأخبار فيه أخبار آحاد، ولا يجوز القطع على إنزال قرآن ونسخه بأخبار آحاده قال ابن الحصار: وإنما يرجع النسخ إلى نقل صريح عن رسول الله ﷺ، أو عن صحابي يقول: آية كذا نسخت كذا.

قال: وقد يحكم به عند وجود التعارض للمقطوع به، مع علم التاريخ؛ ليعرف المتقدم والمتأخر، قال: ولا يعتمد فى النسخ على قول عوام المفسرين، بل ولا اجتهاد المجتهدين من غير نقل صريح، ولا معاوضة بينه، لأن النسخ يتضمن رفع حكم وإثبات حكم تقرر فى عهده ﷺ، والمعتمد فيه النقل والتاريخ دون الرأي والاجتهاد.

قال: والناس فى هذا بين طرفي نقيض، فمن قائل: لا يقبل فى النسخ أخبار الآحاد العدول، ومن متساهل يكتفي فيه بقول مفسر أو مجتهد، والصواب خلاف قولهما.

وقد يقال: إن الآية والحكم المستفاد منها؛ متلازمان، لأن الآية دليل على الحكم فإذا نسخت الآية نسخ حكمها، وإلا وقع الناس فى لبس.

ويجاب عن ذلك: بأن هذا التلازم يَسْلَم لو لم ينصب الشارع دليلاً على نسخ التلاوة، وعلى إبقاء الحكم، أما وقد نصب الدليل على نسخ التلاوة وحدها، وعلى إبقاء الحكم واستمراره، فإن التلازم يكون باطلاً، وينتفي اللبس بهذا الدليل الشرعي الذي يدل على نسخ التلاوة مع بقاء الحكم.

حكمة النسخ:

١- مراعاة مصالح العباد.

٢- تطور التشريع إلى مرتبة الكمال، حسب تطور الدعوة وتطور حال الناس.

٣- ابتلاء المكلَّف واختباره بالامتثال وعدمه.

٤- إرادة الخير للأمة والتيسير عليها، لأن النسخ إن كان إلى أشق ففيه زيادة الثواب، وإن كان إلى أخف ففيه سهولة ويسر.

النسخ إلى بدل وإلى غير بدل:

والنسخ يكون إلى بدل وإلى غير بدل والنسخ إلى بدل: إما إلى بدل أخف، وإما إلى بدل مماثل، وإما إلى بدل أثقل.

١- فالنسخ إلى غير بدل: كنسخ الصدقة بين يدي نجوى رسول الله ﷺ فى قوله تعالى:﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ (المجادلة: ١٢) نسخت بقوله:﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ (المجادلة: ١٣).

وأنكر بعض المعتزلة والظاهرية ذلك، وقالوا: إن النسخ بغير بدل لا يجوز شرعاً، لأن الله تعالى يقول:﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ (البقرة: ١٠٦) حيث أفادت الآية أنه لابد أن يؤتى مكان الحكم المنسوخ بحكم آخر خير منه أو مثله.

ويجاب عن ذلك: بأن الله تعالى إذا نسخ حكم الآية بغير بدل فإن هذا يكون بمقتضى حكمته، رعايةً لمصلحة عباده، فيكون عدم الحكم خيراً من ذلك الحكم المنسوخ فى نفعه للناس، ويصح حينئذٍ أن يقال: إن الله نسخ حكم الآية السابقة بما هو خير منها، حيث كان عدم الحكم خيراً للناس.

٢- والنسخ إلى بدل أخف: يمثلون له بقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ (البقرة: ١٨٧) فهي ناسخة لقوله: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٨٣) لأن مقتضاها الموافقة لما كان عليه السابقون من تحريم الأكل والشرب والوطء إذا صلوا العتمة أو ناموا إلى الليلة التالية، كما ذكروا ذلك، فقد روى ابن أبي حاتم عن ابن عمر قال: أنزلت ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ كتب عليهم إذا صلى أحدهم العتمة أو نام فقد حرم عليه الطعام والشراب والنساء إلى مثلها، وروى مثله أحمد والحاكم وغيرهما، وفيه: فأنزل الله عز وجل: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ (البقرة: ١٨٧).

٣- النسخ إلى بدل مماثل، كنسخ التوجه إلى بيت المقدس بالتوجه إلى الكعبة، فى قوله: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ (البقرة: ١٤٤).

٤- والنسخ إلى بدل أثقل: كنسخ الحبس فى البيوت فى قوله: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ (النساء: ١٥) بالجلد فى قوله: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ (النور: ٢). أو الرجم فى قوله: (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبته).

شبه النسخ:

وللناسخ والمنسوخ أمثلة كثيرة إلا أن العلماء فى هذا:

أ- منهم المكثر الذي اشتبه عليه الأمر، فأدخل فى النسخ ما ليس منه.

ب- ومنهم المتحرى الذي يعتمد على النقل الصحيح فى النسخ.

ومنشأ الاشتباه عند المكثرين أمور أهمها:

١- اعتبار التخصيص نسخاً (انظر مبحث العام والخاص).

٢- اعتبار البيان نسخاً (انظر مبحث المطلق والمقيد الآتي).

٣- اعتبار ما شرع لسبب ثم زال السبب من المنسوخ، كالحث على الصبر وتحمل أذى الكفار فى مبدأ الدعوة حين الضعف والقلة، قالوا: إنه منسوخ بآيات القتال، والحقيقة أن الأول هو وجوب الكثرة والقوة وحب الدفاع عن العقيدة بالقتال، وهو الحكم الثاني.

٤- اعتبار ما أبطله الإسلام من أمر الجاهلية أو من شرائع الأمم السابقة نسخاً كتحديد عدد الزوجات بأربع، ومشروعية القصاص والدية، وقد كان عند بني إسرائيل القصاص فقط، كما قال ابن عباس، رواه البخاري. ومثل هذا ليس نسخاً، وإنما هو رفع للبراءة الأصلية.

أمثلة للنسخ:

وقد ذكر السيوطي فى «الإتقان» إحدى وعشرين آية اعتبرها من قبيل النسخ، نذكر منها ما يأتي، ونعلق عليه:

١- قوله تعالى:﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ﴾ (البقرة:١١٥) منسوخة بقوله:﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ﴾ (البقرة: ١٤٤)، وقد قيل - وهو الحق - إن الأولى غير منسوخة، لأنها فى صلاة التطوع فى السفر على الراحلة، وكذا فى حال الخوف والاضطرار، وحكمها باق، كما فى الصحيحين، والثانية فى الصلوات الخمس، والصحيح أنها ناسخة- لما ثبت فى السنة- عن استقبال بيت المقدس.

٢- قوله تعالى:﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾(البقرة: ١٨٠) قيل: منسوخة بآية المواريث، وقيل: بحديث: «**إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث**».

٣- قوله:﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ (البقرة: ١٨٤)،

نسخت بقوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾ (البقرة: ١٨٥) لما في «الصحيحين» من حديث سلمة بن الأكوع أنه قال: «لما نزلت: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖ﴾ كان من أراد أن يفطر يفتدى، حتىٰ نزلت الآية التي بعدها فنسختها».

وذهب ابن عباس إلى أنها محكمة غير منسوخة: روى البخاري عن عطاء أنه سمع ابن عباس رضي الله عنهما يقرأ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖ﴾ قال ابن عباس: «ليست بمنسوخة، هي للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة، لا يستطيعان أن يصوما، فيطعمان كل يوم مسكيناً»، وليس معنى (يطيقونه) على هذا يستطيعونه، وإنما معناه يتحملونه بمشقة وكلفة.

٤- قوله: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۖ﴾ (البقرة:٢١٧) نسخت بقوله: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ﴾ (التوبة: ٣٦)، وقيل: يحمل عموم الأمر بالقتال على غير الأشهر الحرم، فلا نسخ.

٥- قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلۡحَوۡلِ غَيۡرَ إِخۡرَاجٖۚ﴾ (البقرة: ٢٤٠)، نسخت بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ﴾ (البقرة: ٢٣٤)، وقيل: إن الآية الأولى محكمة، لأنها فى مقام الوصية للزوجة إذا لم تخرج ولم تتزوج، أما الثانية فهي لبيان العدة، ولا تنافي بينهما.

٦- قوله: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ (البقرة:٢٨٤) نسخت بقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦).

٧- قوله: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ﴾ (النساء: ٨)، نسخت بآية المواريث، وقيل- وهو الصواب- إنها غير منسوخة، وحكمها باقٍ على الندب.

٨- قوله: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ

مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾(النساء: ١٥-١٦) نسختا بآية الجلد للبكر في سورة النور: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ (النور: ٢)، وبالجلد للبكر وبالرجم للثيب الوارد في السنة: **«البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم»**.

٩- قوله: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ﴾ (الأنفال: ٦٥)، نسخت بقوله: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ﴾ (الأنفال: ٦٦).

١٠- قوله: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ (التوبة: ٤١) نسخت بقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾ (التوبة: ٩١)، وبقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ (التوبة: ١٢٢).

وقيل: إنه من باب التخصيص لا النسخ، وقد مر ذكر أمثلة أخرى، والله أعلم.

فصل في آداب تلاوته وتاليه

أفرده بالتصنيف جماعة منهم النووي في «التبيان»، وقد ذكر فيه وفي «شرح المهذب»، وفي «الأذكار» جملة من الآداب، وأنا ألخصها هنا، وأزيد عليها أضعافها، وأفصّلها مسألة مسألة ليسهل تناولها.

يستحب الإكثار من قراءة القرآن وتلاوته، قال تعالى مثنياً على من كان ذلك دأبه: ﴿يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ (آل عمران: ١٣٣).

وفي «الصحيحين» من حديث ابن عمر: **«لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار»**.

وروى الترمذي من حديث ابن مسعود: **«من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها»**.

وأخرج من حديث أبي سعيد عن النبي ﷺ: **«يقول الرب سبحانه وتعالى: من شغله القرآن وذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على سائر خلقه»**.

وأخرج مسلم من حديث أبي أمامة: **«اقرءوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه»**.

وأخرج البيهقي من حديث عائشة: **«البيت الذي يقرأ فيه القرآن يتراءى لأهل السماء كما تتراءى النجوم لأهل الأرض»**.

وأخرج من حديث أنس: **«نوروا منازلكم بالصلاة وقراءة القرآن»**.

وأخرج من حديث النعمان بن بشير: **«أفضل عبادة أمتي قراءة القرآن»**.

وأخرج من حديث سمرة بن جندب: **«كل مُؤْدِب يحب أن تؤتى مأدبته، ومأدبة الله القرآن، فلا تهجروه»**.

وأخرج من حديث عبيدة المكي مرفوعاً وموقوفاً: **«يا أهل القرآن لا تتوسدوا القرآن، واتلوه حق تلاوته آناء الليل والنهار، وأفشوه، وتدبروا ما فيه، لعلكم تفلحون»** وقد كان للسلف فى قدر القراءة عادات، فأكثر ما ورد فى كثرة القرآن من كان يختم فى اليوم والليلة ثماني ختمات، أربعاً فى الليل، وأربعاً فى النهار، ويليه من كان يختم فى اليوم والليلة أربعاً، ويليه ثلاثاً ويليه ختمتان، ويليه ختمة.

وقد ذمت عائشة ذلك، فأخرج ابن أبي داود عن مسلم بن مخراق قال: «قلت لعائشة: إن رجالاً يقرأ أحدهم القرآن فى الليلة مرتين أو ثلاثاً، فقالت: قرءوا ولم يقرءوا، كنت أقوم مع رسول الله ﷺ ليلة التمام، فيقرأ بالبقرة وآل عمران والنساء، فلا يمر بآية فيها استبشار إلا دعا ورغب، ولا آية فيها تخويف إلا دعا واستعاذ».

ويلي ذلك من كان يختم فى ليلتين، ويليه من كان يختم فى كل ثلاث، وهو حسن، وكره جماعات الختم فى أقل من ذلك، لما روى أبو داود والترمذي وصححه من حديث عبد الله بن عمر مرفوعاً: **«لا يفقه من قرأ القرآن فى أقل من ثلاث»**.

وأخرج ابن أبي داود وسعيد بن منصور عن ابن مسعود موقوفاً قال: «**لا تقرءوا القرآن فى أقل من ثلاث**».

وأخرج أبو عبيد عن معاذ بن جبل أنه كان يكره أن يقرأ القرآن فى أقل من ثلاث.

وأخرج أحمد وأبو عبيد عن سعيد بن المنذر- وليس له غيره- قال: قلت يا رسول الله، أقرأ القرآن فى ثلاث؟ قال: «**نعم إن استطعت**».

ويليه: من ختم فى أربع ثم فى خمس ثم فى ست ثم فى سبع، وهذا أوسط الأمور وأحسنها، وهو فعل الأكثرين من الصحابة وغيرهم.

أخرج الشيخان عن عبد الله بن عمرو قال: «قال لي رسول الله ﷺ: **اقرأ القرآن فى شهر**. قلت: إني أجد قوة، قال: **اقرأه فى عشر**. قلت: إني أجد قوة، قال: **اقرأه فى سبع ولا تزد على ذلك**».

وأخرج أبو عبيد وغيره من طريق واسع بن حبان عن قيس بن صعصعة- وليس له غيره- أنه قال: يا رسول الله فى كم أقرأ القرآن؟ قال: «**فى خمسة عشر**» قلت: إني أجدني أقوى من ذلك، قال: «**اقرأه فى جمعة**».

ويلي ذلك من ختم فى ثمان، ثم فى عشر، ثم فى شهر، ثم فى شهرين.

أخرج بن دؤاد عن مكحول قال: كان أقوياء أصحاب رسول الله ﷺ يقرءون القرآن فى سبع، وبعضهم فى شهر، وبعضهم فى شهرين، وبعضهم فى أكثر من ذلك.

وقال أبو الليث فى «البستان»: ينبغي للقارئ أن يختم فى السنة مرتين إن لم يقدر على الزيادة.

وقد روى الحسن بن زياد عن أبي حنيفة أنه قال: من قرأ القرآن فى كل سنة مرتين فقد أدى حقه، لأن النبي ﷺ عرض على جبريل فى السنة التي قبض فيها مرتين.

وقال غيره: يكره تأخير ختمه أكثر من أربعين يوماً بلا عذر. نص عليه أحمد،

لأن عبد الله بن عمر سأل النبي ﷺ: فى كم نختم القرآن؟ قال: «**فى أربعين يوماً**» رواه أبو داود.

وقال النووي فى «الأذكار»: المختار أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص، فمن كان يظهر له بدقيق الفكر لطائف ومعارف، فليقصر على قدر يحصل له معه كمال فهم ما يقرأ، وكذلك من كان مشغولاً بنشر العلم أو فصل الحكومات أو غير ذلك من مهمات الدين والمصالح العامة، فليقتصر على قدر لا يحصل بسببه إخلال بما هو مرصد له ولا فوات كماله، وإن لم يكن من هؤلاء المذكورين فليستكثر ما أمكنه، من غير خروج إلى حد الملل أو الهذرمة فى القراءة.

مسألة: نسيانه كبيرة، صرح به النووي فى «الروضة» وغيرها، لحديث أبي داود وغيره: «**عرضت عليَّ ذنوب أمتي فلم أر ذنباً أعظم من سورة من القرآن أو آية، أوتيها رجل ثم نسيها**». وروى أيضاً حديث: «**من قرأ القرآن ثم نسيه لقى الله يوم القيامة أجزم**». وفي الصحيحين: «**تعاهدوا القرآن فوالذي نفس محمد بيده لهو أشد تفلتاً من الإبل فى عقلها**».

مسألة: يستحب الوضوء لقراءة القرآن، لأنه أفضل الأذكار، وقد كان ﷺ يكره أن يذكر الله إلا على طهر، كما ثبت فى الحديث.

قال إمام الحرمين: ولا تكره القراءة للمحدث، لأنه صح أن النبي ﷺ كان يقرأ مع الحدث. قال فى «شرح المهذب»: وإذا كان يقرأ فعرضت له ريح أمسك عن القراءة حتى يستقيم خروجها. وأما الجنب والحائض فتحرم عليهما القراءة، نعم يجوز لها النظر فى المصحف وإمراره على القلب، وأما متنجس الفم فتكره له القراءة. وقيل: تحرم كمس المصحف باليد النجسة.

مسألة: وتسن القراءة فى مكان نظيف، وأفضله المسجد، وكره قوم القراءة فى الحمام والطريق، قال النووي: ومذهبنا لا تكره فيهما. قال: وكرهها الشعبي فى الحش وبيت الرحا وهي تدور، قال: وهو مقتضى مذهبنا.

مسألة: ويستحب أن يجلس مستقبلاً متخشعاً بسكينة ووقار، مطرقاً رأسه.

مسألة: ويسن أن يستاك تعظيماً وتطهيراً، وقد روى ابن ماجه عن عليّ موقوفاً والبزار بسند جيد عنه مرفوعاً: «**إن أفواهكم طرق للقرآن، فطيبوها بالسواك**» قلت: ولو قطع القراءة وعاد عن قرب فمقتضى استحباب التعوذ إعادة السواك أيضاً.

مسألة: ويسن التعوذ قبل القراءة، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ (النحل: ٩٨) أي أردت قراءته.

وذهب قوم إلى وجوبها، لظاهر الأمر قال النووي: فلو مر على قوم سلم عليهم وعاد إلى القراءة، فإن أعاد التعوذ كان حسناً.

قال: وصفته المختارة (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)، وكان جماعة من السلف يزيدون (السميع العليم). انتهى.

وعن حمزة: أستعيذ ونستعيذ واستعذت، واختاره صاحب «الهداية» من الحنفية لمطابقة لفظ القرآن.

وعن حميد بن قيس: (أعوذ بالله القادر، من الشيطان الغادر).

وعن أبي الشمال: (أعوذ بالله القوى من الشيطان الغوي).

وعن قوم: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إن الله هو السميع العليم)، وفيها ألفاظ أخر.

قال الحلواني فى «جامعه»: ليس للاستعاذة حد ينتهي إليه، من شاء زاد ومن شاء نقص، وفي «النشر» لابن الجزري: المختار عند أئمة القراءة الجهر بها، وقيل: يسر مطلقاً وقيل: فيما عدا الفاتحة.

قال: وقد أطلقوا اختيار الجهر. وقيد أبو شامة بقيد لابد منه، وهو أن يكون بحضرة من يسمعه. قال: لأن الجهر بالتعوذ إظهار شعار القراء كالجهر بالتلبية وتكبيرات العيد، ومن فوائده أن السامع ينصت للقراءة من أولها لا يفوته منها

شيء، وإذا أخفى التعوذ لم يعلم السامع بها إلا بعد أن فاته من المقروء شيء، وهذا المعنى هو الفارق بين القراءة فى الصلاة وخارجها.

قال: واختلف المتأخرون فى المراد بإخفائها، فالجمهور على أن المراد به الإسرار، فلابد من التلفظ وإسماع نفسه، وقيل الكتمان بأن يذكرها بقلبه بلا تلفظ.

قال: وإذا قطع القراءة عرضاً أو بكلام أجنبي - ولو رد السلام - استأنفها أو يتعلق بالقراءة فلا. قال: وهل هي سنة كفاية أو عين حتى لو قرأ جماعة جملة، فهل يكفي استعاذة واحد منهم، كالتسمية على الأكل أو لا؟

لم أر فيها نصاً، والظاهر الثاني، لأن المقصود اعتصام القارئ والتجاؤه بالله من شر الشيطان، فلا يكون تعوذ واحد كافياً عن آخر. انتهى كلام ابن الجزرى.

مسألة: وليحافظ على قراءة البسملة أول كل سورة، غير براءة، لأن أكثر العلماء على أنها آية. فإذا أخلَّ بها كان تاركاً لبعض الختمة عند الأكثرين، فإن قرأ من أثناء سورة استحب له أيضاً، نص عليه الشافعي فيما نقله العبادي، قال الفراء: ويتأكد عند قراءة نحو: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ (فصلت: ٤٧) أو ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ﴾ (الأنعام: ١٤١) لما فى ذكر ذلك بعد الاستعاذة من البشاعة، وإيهام رجوع الضمير إلى الشيطان.

قال ابن الجزرى: الابتداء بالآي وسط براءة أقل من تعرض له، وقد صرح بالبسملة فيه أبو الحسن السخاوي، ورد عليه الجعبري.

مسألة: لا تحتاج قراءة القرآن إلى نية كسائر الأذكار إلا إذا نذرها خارج الصلاة، فلابد من نية النذر أو الفرض ولو عيَّن الزمان فلو تركها لم تجز - نقله القمولي فى الجواهر.

مسألة: يسن الترتيل فى القرآن، قال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ (المزمل: ٤)، وروى أبو داود وغيره عن أم سلمة، أنها نعتت قراءة النبي ﷺ: «قراءة مفسرة، حرفاً حرفاً».

وفي البخاري عن أنس، أنه سئل عن قراءة رسول الله ﷺ فقال: «كانت مداً، ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم - يمد الله، ويمد الرحمن، ويمد الرحيم» وفي الصحيحين عن ابن مسعود، أن رجلاً قال: إني أقرأ المفصل فى ركعة واحدة، فقال: «هذًا كهذِّ الشعر، إن قوماً يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم ولكن إذا وقع فى القلب، فرسخ فيه نفع».

وأخرج الآجري فى «حملة القرآن» عن ابن مسعود قال: «لا تنثروه نثر الدقل، ولا تهذوه هذَّ الشعر، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكون همّ أحدكم آخر السورة».

وأخرج من حديث ابن عمر مرفوعاً: «**يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارقَ فى الدرجات، ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية كنت تقرؤها**». قال فى «شرح المهذب»: واتفقوا على كراهة الإفراط فى الإسراع.

قالوا: وقراءة جزء بترتيل أفضل من قراءة جزأين فى قدر ذلك الزمان بلا ترتيل.

قالوا: واستحباب الترتيل للتدبر، ولأنه أقرب إلى الإجلال والتوقير، وأشد تأثيراً فى القلب، ولهذا يستحب للأعجمي الذي لا يفهم معناه.اهـ.

وفي «النشر»: اختلف هل الأفضل الترتيل وقلة القراءة أو السرعة مع كثرتها؟ وأحسن بعض أئمتنا، فقال: إن ثواب قراءة الترتيل أجل قدراً، وثواب الكثرة أكثر عدداً، لأن بكل حرف عشر حسنات.

وفي «البرهان» للزركشي: كمال الترتيل تفخيم ألفاظه والإبانة عن حروفه، وألا يُدغَم حرفُ فى حرف. وقيل: هذا أقله، وأكمله أن يقرأه على منازله، فإن قرأ تهديداً لفظ به لفظ المتهدد، أو تعظيماً لفظ به على التعظيم.

مسألة: وتسن القراءة بالتدبر والتفهم، فهو المقصود الأعظم، والمطلوب الأهم، وبه تنشرح الصدور، وتستنير القلوب، قال تعالى: ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ

﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ (ص: ٢٩) وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ﴾ (النساء: ٨٢)، وصفة ذلك أن يشغل قلبه بالتفكر فى معنى ما يلفظ به، فيعرف معنى كل آية، ويتأمل الأوامر والنواهي، ويعتقد قبول ذلك، فإن كان مما قصر عنه فيما مضى اعتذر واستغفر، وإذا مر بآية رحمة استبشر وسأل، أو عذاب أشفق وتعوذ، أو تنزيه نزه وعظم، أو دعاء تضرع وطلب.

أخرج مسلم عن حذيفة قال: صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة، ثم النساء، فقرأها، ثم آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلاً إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ.

وروى أبو داود والنسائي وغيرهما، عن عوف بن مالك، قال: قمت مع النبي ﷺ ليلة، فقام فقرأ سورة البقرة لا يمر بآية رحمة إلا وقف وسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف وتعوذ.

وأخرج أبو داود والترمذي حديث: «من قرأ ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ﴾ (التين: ١) فانتهى إلى آخرها، فليقل: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين، ومن قرأ ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ (القيامة: ١) فانتهى إلى آخرها: ﴿أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ (القيامة: ٤٠) فليقل: بلى، ومن قرأ ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا﴾ (المرسلات: ١) فبلغ ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ﴾ (المرسلات: ٥٠) فليقل آمنا بالله».

وأخرج أحمد وأبو داود عن ابن عباس: «أن النبي ﷺ كان إذا قرأ ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ (الأعلى: ١)، قال: **«سبحان ربى الأعلى»**، وأخرج الترمذي والحاكم عن جابر قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه، فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا، فقال: «**لقد قرأتها على الجن فكانوا أحسن مردوداً منكم، كنت كلما أتيت على قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (الرحمن: ١٣) قالوا: ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد**».

أخرج ابن مردويه والديلمي وابن أبي الدنيا فى «الدعاء» وغيرهم بسند ضعيف

جداً، عن جابر أن النبي ﷺ قرأ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ (البقرة: ١٨٦)، فقال: «**اللهم أمرت بالدعاء وتكفلت بالإجابة، لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك، أشهد أنك فرد أحد صمد، لم تلد ولم تولد، ولم يكن لك كفواً أحد، وأشهد أن وعدك حق، ولقاءك حق، والجنة حق، والنار حق، والساعة آتية لا ريب فيها، وأنك تبعث من في القبور**».

وأخرج أبو داود وغيره عن وائل بن حجر، سمعت النبي ﷺ قرأ: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ (الفاتحة: ٧) فقال: (آمين) يمد بها صوته.

وأخرجه الطبراني بلفظ قال: آمين (ثلاث مرات). وأخرجه البيهقي بلفظ: قال: «**رب اغفر لي آمين**».

وأخرج أبو عبيد عن أبي ميسرة، أن جبريل لقن رسول الله ﷺ عند خاتمة البقرة (آمين).

وأخرج عن معاذ بن جبل أنه كان إذا ختم سورة البقرة قال: (آمين).

قال النووي: ومن الآداب إذا قرأ نحو: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ (التوبة: ٣٠)،﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ (المائدة: ٦٤) أن يخفض بها صوته، كذا كان النخعي يفعل.

مسألة:لا بأس بتكرير الآية وترديدها، روى النسائي وغيره عن أبي ذر، أن النبي ﷺ قام بآية يرددها حتى أصبح: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ (المائدة: ١١٨).

مسألة: يستحب البكاء عند قراءة القرآن، والتباكي لمن لا يقدر عليه، والحزن والخشوع، قال تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ (الإسراء: ١٠٩).

وفي «الصحيحين» حديث قراءة ابن مسعود على النبي ﷺ، وفيه: «فإذا عيناه تذرفان». وفيه من مرسل عبد الملك بن عمير، أن رسول الله ﷺ قال: «**إني قارئ**

عليكم سورة، فمن بكى فله الجنة، فإن لم تبكوا فتباكوا». وعن الطبراني: «**أحسن الناس قراءة من إذا قرأ القرآن يتحزن به**».

قال فى «شرح المهذب»: وطريقته فى تحصيل البكاء أن يتأمل ما يقرأ من التهديد والوعيد الشديد، والمواثيق والعهود، ثم يفكر فى تقصيره فيها، فإن لم يحضره عند ذلك حزن وبكاء، فليبكِ على فقد ذلك، فإنه من المصائب.

مسألة: يسن تحسين الصوت بالقراءة وتزيينها، لحديث ابن حبان وغيره: «**زينوا القرآن بأصواتكم**» وفي لفظ عند الدارمي: «**حسنوا القرآن بأصواتكم، فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسناً**». وأخرج البزار وغيره حديث: «**حسن الصوت زينة القرآن**».

وفيه أحاديث صحيحة كثيرة، فإن لم يكن حسن الصوت حسَّنه ما استطاع، بحيث لا يخرج إلى حد التمطيط.

وأما القراءة بالألحان، فنصَّ الشافعي فى «المختصر» أنه لا بأس بها، وعن رواية الربيع الجيزي: أنها مكروهة.

قال الرافعي: قال الجمهور ليست على قولين، بل المكروه أن يفرط فى المد، وفي إشباع الحركات، حتى يتولد من الفتحة ألف، ومن الضمة واو، ومن الكسرة ياء، أو يدغم فى غير موضع الإدغام، فإن لم ينته إلى هذا الحد فلا كراهة.

قال فى «زوائد الروضة»: والصحيح أن الإفراط على الوجه المذكور حرام يُفسَّق به القارئ ويأثم المستمع، لأنه عدل به عن نهجه القويم. قال: وهذا مراد الشافعي بالكراهة.

قلت: وفيه حديث: «**اقرءوا القرآن بلحون العرب وأصواتها، وإياكم ولحون الكتابيين وأهل الفسق، فإنه سيجيء أقوام يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والرهبانية، لا يجاوز حناجرهم، مفتونة قلوبهم وقلوب من يعجبهم شأنهم**» أخرجه الطبراني والبيهقي.

قال النووي: ويستحب طلب القراءة من حسن الصوت بالإصغاء إليها،

للحديث الصحيح. ولا بأس باجتماع الجماعة فى القراءة، ولا بإدارتها وهي أن يقرأ البعض قطعة ثم البعض قطعة بعدها.

مسألة: يستحب قراءته بالتفخيم، لحديث الحاكم: «**نزل القرآن بالتفخيم**». قال الحليمى: ومعناه أنه يقرؤه على قراءة الرجال، ولا يخضع الصوت فيه ككلام النساء قال: ولا يدخل فى هذا كراهة الإمالة التي هي اختيار بعض القراء، وقد يجوز أن يكون القرآن نزل بالتفخيم، فرخص مع ذلك فى إمالة ما يحسن إمالته.

مسألة: وردت أحاديث تقتضى استحباب رفع الصوت بالقراءة، وأحاديث تقتضى الإسرار وخفض الصوت، فمن الأول حديث الصحيحين: «**ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت، يتغنى بالقرآن**» يجهر به.

ومن الثاني حديث أبي داود والترمذي والنسائي: «**الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة، والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة**».

قال النووي: والجمع بينهما أن الإخفاء أفضل حيث خاف الرياء، أو تأذى مصلين أو نيام بجهره، والجهر أفضل فى غير ذلك، لأن العمل فيه أكثر، ولأن فائدته تتعدى إلى السامعين، ولأنه يوقظ قلب القارئ ويجمع همه إلى الفكر، ويصرف سمعه إليه، ويطرد النوم ويزيد فى النشاط، ويدل لجميع هذا حديث أبي داود بسند صحيح عن أبي سعيد: «اعتكف رسول الله ﷺ فى المسجد، فسمعهم يجهرون بالقراءة فكشف الستر، **وقال: ألا إن كلكم مناج ربه، فلا يؤذين بعضكم بعضاً، ولا يرفع بعضكم على بعض فى القراءة**».

وقال بعضهم: يستحب الجهر ببعض القراءة والإسرار ببعضها، لأن المسر قد يمل فيأنس بالجهر، والجاهر قد يكل فيستريح بالإسرار.

مسألة: القراءة فى المصحف أفضل من القراءة من حفظه؛ لأن النظر فيه عبادة مطلوبة، قال النووي: هكذا قال أصحابنا والسلف أيضاً، ولم أر فيه خلافاً، قال: ولو قيل إنه يختلف باختلاف الأشخاص فيختار القراءة فيه: فمن استوى خشوعه

وتدبره فى حالتى القراءة فيه، ومن الحفظ. ويختار القراءة من الحفظ كمن يكمل بذلك خشوعه ويزيد على خشوعه وتدبره لو قرأ فى المصحف لكان هذا قولاً حسناً.

قلت: ومن أدلة القراءة فى المصحف ما أخرجه الطبراني والبيهقي فى الشعب من حديث أوس الثقفي مرفوعاً: «**قراءة الرجل فى غير المصحف ألف درجة، وقراءته فى المصحف تضاعف على ذلك إلى ألفى درجة**».

وأخرج أبو عبيد بسند ضعيف: «فضل قراءة القرآن نظراً على من يقرؤه ظاهراً كفضل الفريضة على النافلة».

وأخرج البيهقي عن ابن مسعود مرفوعاً: «من سره أن يحب الله ورسوله فليقرأ فى المصحف» وقال: إنه منكر.

وأخرج بسند حسن موقوفاً: «أديموا النظر فى المصحف».

وحكى الزركشي فى «البرهان» ما بحثه النووي قولاً، وحكى معه قولاً ثالثاً: أن القراءة من الحفظ أفضل مطلقاً، وأن ابن عبد السلام اختاره، لأن فيه من التدبر ما لا يحصل بالقراءة فى المصحف.

مسألة:قال فى «التبيان»: إذا ارتج على القارئ فلم يدر ما بعد الموضع الذي انتهى إليه فسأل عنه غيره، فينبغي أن يتأدب بما جاء عن ابن مسعود والنخعي وبشير بن أبي مسعود، قالوا: إذا سأل أحدكم أخاه عن آية، فليقرأ ما قبلها ثم يسكت، ولا يقول كيف كذا وكذا،فإنه يلبس عليه.انتهى.

وقال ابن مجاهد: إذا شك القارئ فى حرف: هل بالتاء أو بالياء، فإن القرآن مذكر، وإن شك فى حرف: هل هو مهموز أو غير مهموز ؟ فليترك الهمز، وإن شك فى حرف: هل يكون موصولاً أو مقطوعاً؟ فليقرأ بالوصل، وإن شك فى حرف: هل هو ممدود أو مقصور؟ فليقرأ بالقصر، وإن شك فى حرف: هل هو مفتوح أو مكسور؟ فليقرأ بالفتح، لأن الأول غير لحن فى موضع، والثاني لحن فى بعض المواضع.

قلت: أخرج عبد الرزاق عن ابن مسعود قال: إذا اختلفتم فى ياء وتاء فاجعلوها ياء، ذكّروا القرآن، ففهم منه ثعلب أن ما احتمل تذكيره وتأنيثه كان تذكيره أجود، ورُدَّ بأنه يمتنع إرادة تذكير غير الحقيقي التأنيث، لكثرة ما فى القرآن منه بالتأنيث نحو: ﴿ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ (الحج: ٧٢)، ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ (القيامة:٢٩)﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ (إبراهيم: ١١)، وإذا امتنع إرادة غير الحقيقي فالحقيقي أولى.

قالوا: ولا يستقيم إرادة أن ما احتمل التذكير والتأنيث غلب فيه التذكير، كقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ﴾ (ق: ١٠) ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ (الحاقة: ٧)، فأنث مع جواز التذكير، قال تعالى: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ (القمر: ٢٠)، ﴿مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ﴾ (يس: ٨٠)، قالوا: فليس المراد منهم بـ (ذكّروا) الموعظة والدعاء كما قال تعالى:﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾ (ق: ٤٥) إلا أنه حذف الجار، والمقصود ذكروا الناس بالقرآن، أي ابعثوهم على حفظه كيلا ينسوه.

قلت: أول الأثر يأبى هذا الحمل.

وقال الواحدي: الأمر ما ذهب إليه ثعلب، والمراد أنه إذا احتمل اللفظ التذكير والتأنيث، ولم يحتج فى التذكير إلى مخالفة المصحف، نحو:﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ (البقرة: ٤٨) قال: ويدل على إرادة هذا أن أصحاب عبد الله من قراء الكوفة كحمزة والكسائي، ذهبوا إلى هذا، فقرءوا ما كان من هذا القبيل بالتذكير، نحو: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾ (النور: ٢٤) وهذا فى غير الحقيقي.

مسألة: يكره قطع القراءة لمكالمة أحد، قال الحليمي: لأن كلام الله لا ينبغي أن يؤثر عليه كلام غيره، وأيده البيهقي بما فى الصحيح «كان ابن عمر إذا قرأ القرآن لم يتكلم حتى يفرغ منه». ويكره أيضاً الضحك والعبث والنظر إلى ما يلهى.

مسألة:ولا يجوز قراءة القرآن بالعجمية مطلقاً، سواء أحسن العربية أم لا. فى الصلاة أم خارجها وعن أبي حنيفة أنه يجوز مطلقاً، وعن أبي يوسف ومحمد لمن لا

يحسن العربية، ولكن فى «شارح البزدوي»: أن أبا حنيفة رجع عن ذلك، ووجه المنع أنه يذهب إعجازه المقصود منه، وعن القفال من أصحابنا: أن القراءة بالفارسية لا تتصور، قيل له فإذن لا يقدر أحد أن يفسر القرآن، قال: ليس كذلك، لأن هناك يجوز أن يأتي ببعض مراد الله ويعجز عن البعض، أما إذا أراد أن يقرأه بالفارسية فلا يمكن أن يأتي بجميع مراد الله تعالى، لأن الترجمة إبدال لفظة بلفظة تقوم مقامها، وذلك غير ممكن، بخلاف التفسير.

مسألة: لا تجوز القراءة بالشاذ، نقل ابن عبد البر الإجماع على ذلك، لكن ذكر موهوب الجزري جوازها فى غير الصلاة، قياساً على رواية الحديث بالمعنى.

مسألة:الأولى أن يقرأ على ترتيب المصحف، قال فى «شرح المهذب»: لأن ترتيبه لحكمة، فلا يتركها إلا فيما ورد فيه الشرع، كصلاة صبح يوم الجمعة بـ﴿الٓمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ (السجدة: ١)، ﴿هَلۡ أَتَىٰ﴾ (الإنسان: ١) ونظائره، فلو فرَّق السور أو عكسها جاز وترك الأفضل.

قال: وأما قراءة السورة من آخرها إلى أولها فمتفق على منعه، لأنه يذهب بعض نوع الإعجاز، ويزيل حكمة الترتيب. قلت: وفيه أثر، أخرج الطبراني بسند جيد، عن ابن مسعود أنه سئل عن رجل يقرأ القرآن منكوساً، قال: ذاك منكوس القلب.

وأما خلط سورة بسورة فعدَّ الحليمى تركه من الآداب، لما أخرجه أبو عبيد عن سعيد بن المسيب أن رسول الله ﷺ مر ببلال وهو يقرأ من هذه السورة ومن هذه السورة، فقال: **«يا بلال مررت بك وأنت تقرأ من هذه السورة ومن هذه السورة»** قال: الطيب بالطيب، فقال: **«اقرأ السورة على وجهها»** أو قال: **«على نحوها»** مرسل صحيح، وهو عند أبي داود موصول عن أبي هريرة بدون آخره.

وأخرجه أبو عبيد من وجه آخر، عن عمر مولى غفرة، أن النبي ﷺ قال لبلال: **«إذا قرأت السورة فأنفذها»**.

وقال: حدثنا معاذ عن ابن عون، قال: سألت ابن سيرين عن الرجل يقرأ من

السورة آيتين ثم يدعها، ويأخذ فى غيرها. وقال: ليتقِ أحدكم أن يأثم إثماً كبيراً وهو لا يشعر.

وأخرج عن ابن مسعود قال: إذا ابتدأت فى سورة فأردت أن تتحول منها إلى غيرها فتحول إلى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ (الإخلاص: ١)، فإذا ابتدأت فيها فلا تتحول عنها حتى تختمها.

وأخرج عن ابن أبي الهذيل قال: كانوا يكرهون أن يقرءوا بعض الآية ويدعوا بعضها.

قال أبو عبيد: الأمر عندنا على كراهة قراءة الآيات المختلفة، كما أنكر رسول الله ﷺ على بلال، وكما كرهه ابن سيرين.

وأما حديث عبد الله فوجهه عندي أن يبتدئ الرجل فى السورة يريد إتمامها، ثم يبدو له فى أخرى، فأما من ابتدأ القراءة وهو يريد التنقل من آية إلى آية، وترك التأليف لآي القرآن، فإنما يفعله من لا علم له، لأن الله لو شاء لأنزله على ذلك.اهـ.

وقد نقل القاضي أبو بكر الإجماع على عدم جواز قراءة آية آية من كل سورة.

قال البيهقي: وأحسن ما يحتج به أن يقال: إن هذا التأليف لكتاب الله مأخوذ من جهة النبي ﷺ، وأخذه عن جبريل، فالأولى للقارئ أن يقرأه على التأليف المنقول. وقد قال ابن سيرين: تأليف الله خير من تأليفكم.

مسألة: قال الحليمي: يسن استيفاء كل حرف أثبته قارئ ليكون قد أتى على جميع ما هو قرآن. وقال ابن الصلاح والنووي: إذا ابتدأ بقراءة أحد من القراء فينبغي ألا يُزال على تلك القراءة ما دام الكلام مرتبطاً، فإذا انقضى ارتباطه، فله أن يقرأ بقراءة أخرى، والأولى دوامه على الأولى فى هذا المجلس. وقال غيرهما بالمنع مطلقاً.

قال ابن الجزري: والصواب أن يقال: إن كانت إحدى القراءتين مرتبة على الأخرى منع ذلك منع تحريم، كمن يقرأ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ (البقرة:٣٧)

برفعهما أو نصبهما، أخذ رفع ﴿ءَادَمُ﴾ من قراءة غير ابن كثير ورفع ﴿كَلِمَـٰتٍ﴾ من قراءته، ونحو ذلك مما لا يجوز فى العربية واللغة، وما لم يكن كذلك فرّق فيه بين مقام الرواية وغيرها، فإن كان على سبيل الرواية حرم أيضاً، لأنه كذب فى الرواية وتخليط، وإن كان على سبيل التلاوة جاز.

مسألة: يسن الاستماع لقراءة القرآن وترك اللغط والحديث بحضور القراءة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الأعراف: ٢٠٤).

مسألة: يسن السجود عند قراءة آية السجدة، وهى أربع عشرة: فى الأعراف، والرعد والنحل، والإسراء، ومريم، وفي الحج سجدتان، والفرقان، والنمل، ﴿الٓمٓ ۞ تَنزِيلُ﴾ (السجدة:١)، وفصلت، والنجم، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ (الانشقاق: ١)، ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ (العلق: ١)، وأما (ص) فمستحبة، وليست من عزائم السجود، أي متأكداته، وزاد بعضهم آخر الحجر. نقله ابن الفرس فى أحكامه.

مسألة: قال النووي: الأوقات المختارة للقراءة، أفضلها ما كان فى الصلاة ثم الليل ثم نصفه الأخير، وهى بين المغرب والعشاء محبوبة.

وأفضل النهار بعد الصبح، ولا تكره فى شيء من الأوقات لمعنى فيه، وأما ما رواه ابن أبي داود عن معاذ بن رفاعة عن مشايخه: أنهم كرهوا القراءة بعد العصر. وقالوا: هو دراسة يهود- فغير مقبول، ولا أصل له.

ويختار من الأيام يوم عرفة ثم الجمعة، ثم الاثنين والخميس، ومن الأعشار العشر الأخير من رمضان، والأول من ذى الحجة، ومن الشهور رمضان.

ويختار لابتدائه ليلة الجمعة، ولختمه ليلة الخميس، فقد روى ابن أبي داود، عن عثمان بن عفان، أنه كان يفعل ذلك.

والأفضل الختم أول النهار أو أول الليل، لما رواه الدارمي بسند حسن عن سعد بن أبي وقاص: قال: إذا وافق ختم القرآن أول الليل صلت عليه الملائكة

حتى يصبح، وإن وافق ختمه أول النهار صلت عليه الملائكة حتى يمسى.

قال فى الإحياء: ويكون الختم أول النهار فى ركعتي الفجر، وأول الليل فى ركعتي سنة المغرب.

مسألة: وعن ابن المبارك، يستحب الختم فى الشتاء أول الليل، وفي الصيف أول النهار.

مسألة:يسن صوم يوم الختم، وأخرجه ابن أبي داود عن جماعة التابعين، وأن يحضر أهله وأصدقاءه.

أخرج الطبراني عن أنس: أنه كان إذا ختم القرآن جمع أهله ودعا.

وأخرج ابن أبي داود عن الحكم بن عتيبة، قال: أرسل إليَّ مجاهد وعنده ابن أمامة، وقالا: إنا أرسلنا إليك لأنا أردنا أن نختم القرآن، والدعاء يستجاب عند ختم القرآن.

وأخرج عن مجاهد قال: كانوا يجتمعون عند ختم القرآن، ويقول: عنده تنزل الرحمة.

مسألة: يستحب التكبير من الضحى إلى آخر القرآن، وهي قراءة المكيين.

أخرج البيهقي فى «الشعب» وابن خزيمة من طريق ابن بزة سمعت عكرمة بن سليمان قال: قرأت على إسماعيل بن عبد الله المكي، فلما بلغت الضحى قال: كبر حتى تختم، فإني قرأت على عبد الله بن كثير، فأمرني بذلك، وقال: قرأت على مجاهد فأمرني بذلك.

وأخبر مجاهد، أنه قرأ علي ابن عباس، فأمره بذلك.

وأخبر ابن عباس أنه قرأ على أُبيّ بن كعب، فأمره بذلك كذا أخرجناه موقوفاً، ثم أخرجه البيهقي من وجه آخر عن ابن بزة مرفوعاً وأخرجه من هذا الوجه - أعنى المرفوع - الحاكم فى مستدركه، وصححه، وله طرق كثيرة عن البزي.

وعن موسى بن هارون قال: قال لي البزي: قال لي محمد بن إدريس الشافعي:

إن تركت التكبير فقدت سنة من سنن نبيك. قال الحافظ عماد الدين بن كثير: وهذا يقتضي تصحيحه للحديث.

وروى أبو العلاء الهمداني عن البزي: أن الأصل في ذلك أن النبي ﷺ انقطع عنه الوحي، فقال المشركون: قلا محمداً ربُّه، فنزلت سورة الضحى، فكبر النبي ﷺ.

قال ابن كثير: ولم يرو ذلك بإسناد يحكم عليه بصحة ولا ضعف.

وقال الحليمي: نكتة التكبير التشبيه للقراءة بصوم رمضان إذا أكمل عدته يكبر، فكذا هنا يكبر إذا أكمل عدة السورة، قال: وصفته أن يقف بعد كل سورة وقفة، ويقول: الله أكبر.

وكذا قال سليم الرازي من أصحابنا في تفسيره: يكبر بين كل سورتين تكبيرة، ولا يصل آخر السورة بالتكبير، بل يفصل بينهما بسكتة. قال السيوطي: ومن لا يكبر من القراء، يحتجون أن في ذلك ذريعة إلى الزيادة في القرآن إن يداوم عليه، فيتوهم أنه منه.

وفي «النشر»: اختلف القراء في ابتدائه، هل هو من أول الضحى أو من آخرها؟ وفي انتهائه: هل هو أول سورة الناس أو آخرها ؟ وفي وصله بأولها أو آخرها وقطعه، والخلاف في الكل مبني على أصل، وهو أنه: هل هو لأول السورة أو لآخرها، وفي لفظه فقيل: الله أكبر، وقيل: لا إله إلا الله والله أكبر، وسواء في التكبير في الصلاة وخارجها، صرح به السخاوي وأبو شامة.

مسألة: يسن الدعاء عقب الختم، لحديث الطبراني وغيره عن العرباض بن سارية مرفوعاً: **«من ختم القرآن فله دعوة مستجابة»**.

وفي «الشعب» من حديث أنس مرفوعاً: **«من قرأ القرآن، وحمد الرب، وصلى على النبي ﷺ واستغفر ربه، فقد طلب الخير مكانه»**، ويسن إذا فرغ من الختمة أن يشرع في أخرى عقب الختم لحديث الترمذي وغيره: **«أحب الأعمال إلى الله الحال المرتحل، الذي يضرب من أول القرآن إلى آخره، كلما حل ارتحل»**.

وأخرج الدارمي بسند حسن، عن ابن عباس، عن أبيّ بن كعب: أن النبي ﷺ كان إذا قرأ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ (الناس: ١) افتتح من الحمد، ثم قرأ من البقرة إلى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (البقرة: ٥) ثم دعا بدعاء الختمة، ثم قام.

مسألة: عن الإمام أحمد، أنه منع تكرير سورة الإخلاص عند الختم، لكن عمل الناس على خلافه، قال بعضهم: والحكمة فيه ما ورد أنها ثلث القرآن، فيحصل بذلك ختمة.

فإن قيل: فكان ينبغي أن تقرأ أربعاً ليحصل له ختمتان، قلنا: المقصود أن يكون على يقين من حصول ختمة، إما التي قرأها، وإما التي حصل ثوابها بتكرير السورة. انتهى.

قلت: وحاصل ذلك يرجع إلى جَبْر ما لعله حصل فى القراءة من خلل، وكما قاس الحليمي التكبير عند الختم على التكبير عند إكمال رمضان، فينبغي أن يقاس تكرير سورة الإخلاص على إتباع رمضان بست من شوال.

مسألة:يكره اتخاذ القرآن معيشة يتكسب بها، وأخرج الآجرى من حديث عمران بن الحصين مرفوعاً: **«من قرأ القرآن، فليسأل الله به، فإنه سيأتي قوم يقرءون القرآن يسألون الناس به»**.

وروى البخاري فى «تاريخه الكبير» بسند صالح حديث: **«من قرأ القرآن عند ظالم ليرفع منه، لعن بكل حرف عشر لعنات»**.

مسألة: يكره أن يقول: نسيت آية كذا، بل أُنسيتها، لحديث الصحيحين فى النهي عن ذلك.

مسألة: يقول الإمام السيوطي: الأئمة الثلاثة على وصول ثواب القراءة للميت، ومذهبنا خلافه، لقوله تعالى:﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ (النجم: ٣٩)، والله أعلم.

وأقول - والله أعلم -: إن المجمع عليه فى وصول ثوابه إلى الميت هو الصدقة، وأما ثواب القراءة فكما تقدم فيه الخلاف لأن ثواب القراءة للقارئ، لحديث: **«اقرءوا القرآن، فإن الله يأجركم بكل حرف عشر حسنات ...»** الحديث.

فصل
فى مشكله وموهم الاختلاف والتناقض

أفرد هذا الباب بالتصنيف قطرب، والمراد به ما يوهم التعارض بين الآيات، وكلامه تعالى منزه عن ذلك، كما قال: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ٨٢) ولكن قد يقع للمبتدئ ما يوهم اختلافاً وليس به فى الحقيقة، فاحتيج لإزالته، كما صنف فى مختلف الحديث، وبيان الجمع بين الأحاديث المتعارضة، وقد تكلم فى ذلك ابن عباس وحكى عنه التوقف فى بعضها.

قال عبد الرزاق فى تفسيره: أنبأنا معمر، عن رجل، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، قال: جاء رجل إلى ابن عباس، فقال: رأيت أشياء تختلف علىَّ من القرآن. فقال ابن عباس: ما هو؟ أشك؟ قال: ليس بشك، ولكنه اختلاف، قال: هات ما اختلف عليك من ذلك. قال: أسمع الله يقول: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام: ٢٣)، وقال: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ (النساء: ٤٢) فقد كتموا. وأسمعه يقول: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ (المؤمنون: ١٠١)، ثم قال: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ (الصافات: ٢٧)، وقال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ (فصلت: ٩) حتى بلغ ﴿طَآئِعِينَ﴾ (فصلت: ١١) ثم قال فى الآية الأخرى: ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾ (النازعات: ٢٧)، ثم قال: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ (النازعات: ٣٠).

ثم قال ابن عباس: أما قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام: ٢٣) فإنهم لما رأوا يوم القيامة، وأن الله يغفر الذنوب ولا يغفر شركاً، ولا يتعاظمه ذنب أن يغفره، جحده المشركون رجاء أن يغفر لهم، فقالوا: والله ربنا ما كنا مشركين. فختم الله على أفواههم فتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، عند ذلك يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً.

وأما قوله: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ (المؤمنون: ١٠١) فإنه إذا نفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله، فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون، ثم نفخ فيه أخرى، فإذا هم قيام ينظرون، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون.

وأما قوله: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ (فصلت: ٩) فإن الأرض خلقت قبل السماء، وكانت السماء دخاناً فسواهن سبع سموات فى يومين بعد خلق الأرض.

وأما قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ (النازعات: ٣٠) يقول: جعل فيها جبلاً وجعل فيها نهراً وجعل فيها شجراً وجعل فيها بحوراً.

أما قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ (النساء: ١٧) فإن الله كان ولم يظل كذلك، وهو كذلك عزيز حكيم عليم قدير لم يزل كذلك، فما اختلف عليك من القرآن فهو يشبه ما ذكرت لك، وإن الله لم ينزل شيئاً إلا وقد أصاب الذي أراد، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

أخرجه بطوله الحاكم فى «المستدرك» وصححه، وأصله فى الصحيحين، قال ابن حجر فى شرحه: حاصل ما فيه السؤال عن أربعة مواضع:

الأول: نفي المسألة يوم القيامة وإثباتها.

الثاني: كتمان المشركين حالهم وإفشاؤه.

الثالث: خلق الأرض أو السماء أيهما تقدم.

الرابع: الإتيان بحرف (كان) الدالة على المضي، مع أن الصفة لازمة.

وحاصل جواب ابن عباس عن الأول: أن نفي المساءلة فيما قبل النفخة الثانية، وإثباتها فيما بعد ذلك، وعن الثاني: أنهم يكتمون بألسنتهم فتنطق أيديهم وجوارحهم، وعن الثالث: أنه بدأ خلق الأرض فى يومين غير مدحوة، ثم خلق السموات فسواهن فى يومين، ثم دحا الأرض بعد ذلك، وجعل فيها الرواسي وغيرها فى يومين، فتلك أربعة أيام للأرض وعن الرابع: بأن (كان) وإن كانت

للمضي لكنها لا تستلزم الانقطاع، بل المراد أنه لم يزل كذلك.

فأما الأول فقد جاء فيه تفسير آخر: أن نفي المساءلة عند تشاغلهم بالصعق والمحاسبة والجواز على الصراط، وإثباتها فيما عدا ذلك. وهذا منقول عن السدى، أخرجه ابن جرير من طريق عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس: أن نفى المساءلة عند النفخة الأولى، وإثباتها بعد النفخة الثانية.

وقد تأول ابن مسعود نفى المساءلة على معنى آخر، وهو طلب بعضهم من بعض العفو. فأخرج ابن جرير عن طريق زاذان قال: أتيت ابن مسعود، فقال: يؤخذ بيد العبد يوم القيامة، فينادى: ألا إن هذا فلان، فمن كان له حق قِبَله فليأتِ. قال: فتود المرأة يومئذ أن يثبت لها حق على أبيها أو ابنها أو أخيها أو زوجها، فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون. ومن طريق أخرى قال: لا يسأل أحد يومئذ بنسب شيئاً، ولا يتساءلون، ولا يمتّ برحم.

وأما الثاني: فقد ورد بأبسطه منه فيما أخرجه ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم عن نافع بن الأزرق أتى ابن عباس فقال: قول الله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ (النساء: ٤٢)، وقوله: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام: ٢٣). فقال: إنى أحسبك قمت من عند أصحابك فقلت لهم آتى ابن عباس ألقى عليه متشابه القرآن، فأخبرهم أن الله إذا جمع الناس يوم القيامة قال المشركون: إن الله لا يقبل إلا ممن وحده فيسألهم فيقولون: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام:٢٣) قال: فيختم على أفواههم وتستنطق جوارحهم.

ويؤيده ما أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة فى أثناء حديث، وفيه : «**ثم يلقى الثالث فيقول: يا رب آمنت بك وبكتابك وبرسولك، ويثنى ما استطاع، فيقول: الآن نبعث شاهداً عليك فيذكر فى نفسه: من الذي يشهد عليَّ؟ فيختم على فيه وتنطق جوارحه**».

أما الثالث: ففيه أجوبة أخرى منها أن (ثم) بمعنى الواو فلا إيراد، وقيل: المراد ترتيب الخبر لا المخبر به كقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ (البلد: ١٧)،

وقيل: على بابها وهى للتعارف فى ما بين الخلقين، لا للتراخي فى الزمان. وقيل: خلقه بمعنى قدر.

وأما الرابع: وجواب ابن عباس عنه فيحتمل كلامه أنه أراد أنه سمى نفسه غفوراً رحيماً، وهذه التسمية مضت، لأن التعليق انقضى، وأما الصفتان فلا تزالان كذلك لا ينقطعان، لأنه تعالى إذا أراد المغفرة أو الرحمة فى الحال أو الاستقبال وقع مراده. قاله الشمس الكرماني.

قال: ويحتمل أن يكون ابن عباس أجاب بجوابين، أحدهما: أن التسمية هي التي كانت وانتهت، والصفة لا نهاية لها. والآخر: أن معنى (كان) الدوام، فإنه لا يزال كذلك. ويحتمل أن يحمل السؤال على مسلكين والجواب على دفعهما، كأن يقال: هذا اللفظ مشعر بأنه فى الزمان الماضي كان غفوراً رحيماً، مع أنه لم يكن هناك من يغفر له أو يرحم، وبأنه ليس فى الحال كذلك لما يُشعر به لفظ كان، والجواب عن الأول بأن (كان) فى الماضي تسمى به، وعن الثاني بأن (كان) تعطى معنى الدوام، فقد قال النحاة: كان لثبوت خبرها ماضياً دائماً أو منقطعاً.

وقد أخرج ابن أبي حاتم من وجه آخر عن ابن عباس: أن يهودياً قال له: إنكم تزعمون أن الله كان عزيزاً حكيماً فكيف هو اليوم؟ فقال: إنه كان فى نفسه عزيزاً حكيماً، ومعناه أنه كان ولا زال.

وهناك موضع آخر توقف فيه ابن عباس، قال أبو عبيدة: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، عن أيوب عن ابن أبي مليكة، قال: سأل رجل ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (السجدة: ٥)، وقوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (المعارج: ٤) فقال ابن عباس: هما يومان ذكرهما الله تعالى فى كتابه، الله أعلم بهما.

وأخرج ابن أبي حاتم من هذا الوجه، وزاد: ما أدرى ما هما؟ وأكره أن أقول فيهما ما لا أعلم. قال ابن أبي مليكة: فضرب الدهر حتى دخلنا على سعيد بن

المسيب، فسئل عن ذلك: فلم يدر ما يقول، فقلت له: ألا أخبرك بما حضرت عن ابن عباس فأخبرته، فقال ابن المسيب للسائل: هذا ابن عباس قد اتقى أن يقول فيهما وهو أعلم مني.

وروى عن ابن عباس أيضاً أن يوم الألف هو مقدور سير الأمر وعروجه إليه ويوم الألف فى سورة الحج هو أحد الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض، ويوم الخمسين ألفاً هو يوم القيامة.

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق سماك: عن عكرمة، عن ابن عباس أن رجلاً قال له: حدثني ما هؤلاء الآيات: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (المعارج: ٤) ، ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (السجدة: ٥)، ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (الحج: ٤٧).

فقال: يوم القيامة حساب خمسين ألف سنة، والسموات فى ستة أيام كل يوم يكون ألف سنة ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ قال: ذلك مقدار المسير. وذهب بعضهم إلى أن المراد بهما يوم القيامة، وأنه باعتبار حال المؤمن والكافر، بدليل قوله﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ (المدثر: ٩-١٠).

وقد قال الزركشي فى «البرهان»: للاختلاف أسباب:

أحدها: وقوع المخبر به على أنواع مختلفة وتطويرات شتى، كقوله فى خلق آدم ﴿مِن تُرَابٍ﴾ (آل عمران: ٥٩)، ومرة ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ (الحجر: ٢٦)، ومرة ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ (الصافات: ١١) ومرة ﴿مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ (الرحمن: ١٤) فهذه ألفاظ مختلفة ومعانيها فى أحوال مختلفة؛ لأن الصلصال غير الحمأ، والحمأ غير التراب إلا أن مرجعها كلها إلى جوهر واحد، وهو التراب، ومن التراب تدرجت هذه الأحوال، وكذا قوله: ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ (الأعراف: ١٠٧)، وفي موضع:

﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ والجان: الصغير من الحيات، والثعبان الكبير منهـا، وذلـك لأن خلقها خلق الثعبان العظيم واهتزازها وحركتها وخفتها كاهتزازه وخفته.

الثـاني: اخـتلاف الموضـع، كقولـه تعـالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ (الصافات: ٢٤)، ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (الأعراف: ٦) مع قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ (الرحمن: ٣٩).

قال الحليمي: فتحمل الآية الأولى على السؤال عن التوحيد وتصـديق الرسـل، والثانية على ما يستلزمه الإقرار بالنبوات فى شرائع الدين وفروعـه، وحملـه غـيره على اختلاف الأماكن، لأن فى القيامة مواقف كـثيرة، ففـي موضـع يسـألون، وفي آخر لا يسألون، وقيل: إن السؤال المثبت سـؤال تبكيـت وتـوبيخ، والمنفـي سـؤال المقدرة وبيان الحجة.

الثالث: لاختلافها فى جهـتي الفعـل، كقولـه: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ (الأنفـال: ١٧)، ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ (الأنفـال: ١٧) أضيف القتل إليهم والرمي إليه على جهة الكسب والمباشرة، ونفاه عنهم وعنه باعتبار التأثير.

الرابع: لاختلافها فى الحقيقة والمجاز، كقوله تعـالى: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ (الحج: ٢) أي سكارى من الأهوال مجازاً لا من الشراب حقيقة.

الخامس: تـوجهين واعتبـارين، كقولـه: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (ق: ٢٢) مـع قـوله: ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ (الشـورى: ٤٥)، قـال قطـرب: (فبصرك) أي علمك ومعرفتك بها قوى، من قولهم بصـر بكـذا أي علـم، ولـيس المراد رؤية العين، قال الفارس: ويدل على ذلك قولـه: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ (ق: ٢٢)، والله أعلم.

فائدة: قال الكرماني عند قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ

ﭐﺧۡﺘِﻠَٰﻔٗﺎ ﻛَﺜِﻴﺮٗا﴾ (النساء: ٨٢) الاختلاف على وجهين: اختلاف تناقض وهو ما يدعو فيه أحد الشيئين إلى خلاف الآخر، وهذا هو الممتنع على القرآن.

واختلاف تلازم وهو ما يوافق الجانبين كاختلاف مقادر السور والآيات، واختلاف الأحكام من الناسخ والمنسوخ، والأمر والنهى، والوعد والوعيد، والله أعلم.

فصل
فى مناسبة الآيات والسور

أفرد هذا الباب بالتأليف العلامة أبو جعفر ابن الزبير شيخ أبي حيان فى كتاب سماه (البرهان فى مناسبة ترتيب سور القرآن) ومن أهل العصر الشيخ برهان الدين البقاعى فى كتاب سماه (نظم الدرر فى تناسب الآى والسور) يقول السيوطي: وكتابي الذي وضعته فى أسرار التنزيل كافل بذلك، جامع لمناسبات السور والآيات، مع ما تضمنه من بيان وجوه الإعجاز وأساليب البلاغة، وقد لخصت منه مناسبات السور، خاصة فى جزء لطيف، سميته (تناسق الدرر فى تناسب السور).

وعلم المناسبة علم شريف، قل اعتناء المفسرين به لدقته، وممن أكثر فيه الإمام فخر الدين، وقال فى «تفسيره»: أكثر لطائف القرآن مودعة فى الترتيبات والروابط.

وقال ابن العربي فى «سراج المريدين»: ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة، منسقة المباني، منتظمة المعاني، علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة، ثم فتح الله لنا فيه، فلما لم نجد له حملة، ورأينا الخلق بأوصاف البطلة، ختمنا عليه، وجعلناه بيننا وبين الله، ورددناه إليه.

وقال غيره: أول من أظهر علم المناسبة الشيخ أبو بكر النيسابوري، وكان غزير العلم فى الشريعة والأدب، وكان يقول على الكرسي إذا قرئ عليه: لم جعلت هذه الآية إلى جانب هذه؟ وما الحكمة فى جعل هذه السورة إلى جانب هذه السورة؟ وكان يزرى على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة.

وقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: المناسبة علم حسن، لكن يشترط فى حسن ارتباط الكلام أن يقع فى أمر متَّحدٍ مرتبط أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط، ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه، إلا بربط ركيك، يصان عن مثله حسن الحديث، فضلاً عن أحسنه، فإن القرآن نزل فى نيف وعشرين سنة، فى أحكام مختلفة، شرعت لأسباب مختلفة، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض.

وقال الشيخ ولى الدين الملوي: قد وهم من قال: لا يطلب للآي الكريمة مناسبة، لأنها على حسب الوقائع المفرَّقة، وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلاً، وعلى حسب الحكمة ترتيباً وتأصيلاً فالمصحف على وفق ما فى اللوح المحفوظ، مرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيت، كما أنزل جملة إلى بيت العزة، ومن العجز البين أسلوبه ونظمه الباهر.

والذي ينبغي فى كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها أو مستقلة، ثم المستقلة، ما وجه مناسبتها لما قبلها؟ ففى ذلك علم جم، وهكذا فى السور، يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له. انتهى.

وقال الإمام الرازي فى سورة البقرة: ومن تأمل فى لطائف نظم هذه السورة، وفي بدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه، وشرف معانيه، فهو أيضاً بسبب ترتيبه ونظم آياته، ولعل الذين قالوا: إنه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك، إلا أنى رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف غير منتبهين لهذه الأسرار، وليس الأمر فى هذا الباب إلا كما قيل:

والنَّجمُ تَسْتصغرُ الأبْصَارُ صُورتَه والذَّنْبُ للطَّرْفِ لا للنَّجْمِ فى الصِّغَرِ

فصل

المناسبة فى اللغة المشاكلة والمقاربة، ومرجعها فى الآيات ونحوها إلى معنى رابط بينها، عام أو خاص، عقلي أو حسي أو خيالي، أو غير ذلك من أنواع العلاقات

أو التلازم الذهني، كالسبب والمسبب، والعلة والمعلول، والنظيرين، والضدين، ونحو ذلك.

وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التآلف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء، فنقول: ذكر الآية بعد الأخرى إما أن يكون ظاهر الارتباط، بتعلق الكلم بعضه ببعض، وعدم تمامه بالأولى فواضح. وكذلك إذا كانت الثانية للأولى على وجه التأكيد أو التفسير أو الاعتراض أو البدل وهذا القسم لا كلام فيه.

وأما ألا يظهر الارتباط، بل يظهر أن كل جملة مستقلة عن الأخرى، وأنها خلاف النوع المبدوء به. فإما أن تكون معطوفة على الأولى بحرف من حروف العطف المشتركة فى الحكم أو لا، فإن كانت معطوفة فلابد أن يكون بينهما جهة جامعة على ما سبق تقسيمه، كقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ (سبأ: ٢)، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة: ٢٤٥)، للتضاد بين القبض والبسط، والولوج والخروج، والنزول والعروج، وشبه التضاد بين السماء والأرض.

ومما الكلام فيه التضاد ذكر الرحمة بعد ذكر العذاب، والرغبة بعد الرهبة، وقد جرت عادة القرآن إذا ذكر أحكاماً ذكر بعدها وعداً ووعيداً ليكون باعثاً على العمل بما سبق، ثم يذكر آيات توحيد وتنزيه ليعلم عظم الآمر، وتأمل سورة البقرة والنساء والمائدة تجده كذلك.

وإن لم تكن معطوفة، فلابد من دعامة تؤذن باتصال الكلام، وهى قرائن معنوية تؤذن بالربط وله أسباب:

أحدها التنظير: فإن إلحاق النظير بالنظير من شأن العقلاء، كقوله: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ (الأنفال: ٥) عقب قوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ (الأنفال: ٤) فإنه تعالى أمر رسوله أن يمضى لأمره فى خروجه من بيته لطلب

العير أو للقتال وهم له كارهون، والقصد أن كراهتهم لما فعله من قسمة الغنائم كراهتهم للخروج، وقد تبين في الخروج الخير من الظفر والنصر والغنيمة وعز الإسلام. فكذا يكون فيما فعله في القسمة فليطيعوا ما أمروا به، ويتركوا هوى أنفسهم.

الثاني: المضادة: كقوله في سورة البقرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ﴾ (البقرة: ٦) فإن أول السورة كان حديثاً عن القرآن، وإن من شأنه الهداية للقوم الموصوفين بالإيمان، فلما أكمل وصف المؤمنين عقَّب بحديث الكافرين، فبينهما جامع وهمي بالتضاد من هذا الوجه، وحكمته التشويق والثبوت على الأول كما قيل: (وبضدها تتبين الأشياء).

فإن قيل: هذا جامع بعيد، لأن كونه حديثاً عن المؤمنين بالعرض لا بالذات، والمقصود بالذات الذي هو مساق الكلام إنما هو الحديث عن القرآن لأنه مفتتح القول.

قيل: لا يشترط في الجامع ذلك، بل يكفي التعلق على أي وجه كان، ويكفي في وجه الربط ما ذكرنا، لأن القصد تأكيد أمر القرآن والعمل به، والحث على الإيمان، ولهذا لما فرغ من ذلك قال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ (البقرة: ٢٣) فرجع إلى الأول.

الثالث: الاستطراد: كقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ (الأعراف: ٢٦)، قال الزمخشري: هذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقب ذكر بدو السوءات وخصف الورق عليهما إظهاراً للمنة فيما خلق من اللباس، ولما في العرى وكشف العورة من المهانة والفضيحة، وإشعاراً بأن الستر باب عظيم من أبواب التقوى.

وقد خرجت على الاستطراد الآية في قوله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ (النساء: ١٧٢). فإن أول الكلام ذكر للرد على النصارى الزاعمين نبوة المسيح، ثم استطرد للرد على العرب الزاعمين نبوة الملائكة.

ويقرب من الاستطراد حتى لا يكادا يفترقان حسنُ التخلص، وهو أن ينتقل مما ابتدئ به الكلام إلى المقصود، على وجه سهل، يختلسه اختلاساً، دقيق المعنى، بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع عليه الثاني، لشدة الالتئام بينهما، وقد غلط أبو العلاء محمد بن غانم فى قوله: لم يقع منه فى القرآن شيء لما فيه من التكلف. وقال: إن القرآن إنما ورد على الاقتضاب، الذي هو طريقة العرب من الانتقال إلى غير ملائم. وليس كما قال، ففيه من التخلصات العجيبة ما يحير العقول.

وانظر إلى سورة الأعراف، كيف ذكر فيها الأنبياء والقرون الماضية والأمم السالفة، ثم ذكر موسى، وإلى أن قص حكاية السبعين رجلاً ودعاءه لهم، ولسائر أمته بقوله: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ (الأعراف: ١٥٦)، وجوابه تعالى عنه، ثم تخلص بمناقب سيد المرسلين بعد تخليصه لأمته بقوله: ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٦) من صفاتهم كيت وكيت، وهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ﴾ (الأعراف: ١٥٧) وأخذ فى صفاته الكريمة وخصائله.

وفي سورة الشعراء حكى قول إبراهيم: ﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ﴾ فتخلص منه إلى وصف المعاد بقوله: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ﴾ (الشعراء: ٨٧-٨٨). وفي سورة الكهف حكى قولة ذي القرنين فى السد بعد دكه الذي هو من أشراط الساعة، ثم النفخ فى الصور، وذكر الحشر، ووصف مآل الكفار والمؤمنين.

وقال بعضهم: الفرق بين التخلص والاستطراد أنك فى التخلص تركت ما كنت فيه بالكلية، وأقبلت على ما تخلصت إليه وفى الاستطراد تمر بذكر الأمر الذي استطردت إليه مروراً كالبرق الخاطف، ثم تتركه وتعود إلى ما كنت فيه كأنك لم تقصده، وإنما عرض عروضاً.

قيل: وبهذا يظهر أن ما فى سورتي الأعراف والشعراء من باب الاستطراد لا التخلص، لعوده فى الأعراف إلى قصة موسى بقوله: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٩) إلى آخره، وفي الشعراء إلى ذكر الأنبياء والأمم.

ويقرب من حسن التخلص الانتقالُ من حديث إلى آخر تنشيطاً للسامع، مفصولاً بهذا كقوله فى سورة (ص) بعد ذكر الأنبياء: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ (ص: ٤٩). فإن هذا القرآن نوع من الذكر، لما انتهى ذكر الأنبياء، وهو نوع من التنزيل أراد أن يذكر نوعاً آخر وهو ذكر الجنة وأهلها، ثم لما فرغ قال: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ (ص: ٥٥)، فذكر النار وأهلها.

قال ابن الأثير: هذا فى هذا المقام من الفصل الذي هو أحسن من الوصل وهي علاقة أكيدة بين الخروج من كلام إلى آخر، ويقرب منه أيضاً حسنُ المطلب، قال الزنجاني والطيبي: وهو أن يخرج إلى الغرض بعد تقدم الوسيلة، كقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٥).

قال الطيبي: ومما اجتمع فيه حسن التخلص والمطلب معاً قوله تعالى حكايةً عن إبراهيم: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٧ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ إلى قوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (الشعراء: ٧٧-٨٣).

قاعدة :

قال بعض المتأخرين: الأمر الكلى المفيد لعرفان مناسبات الآيات فى جميع القرآن، هو أنك تنظر إلى الغرض الذي سيقت له السورة، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك من المقدمات، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات فى القرب والبعد من المطلوب، وتنظر عند انجرار الكلام فى المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام أو اللوازم التابعة له، التي تقتضى البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها، فهذا هو الأمر الكلى المهيمن على حكم

الربط بين جميع أجزاء القرآن، فإذا فعلته تبين لك وجه النظم مفصلاً بين كل آية فى كل سورة. انتهى.

تنبيه

من الآيات ما أشكلت مناسبتها لما قبلها، من ذلك قوله تعالى فى سورة القيامة: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ (القيامة: ١٦)، الآيات، فإن وجه مناسبتها لأول السورة وآخرها عسر جداً، فإن السورة كلها فى أحوال القيامة، حتى زعم بعض الرافضة أنه سقط من السورة شيء، وحتى ذهب القفال فيما حكاه الفخر الرازي، أنها نزلت فى الإنسان المذكور قبل فى قوله: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ (القيامة: ١٣).

قال: يعرض عليه كتابه فإذا أخذ فى القراءة تلجلج خوفاً فأسرع فى القراءة، فيقال له: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ إن علينا أن نجمع عملك، وأن نقرأ عليك: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ (القيامة: ١٨)، بالإقرار بأنك فعلت، ثم إن علينا بيان أمر الإنسان وما يتعلق بعقوبته. انتهى.

وهذا يخالف ما ثبت فى الصحيح أنها نزلت فى تحريك النبي ﷺ لسانه حالة نزول الوحي عليه.

وقد ذكر الأئمة لها مناسبات:

منها: أنه تعالى لما ذكر القيامة، وكان من شأن من يقصر عن العمل لها حب العاجلة، وكان من أصل الدين أن المبادرة إلى أفعال الخير مطلوبة، فنّبه على أنه قد يعترض على هذا المطلوب ما هو أجل منه، وهو الإصغاء إلى الوحي، وتفهم ما يَرِد منه، والتشاغل بالحفظ قد يصد عن ذلك، فأمر ألا يبادر إلى التحفظ، لأن تحفيظه مضمون على ربه، وليصغ إلى ما يَرد عليهِ، إلى أن ينقضى، فيتبع ما اشتمل عليه. ثم لما انقضت الجملة المعترضة رجع الكلام إلى ما يتعلق بالإنسان المبتدأ بذكره ومن هو من جنسه، فقال: ﴿كَلَّا﴾ وهى كلمة ردع كأنه قال: بل أنتم يا بنى

آدم لكونكم خلقتم من عجل، تعجلون فى كل شيء، ومن ثَمَّ تحبون العاجلة.

ومنها: أن عادة القرآن إذا ذكر الكتاب المشتمل على عمل العبد – حيث يعرض يوم القيامة – أردفه بذكر الكتاب المشتمل على الأحكام الدينية فى الدنيا، التي تنشأ عنها المحاسبة، عملاً متروكاً كما قال فى الكهف: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ (الكهف: ٤٩)، إلى أن قال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ (الإسراء: ٨٩).

وقال فى سبحان: ﴿فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ إلى أن قال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ (الإسراء: ٧١-٩٨).

وقال فى طه: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ إلى أن قال: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ (طه: ١٠٢-١١٥).

ومنها: أن أول السورة لما نزل إلى: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ (القيامة: ١٥) صادف أنه ﷺ فى تلك الحالة بادر إلى تحفظ الذي نزل، وحرّك به لسانه من عجلته، خشية من تفلته، فنزل: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ (القيامة: ١٩)، إلى قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾. ثم عاد الكلام إلى تكملة ما ابتدئ به.

قال الفخر الرازي: ونحوه كما لو ألقى المدرس على الطالب مثلا مسألة، فتشاغل الطالب بشيء عرض له، فقال له: ألق إليَّ بالك، وتفهم ما أقول، ثم كمَّل المسألة. فمن لا يعرف السبب يقول ليس هذا الكلام مناسباً للمسألة، بخلاف من عرف ذلك.

ومنها: أن (النفس) لما تقدم ذكرها فى أول السورة عدل إلى ذكر (نفس) المصطفى ﷺ، كأنه قيل هذا شأن النفوس، وأنت يا محمد نفسك أشرف النفوس فلتأخذ بأكمل الأحوال.

ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ (البقرة: ١٨٩)، فقد يقال: أي رابط بين أحكام الأهلة وبين حكم إتيان البيوت؟.

وأجيب: بأنه من باب الاستطراد لما ذكر أنها مواقيت للحج، وكان هذا من أفعالهم فى الحج- كما ثبت فى سبب نزولها- ذكر معه من باب الزيادة فى الجواب على ما فى السؤال كما سئل عن ماء البحر فقال: «**هو الطهور ماؤه الحل ميتته**».

ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ (البقرة: ١١٥) فقد يقال: ما وجه اتصاله بما قبله وهو قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾ (البقرة: ١١٤).

وقال الشيخ أبو محمد الجويني فى «تفسيره»: سمعت أبا الحسن الدهان، يقول: وجه اتصاله، هو أن ذكر تخريب بيت المقدس قد سبق، أي فلا يجرمنكم ذلك أو استقبلوه، فإن لله المشرق والمغرب.

فصل

ومن هذا النوع مناسبة فواتح السور وخواتمها، قد أفرد فيه السيوطي جزءاً لطيفا سماه (مراصد المطالع فى تناسب المقاطع والمطالع).

فانظر إلى سورة القصص كيف بدئت بأمر موسى ونصرته، وقوله: ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ (القصص: ١٧)، وخروجه من وطنه، وختمت بأمر النبى ﷺ بألا يكون ظهيراً للكافرين وتسليته عن إخراجه من مكة، ووعده بالعود إليها، لقوله فى أول السور﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ (القصص: ٧) .

قال الزمخشري: وقد جعل الله فاتحة سورة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ (المؤمنون: ١)، وأورد فى خاتمتها: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ (المؤمنون: ١١٧) فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة؟ وذكر الكرماني فى العجائب مثله.

وقال فى سورة (ص) التي بدأ بها بالذكر، وختمها به فى قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ (ص: ٨٧).

وفي سورة (ن) بدأها بقوله: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ (القلم: ٢)، وختمها بقوله: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ (القلم: ٥١).

ومنه مناسبة فاتحة السورة لخاتمة ما قبلها، حتى إن منها ما يظهر تعلقها به لفظاً كما في: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ (الفيل: ٥)، ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ (قريش:١).

فقد قال الأخفش: اتصالها بها من باب: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ (القصص: ٨).

وقال الكواشي في «تفسير المائدة»: لما ختم سورة النساء آمراً بالتوحيد والعدل بين العباد أكد ذلك بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ﴾ (المائدة: ١).

وقال غيره: إذا اعتبرت افتتاح كل سورة وجدته في غاية المناسبة لما ختم به السورة قبلها، ثم يخفى تارة ويظهر أخرى كافتتاح سورة الأنعام بالحمد، فإنه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ (الأنعام: ١) وكافتتاح سورة فاطر بالحمد لله، فإنه مناسب لختام ما قبلها من قوله: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ (سبأ: ٥٤).

كما قال تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنعام: ٤٥)، وكافتتاح سورة الحديد بالتسبيح، فإنه مناسب لختام سورة الواقعة بالأمر به.

وكافتتاح سورة البقرة بقوله: ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ﴾(البقرة: ١-٢) فإنه إشارة إلى الصراط في قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ كأنهم لما سألوا الهداية إلى الصراط، قيل لهم: ذلك الصراط الذي سألتم الهداية إليه هو الكتاب، وهذا معنى حسن يظهر فيه ارتباط سورة البقرة بالفاتحة.

ومن لطائف سورة الكوثر أنها كالمقابلة للتي قبلها، لأن السابقة وصف الله فيها المنافق بأربعة أمور: البخل، وترك الصلاة والرياء فيها ومنع الزكاة، فذكر فيها فى مقابلة البخل: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَـٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ (الكوثر: ١) أي الخير الكثير، وفي مقابلة ترك الصلاة ﴿فَصَلِّ﴾ (الكوثر:٢) أي دُمْ عليها، وفي مقابلة الرياء ﴿لِرَبِّكَ﴾ أي لرضاه، لا للناس، وفي مقابلة منع الماعون ﴿وَٱنۡحَرۡ﴾ وأراد به التصدق بلحم الأضاحي.

وقال بعضهم: لترتيب وضع السور فى المصحف أسباب تدل على أنه توقيفي صادر عن حكيم:

أحدها: بحسب الحروف كما فى الحواميم.

الثاني: موافقة أول السورة لآخر ما قبلها، كآخر الحمد فى المعنى وأول البقرة.

الثالث: للوزن فى اللفظ كآخر (تبت) وأول (الإخلاص).

الرابع: لمشابهة جملة السورة لجملة الأخرى، كالضحى وألم نشرح. قال بعض الأئمة: وسورة الفاتحة تضمنت الإقرار بالربوبية والالتجاء إليه فى دين الإسلام، والصيانة عن دين اليهودية والنصرانية، وسورة البقرة تضمنت قواعد الدين، وآل عمران مكملة لمقصودها، فالبقرة بمنزلة إقامة الدليل على الحكم، وآل عمران بمنزلة الجواب عن مشبهات الخصوم، ولهذا ورد فيها ذكر المتشابه لما تمسك به النصارى.

وأوجب الحج فى آل عمران، وأما فى البقرة فذكر أنه مشروع، وأمر بإتمامه بعد الشروع فيه، وكان خطاب النصارى فى آل عمران أكثر، كما خطاب اليهود فى البقرة أكثر، لأن التوراة أصل والإنجيل فرع لها، والنبي ﷺ لما هاجر إلى المدينة دعا اليهود وجاهدهم، وكان جهاده للنصارى فى آخر الأمر، كما كان دعاؤه لأهل الشرك قبل أهل الكتاب، ولهذا كانت السور المكية فيها الدين الذي اتفق عليه الأنبياء، فخوطب به جميع الناس، والسورة المدنية فيها خطاب من أقر بالأنبياء من أهل الكتاب والمؤمنين فخوطبوا بـ (يا أهل الكتاب)، (يا بني إسرائيل)، (يا أيها الذين آمنوا).

وأما سورة النساء فتضمنت إحكام الأسباب التي بين الناس وهي نوعان مخلوقة لله، ومقدورة لهم كالنسب والصهر، ولهذا افتتحت بقوله:﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ (النساء: ١)، ثم قال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ﴾ (النساء: ١) فانظر هذه المناسبة العجيبة فى الافتتاح وبراعة الاستهلال، حيث تضمنت الآية المفتتح بها أكثر السورة أحكام الدين، من نكاح النساء ومحرماته، والمواريث المتعلقة بالأرحام، وأن ابتداء هذا الأمر كان بخلق آدم، ثم خلق زوجه منه، ثم بث منهما رجالاً ونساء فى غاية الكثرة.

وأما المائدة فسورة العقود، تضمنت بيان تمام الشرائع ومكملات الدين، والوفاء بعهود الرسل، وما أخذ على الأمة وبها تم الدين، فهي سورة التكميل، لأن فيها تحريم الصيد على المحرم الذي هو من تمام الإحرام، وتحريم الخمر الذي هو من تمام حفظ العقل والدين وعقوبة المعتدين من السراق والمحاربين، الذي هو من تمام حفظ الدماء والأموال، وإحلال الطيبات، الذي هو من تمام عبادة الله تعالى، ولهذا ذكر فيها ما يختص بشريعة محمد ﷺ، كالوضوء والتيمم والحكم بالقرآن على كل دين.

ولهذا كثر فيها من لفظ الإكمال والإتمام، وذكر فيها أن من ارتد عوض الله بخير منه، ولا يزال هذا الدين كاملاً، ولهذا ورد أنها آخر ما نزل، لما فيها من إشارات الختم والتمام، وهذا الترتيب بين هذه السور الأربع المدنيات من أحسن الترتيب.

وقال أبو جعفر ابن الزبير: حكى الخطابي أن الصحابة لما اجتمعوا على القرآن، وضعوا سورة القدر عقب العلق، واستدلوا بذلك على أن المراد بها الكناية فى قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ (القدر: ١) الإشارة إلى قوله: ﴿ٱقْرَأْ﴾ (العلق: ١). قال القاضي أبو بكر ابن العربي: وهذا بديع جدا.

قال فى «البرهان» ومن ذلك افتتاح السور بالحروف المقطعة، واختصاص كل واحدة بما بدأت به، حتى لم يكن لترد (الم) فى موضع (الر)، ولا (حم) فى موضع (طس). قال: وذلك أن كل سورة بدأت بحرف منها، فإن أكثر كلماتها وحروفها

مماثل لها، فحق كل سورة منها، ألا يناسبها غير الوارد فيها.

فلو وضع (ق) موضع (ن) لعدم التناسب الواجب مراعاته فى كلام الله، وسورة (ق) بدئت به لما تكرر فيها من الكلمات بلفظ القاف من ذكر: القرآن، والخلق، والقول ومراجعته مراراً، والقرب من بني آدم، وتلقى الملكين، وقول العتيد والرقيب والسائق، والإلقاء فى جهنم، والتقدم بالوعد، وذكر المتقين، والقلب، والقرون، والتنقيب فى البلاد، وتشقق الأرض، ونحو ذلك.

وكذا اشتملت سورة (ص) على خصومات متعددة تخاصم إبليس، واختصام الخصمين عند داود، وتخاصم أهل النار، ونحوه.

وهكذا فى كل سورة ترى أن الحرف الذي بدئت به السورة أكثر حرف يتكرر فيها، والله أعلم.

فصل
فى إعجاز القرآن

انظر هذا الكون الفسيح الذي يعج بمخلوقات الله تضاءلت جباله الشامخة، وبحاره الزاخرة، ومهاده الواسعة، أمام مخلوق ضعيف هو الإنسان، ذلك لما جمع الله فيه من خصائص، ولما منحه من قوة التفكير، التي تشع فى الأرجاء، لتسخر عناصر القوى الكونية، وتجعلها فى خدمة الإنسانية، وما كان الله ليذر هذا الإنسان دون أن يمده بقبس من الوحي بين فترة وأخرى، يقوده إلى معالم الهدى، ليسلك دروب الحياة على بينة وبصيرة، إلا أن غلواءه الفطري يأبى عليه الخضوع لقرينه من بنى الإنسان، ما لم يأت له بما لا يستطيع، حتى يعترف ويخضع ويؤمن بقدرة عليا فوق قدرته.

فكان رسل الله الذين يتنزل عليهم الوحي، ويؤيدهم بخوارق العادات، التي تقيم الحجة على الناس، فيعترفون أمامها بالعجز، ويدينون لها بالولاء والطاعة، ولكن العقل البشري كان فى أطوار نموه الأولى لا يرى شيئاً يأخذ بلبه أقوى من

المعجزات الكونية الحسية، حيث لا يرقى عقله إلى السمو فى المعرفة والتفكير، فناسب هذا أن يبعث كل رسول إلى قومه خاصة، وأن تكون معجزته فيما نبغ فيه قومه، خارقة لما ألفوه، ليتحقق بعجزهم عنها إيمانهم بأنها من قوى السماء، فلما اكتمل العقل البشرى أذن الله بفجر الرسالة المحمدية الخالدة إلى الناس كافة.

وكانت معجزاتها معجزة العقل البشرى فى أرقى تطورات نضجه ونموه، فبينما كان تأييد الله لرسله السابقين بآيات كونية تبهر الأبصار، ولا سبيل للعقل فى معارضتها، كمعجزة اليد والعصا لموسى، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله لعيسى، كانت معجزة محمد ﷺ فى عصر مشرف على العلم معجزة عقلية تحاج العقل البشرى وتتحداه إلى الأبد.

وهي معجزة القرآن بعلومه ومعارفه، وأخباره الماضية والمستقبلة، فالعقل الإنساني على تقدمه يعجز عن معارضته لأنه آية كونية لا قبل له بها، ولكن عجز لقصوره الذاتي، فيكون هذا اعترافاً منه بأنه وحى الله إلى رسوله وأن حاجته إلى الاهتداء به ماسة ليستقيم عوجه، وترقى مواهبه.

وهذا المعنى هو ما يشير إليه رسول الله ﷺ فى قوله: «**ما من الأنبياء نبي إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً**».

وهكذا كتب الله لمعجزة الإسلام الخلود، فضعفت القدرة الإنسانية مع تراخى الزمن وتقدم العلم عن معارضتها، والحديث عن إعجاز القرآن ضرب من الإعجاز، لا يصل الباحث فيه إلى سر جانب منه حتى يجد وراءه جوانب أخرى يكشف عن سر إعجازها الزمن، فهو كما يقول الرافعي: ما أشبه القرآن الكريم فى تركيب إعجازه وإعجاز تركيبه بصورة كلامية من نظام هذا الكون، الذي اكتنفه العلماء من كل جهة، وتعاوروه من كل ناحية، وأخلقوا جوانبه بحثاً وتفشياً، ثم هو بعد لا يزال عندهم على كل ذلك خلقاً جديداً ومراماً بعيداً.

تعريف الإعجاز وإثباته

الإعجاز إثبات العجز، والعجز فى التعارف اسم للقصور عن فعل الشيء، وهو ضد القدرة، وإذا ثبت الإعجاز ظهرت قدرة المعجز، والمراد بالإعجاز هنا إظهار صدق النبي ﷺ فى دعوى الرسالة، بإظهار عجز العرب عن معارضته فى معجزته الخالدة، وهي القرآن وعجز الأجيال بعدهم. والمعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة.

والقرآن الكريم تحدى به النبي ﷺ العرب وقد عجزوا عن معارضته مع طول باعهم فى الفصاحة والبلاغة، ومثل هذا لا يكون إلا معجزاً، فقد ثبت أن الرسول ﷺ تحدى العرب بالقرآن على مراحل ثلاث:

(أ) تحداهم بالقرآن كله فى أسلوب عام، يتناولهم ويتناول غيرهم من الإنس والجن، تحدياً يظهر على طاقتهم مجتمعين، بقوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء: ٨٨).

(ب) ثم تحداهم بعشر سور منه فى قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ (هود: ١٣-١٤).

(جـ) ثم تحداهم بسورة واحدة منه فى قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ (يونس: ٣٨)، وكرر هذا التحدي فى قوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٣).

ومن عنده إلمام قليل بتاريخ العرب وأدب لغتهم يدرك العوامل السابقة لبعثة الرسول ﷺ، التي رقت بلغة العرب، وعذبت لسانها، وجمعت خير ما فى لهجاتها من أسواق الأدب والمفاخرة بالشعر والنثر، حتى انتهى مصب جداول الفصاحة وإدارة الكلام بالبيان فى لغة قريش التي نزل بها القرآن، وما كان عليه العرب من

صلف يعلو بأحدهم على أبناء عمومته أنفاً وكبراً مضرب مثل فى التاريخ، الذي سجل لهم أياماً نسبت إليهم ما أحدثوه فيها من معارك وحروب طاحنة، أشعلها شرر من الكبرياء والأنفة.

ومثل هؤلاء مع توافر دواعي اللسان وقوة البيان، التي يوقدها حماس القبيل، ويؤججها أتون الحمية، لو تسنى لهم معارضة القرآن الكريم لأثر هذا عنهم، وتطاير خبره فى الأجيال.

فالقوم قد تصفحوا آيات الكتاب، وقلبوها على وجوه ما نبغوا فيه من شعر ونثر، فلم يجدوا مسلكاً لمحاكاته، أو منفذاً لمعارضته، بل جرى على ألسنتهم الحق الذي أخرسهم عفو الخاطر، عندما زلزلت آيات القرآن الكريم قلوبهم، كما أثر ذلك عن الوليد بن المغيرة، وعندما عجزت حيلتهم رموه بقول باهت، فقالوا: سحر يؤثر، أو شاعر مجنون، أو أساطير الأولين، ولم يكن لهم بد أمام العجز والمكابرة، إلا أن يعرضوا رقابهم للسيوف، وكأن اليأس القاتل ينقل بنيه من نظرتهم للحياة الطويلة والعمر المديد إلى ساعة الاحتضار فيستسلمون للموت الزؤام، وبهذا ثبت إعجاز القرآن بلا مراء.

وكان سماعه حجة ملزمة: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ (التوبة: ٦).

وكان ما يحتويه من نواحي الإعجاز يفوق كل معجزة كونية سابقة، ويغني عنها جميعاً: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ (العنكبوت: ٥٠-٥١) وعجز العرب عن معارضة القرآن مع توفر الدواعي عجز واللغة العربية فى ريعان شبابها وعنفوان قوتها.

والإعجاز لسائر الأمم على مر العصور ظل ولا يزال فى موقف التحدي شامخ الأنف، فأسرار الكون التي يكشف عنها العلم الحديث ما هي إلا مظاهر

للحقائق العليا التي ينطوي عليها سر هذا الوجود فى خالقه ومدبره، وهو ما أجمله القرآن أو أشار إليه، فصار القرآن بهذا معجزاً للإنسانية كافة.

وجوه إعجاز القرآن:

لقد كان لنشأة علم الكلام في الإسلام أثر أصدق ما يقال فيه إنه كلام فى كلام، وما فيه من وميض التفكير، يجر متتبعه إلى مجاهل من القول بعضها فوق بعض، وقد بدأت مأساة علماء الكلام فى القول بخلق القرآن، ثم اختلفت آراؤهم، وتضاربت أقوالهم فى وجوه إعجازه.

(أ) فذهب أبو إسحاق إبراهيم النظام ومن تابعه كالمرتضى من الشيعة إلى أن إعجاز القرآن كان بالصرفة، ومعنى الصرفة فى نظر النظَّام: أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها، فكان هذا الصرف خارقاً للعادة، ومعناها فى نظر المرتضى: أن الله سلبهم العلوم التي يحتاج إليها فى المعارضة ليجيئوا بمثل القرآن، وهو قول يدل على عجز ذويه، فلا يقال فيمن سلب القدرة على شيء إن الشيء أعجزه ما دام فى مقدوره أن يأتي به فى وقت ما، وإنما المعجز حينئذ هو قدر الله، فلا يكون القرآن معجزاً، وحديثنا عن إعجاز مضاف إلى القرآن سوف يظل ثابتاً له فى كل عصر لا عن إعجاز الله.

قال القاضي أبو بكر الباقلاني: (ومما يبطل القول بالصرفة أنه لو كانت المعارضة ممكنة، وإنما منع منها الصرفة، لم يكن الكلام معجزاً، وإنما يكون المنع معجزاً، فلا يتضمن الكلام فضلاً على غيره فى نفسه).

والقول بالصرفة قول فاسد، يرد عليه القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء: ٨٨).

فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم، ولو سُلبوا القدرة لم يبقَ فائدة لاجتماعهم لمنزلته منزلة اجتماع الموتى، وليس عجز الموتى بكبير يحتفل بذكره.

(ب) وذهب قوم إلى أن القرآن معجز ببلاغته التي وصلت إلى مرتبة لم يعهد لها مثيل وهذه النظرة نظرة أهل العربية الذين يولعون بصور المعاني الحية فى النسج المحكم، والبيان الرائع.

(جـ) وبعضهم يقول: إن وجه إعجازه فى تضمنه البديع الغريب المخالف لما عهد فى كلام العرب من الفواصل والتقاطع.

(د) ويقول آخرون: بل إعجازه فى الإخبار عن المغيبات المستقبلة التي لا يطلع عليها إلا بالوحي، أو الإخبار عن الأمور التي تقدمت منذ بدء الخلق بما لا يمكن صدوره من أحد لم يتصل بأهل الكتاب. كقوله تعالى فى أهل بدر: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾(القمر: ٤٥)، وقوله: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ﴾ (الفتح: ٢٧) وقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (النور: ٥٥)، وقوله: ﴿الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾(الروم: ١-٣).

وقوله: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ﴾ (هود: ٤٩) وسائر قصص الأولين.

وهذا قول مردود لأنه يستلزم أن الآيات التي لا خبر فيها عن المغيبات المستقبلة والماضية لا إعجاز فيها، وهو باطل، فقد جعل الله كل سورة معجزة بنفسها.

(هـ) وذهب جماعة إلى أن القرآن معجز لما تضمنه من العلوم المختلفة والحكم البليغة.

وهناك وجوه أخرى للإعجاز تدور فى هذا الظل، جمعها بعضهم فى عشرة أو أكثر.

والحقيقة أن القرآن معجز بكل ما يتحمله هذا اللفظ من معنى، فهو معجز فى ألفاظه وأسلوبه، والحرف الواحد منه فى موضعه من الإعجاز الذي لا يغنى عنه

غيره فى تماسك الكلمة، والكلمة فى موضعها من الإعجاز فى تماسك الجملة، والجملة فى موضعها من الإعجاز فى تماسك الآية.

وهو معجز فى بيانه ونظمه، يجد فيه القارئ صورة حية للحياة والكون والإنسان، وهو معجز فى معانيه التي كشفت الستار عن الحقيقة الإنسانية ورسالتها فى الوجود.

وهو معجز بعلومه ومعارفه التي أثبت العلم الحديث كثيراً من حقائقها المغيبة، وهو معجز فى تشريعه وصيانته لحقوق الإنسان وتكوينه مجتمع مثالي تسعد الدنيا على يديه.

والقرآن ـ أولاً وآخراً ـ هو الذي صيَّر العرب رعاة الشاء والغنم ساسة الشعوب وقادة الأمم، وهذا وحده إعجاز.

قال الخطابي فى كتابه: «فخرج من هذا أن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ، فى أحسن نظوم التأليف ،متضمناً أصح المعاني، من توحيد الله وتنزيهه فى صفاته، ودعاء إلى طاعته، وبيان لمنهج عبادته، من تحليل وتحريم، وحظر وإباحة، ومن وعظ وتقويم، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق، وزجر عن مساويها، واضعاً كل شيء منها موضعه الذي لا يرى شيء أولى منه، جامعاً في ذلك بين الحجة والمحتج به، والدليل والمدلول عليه، ليكون ذلك أوكد للزوم ما دعا إليه وإنباء عن وجوب ما أمر به ونهى عنه. ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور، والجمع بين أشتاتها حتى تنتظم وتتسق، أمر تعجز عنه قوى البشر، ولا تبلغه قدرتهم، فانقطع الخلق دونه، وعجزوا عن معارضته بمثله».

القدر المعجز من القرآن:

(أ) يذهب المعتزلة إلى أن الإعجاز يتعلق بجميع القرآن لا ببعضه، أو بكل سورة برأسها.

(ب) ويذهب البعض إلى أن المعجز منه القليل والكثير، دون تقييد بالسورة، لقوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ (الطور: ٣٤).

(جـ) ويذهب آخرون إلى أن الإعجاز يتعلق بسورة تامة ولو قصيرة أو قدرها من الكلام كآية واحدة أو آيات.

ولقد وقع التحدي بالقرآن كله كما سبق فى قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ (الإسراء: ٨٨)، وبعشر سور: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ﴾، وبسورة واحدة: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ (يونس: ٣٨)، وبحديث مثله: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ (الطور: ٣٤)، ونحن لا نرى الإعجاز فى قدر معين، لأننا نجده فى أصوات حروفه ووقع كلماته، كما نجده فى الآية والسورة، فالقرآن كلام الله، وكفى.

وأياً كان وجه الإعجاز، أو القدر المعجز، فإن الباحث المنصف الذي يطلب الحق إذا نظر فى القرآن من أي النواحي أحب: من ناحية أسلوبه، أو من ناحية علومه، أو من ناحية الأثر الذي أحدثه فى العالم وغيَّر به وجه التاريخ، أو من تلك النواحي مجتمعة، وجد الإعجاز واضحاً جلياً ويجدر بنا أن نأتي بكلمة فى هذه النواحي الثلاثة من الإعجاز القرآني: ناحية الإعجاز اللغوي، وناحية الإعجاز العلمي، وناحية الإعجاز التشريعي.

الإعجاز اللغوي

لقد مارس أهل العربية متونها منذ نشأت لغتهم، حتى شبت وترعرعت، وأصبحت فى عنفوان شبابها عملاقاً معطاء، واستظهروا شعرها ونثرها، وحكمها وأمثالها، وطوعهم فى أساليب ساحرة، حقيقة ومجازاً، إيجازاً وإطناباً، حديثاً ومقالاً، وكلما ارتفعت اللغة وتسامت، وقفت على أعتاب لغة القرآن فى إعجازه اللغوي كسيرة صاغرة، تنحني أمام أسلوبه إجلالاً وخشية، وما عهد تاريخ العربية حقبة من أحقاب التاريخ. ازدهرت فيها اللغة، وتطامن أعلامها وأساتذتها أمام

البيان القرآني، اعترافاً بسموه وإدراكاً لأسراره، ولا عجب فتلك سنة الله فى آياته التي يصنعها بيديه، لا يزيدك العلم بها والوقوف على أسرارها إلا إذعاناً لعظمتها وثقةً بالعجز منها، ولا كذلك صناعات الخلق، فإن فضل العلم بها يمكنك منها ويفتح لك الطريق إلى الزيادة عليها، ومن هنا كان سحرة فرعون هم أول المؤمنين برب موسى وهارون.

والذين تملكهم الغرور، وأصابتهم لوثة الإعجاب بالنفس، وحاولوا التطاول على أسلوب القرآن، حاكوه بكلام فارغ أشبه بالسخف والتفاهة والهذيان والعبث، وارتدوا على أعقابهم خاسرين، كالمتنبئين وأشباه المتنبئين من الدجالين والمغرورين.

وقد شهد التاريخ فرساناً للعربية خاضوا غمارها، وأحرزوا قصب السبق فيها، فما استطاع أحد منهم أن تحدثه نفسه بمعارضة القرآن إلا باء بالخزي والهوان، بل إن التاريخ سجل هذا العجز على اللغة فى أزهي عصورها وأرقى أدوارها، حين نزل هذا القرآن، وقد بلغت العربية أشدها، وتوافرت لها عناصر الكمال والتهذيب فى المجامع العربية وأسواقها، ووقف القرآن من أصحاب هذه اللغة موقف التحدي، فى صور شتى، متنزلاً معهم إلى الأخف من عشر سور، إلى سورة، إلى حديث مثله.

فما استطاع أحد أن يباريه أو يجاريه منهم، وهم أهل الأنفة والعزة والإباء.

ولو وجدوا قدرة على محاكاة شيء منه، أو وجدوا ثغرة فيه لما ركبوا المركب الصعب أمام هذا التحدي، بإشهار السيوف، بعد أن عجز البيان، وتحطمت الأقلام. وتتابعت القرون لدى أهل العربية، وظل الإعجاز القرآني اللغوي راسخاً كالطود الشامخ، تذل أمامه الأعناق خاضعة، لا تفكر فى أن تدانيه، فضلاً عن أن تساميه، لأنها أشد عجزاً أو أقل طمعاً فى هذا المطلب العزيز. وسيظل الأمر كذلك إلى يوم الدين.

ولا يستطيع أحد أن يدعى عدم الحاجة إلى معارضة القرآن إن كان ذلك ممكناً، فإن التاريخ يشهد بأنه قد توافرت الدواعي الملحة لدى القوم لمعارضة القرآن،

حيث وقفوا من الرسالة وصاحبها موقف الجحود والنكران، واستثار القرآن حميتهم وسفَّه أحلامهم، وتحداهم تحدياً سافراً يثير حفيظة الجبان الرعديد، مع ما كانوا عليه من أنفة وعزة، فسلكوا مع رسول الله ﷺ مسالك شتى، ساوموه بالمال والملك ليكف عن دعوته، وقاطعوه ومن معه حتى يموتوا جوعاً.

واتهموه بالسحر والجنون، وتآمروا على حبسه أو قتله أو إخراجه، وقد دلهم على الطريق الوحيد لإسكاته، وهو أن يجيئوه بكلام مثل الذي جاءهم به، ألم يكن ذلك أقرب إليهم وأبقى عليهم لو كان أمره فى يدهم.

ولكنهم طرقوا الأبواب كلها إلا هذا الطريق الوعر الذي دلهم عليه، فأى شيء يكون العجز إن لم يكن هذا هو العجز؟

والقرآن الذي عجز العرب عن معارضته لم يخرج عن سنة كلامهم، ألفاظاً وحروفاً، تركيباً وأسلوباً، ولكنه فى اتساق حروفه أو حلاوة عبارته، وحلاوة أسلوبه، وحرص آياته على مراعاة مقتضيات الحال فى ألوان البيان، فى الجمل الاسمية والفعلية وفي النفي والإثبات، وفي الذكر والحذف، وفي التعريف والتنكير، وفي التقديم والتأخير، وفي الحقيقة والمجاز، وفي الإطناب والإيجاز، وفي العموم والخصوص، وفي الإطلاق والتقييد، وفي النص والفحوى، وهلم جراً، ولكن القرآن فى هذا ونظائره بلغ الذروة التي تعجز أمامها القدرة اللغوية لدى البشر.

عن ابن عباس: «أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكأنه رمد له، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال له: يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوك، فإنك أتيت محمداً لتتعرض لما قبله قال: قد علمت قريش أنى من أكثرها مالاً. قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له. فقال: قال: وماذا أقول؟ فو الله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منى، لا برجزه، ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا، ووالله إن القول الذي يقول لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته.

قال: والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه. قال: فدعنى حتى أفكر، فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر بأثره من غيره، فنزلت:﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ (المدثر: ١١).

وحيثما قلَّب الإنسان نظره فى القرآن وجد أسراراً من الإعجاز اللغوي يقف أمامها أساطين اللغة وفرسان البلاغة.

ويجد ذلك فى ضروب الخطاب التي يتقارب فيها أصناف الناس فى الفهم بما تطيقه عقولهم، فيراها كل واحد منهم مقدرة على مقياس عقله ووفق حاجته، من العامة والخاصة:﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ (القمر: ١٧)، ويجد فى ذلك إقناع العقل، وإقناع العاطفة بما يفى بحاجة النفس البشرية، تفكيراً، ووجداناً، فى تكافؤ واتزان، فلا تطغى فيه قوة التفكير على قوة الوجدان، ولا قوة الوجدان على قوة التفكير، ويجد ذلك فى نظامه الصوتي البديع، بجرى حروفه حين يسمع حركاتها وسكناتها، ومداتها وغناتها، وفواصلها ومقاطعها، فلا تمل أذنه السماع، بل لا تفتأ تطلب منه المزيد.

ويجد ذلك فى ألفاظه التي تفي بحق كل معنى فى موضعه، لا ينمو فيها لفظ يقال إنه زائد، ولا يعثر الباحث على موضع يقول إنه يحتاج إلى إثبات لفظ ناقص.

وهكذا حيثما قلب النظر قامت أمامه حجة القرآن فى التحدي والإعجاز، قال القاضي أبو بكر الباقلاني: والذي يشتمل عليه بديع نظمه المتضمن للإعجاز وجوه، منها ما يرجع إلى الجملة، وذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم.

جمع القرآن وترتيبه

يطلق جمع القرآن ويراد به عند العلماء أحد معنيين:

المعنى الأول: جمعه بمعنى حفظه، وجماع القرآن حفاظه، وهذا المعنى هو الذي ورد فى قوله تعالى فى خطابه لنبيه ﷺ وقد كان يحرك شفتيه ولسانه بالقرآن، إذا

نزل عليه قبل فراغ جبريل من قراءة الوحي، حرصاً على أن يحفظه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ (القيامة: ١٦-١٩).

عن ابن عباس قال: «كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة فكان يحرك به لسانه وشفتيه، مخافة أن ينفلت منه، يريد أن يحفظه، فأنزل الله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ قال: يقول: إن علينا نجمعه فى صدرك، ثم نقرأه: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ يقول: إذا أنزلناه عليك: ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ فاستمع له وأنصت: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾. أن نبينه بلسانك، وفي لفظ: علينا أن تقرأه، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل أطرق، وفي لفظ: استمع، فإذا ذهب قرأه كما وعد الله.

المعنى الثاني: جمع القرآن بمعنى كتابته كله مفرق الآيات والسور أو مرتب الآيات فقط، فى صحيفة على حدة أو مرتب الآيات والسور فى صحائف مجتمعة تضم السور جميعاً وقد رتب إحداها بعد الأخرى، وإليك البيان:

١ - جمع القرآن بمعنى حفظه على عهد النبي ﷺ:

كان رسول الله ﷺ مولعاً بالوحي يترقب نزوله عليه بشوق، فيحفظه ويفهمه، مصداقاً لوعد الله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ (القيامة: ١٧) فكان بذلك أول الحفاظ، ولصحابته فيه الأسوة الحسنة شغفاً بأصل الدين ومصدر الرسالة، وقد نزل القرآن فى بضع وعشرين سنة، فربما نزلت الآية المفردة، وربما نزلت آيات عدة إلى عشر.

وكلما نزلت آية حفظت فى الصدور، ووعتها القلوب، والأمة العربية كانت بسجيتها قوية الذاكرة، تستعيض عن أميتها فى كتابة أخبارها وأشعارها وأنسابها بسجل صدورها.

وقد أورد البخاري فى «صحيحه» بثلاث روايات سبعة من الحفاظ هم عبد الله ابن مسعود وسالم بن معقل مولى أبي حذيفة، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو زيد بن السكن، وأبو الدرداء.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«خذوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود، وسالم، ومعاذ، وأبي بن كعب»** وهؤلاء الأربعة اثنان من المهاجرين هما: عبد الله بن مسعود وسالم، واثنان من الأنصار هما: معاذ وأبي.

وعن قتادة قال: (سألت أنس بن مالك: من جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ؟ فقال: أربعة، كلهم من الأنصار: أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد، قلت: من أبو زيد؟ قال: أحد عمومتي).

وروى من طريق ثابت عن أنس كذلك قال: (مات النبي ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد).

وأبو زيد المذكور فى هذه الأحاديث جاء بيانه فيما نقله ابن حجر بإسناد على شرط البخاري، عن أنس أن أبا زيد الذي جمع القرآن اسمه: قيس بن السكن قال: وكان رجلاً منا من بنى عدى بن النجار أحد عمومتي، ومات ولم يدع عقباً ونحن ورثناه.

وبيّن ابن حجر فى ترجمة سعيد بن عمير أنه من الحفاظ، وأنه كان يلقب بالقارئ.

وذِكْر هؤلاء الحفاظ السبعة أو الثمانية لا يعنى الحصر، فإن النصوص الواردة فى كتب السير والسنن تدل على أن الصحابة كانوا يتنافسون فى حفظ القرآن، ويحفظونه أزواجهم وأولادهم، ويقرءون به فى صلواتهم بجوف الليل، حتى يسمع لهم دوى كدوى النحل، وكان رسول الله ﷺ يمر على بيوت الأنصار، ويستمع إلى ندى أصواتهم بالقراءة فى بيوتهم.

عن أبي موسى الأشعري: أن رسول الله ﷺ قال له: **«لو رأيتني البارحة وأنا أستمع بقراءتك، لقد أعطيت مزماراً من مزامير داود»**.

وعن عبد الله بن عمر قال: **«جمعت القرآن، فقرأت به كل ليلة فبلغ النبي ﷺ فقال: اقرأه فى شهر»**.

وعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ **«إني لأعرف رفقة الأشعريين بالليل حين يدخلون، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار»**.

ومع حرص الصحابة على مدارسة القرآن واستظهاره، فإن رسول الله ﷺ كان يشجعهم على ذلك، ويختار لهم من يعلمهم القرآن، عن عبادة بن الصامت قال: «كان الرجل إذا هاجر دفعه النبي ﷺ إلى رجل منا يعلمه القرآن، وكان يُسمَع لمسجد رسول الله ﷺ ضجة بتلاوة القرآن حتى أمرهم رسول الله ﷺ أن يخفضوا أصواتهم لئلا يتغالطوا».

فهذا الحصر للسبقة المذكورين من البخاري بالروايات الثلاث الآنفة الذكر، محمول على أن هؤلاء هم الذين جمعوا القرآن كله فى صدورهم، وعرضوه على النبي ﷺ، واتصلت بنا أسانيدهم أما غيرهم من حفظة القرآن ـ وهم كثرة ـ فلم يتوافر فيهم هذه الأمور كلها، لاسيما وأن الصحابة تفرقوا فى الأمصار، وحفظ بعضهم عن بعض، ويكفي دليلاً على ذلك أن الذين قتلوا فى بئر معونة من الصحابة كان يقال لهم القراء وكانوا سبعين رجلاً كما فى الصحيح.

قال القرطبي: (قد قتل يوم اليمامة سبعون من القراء، وقتل فى عهد النبي ﷺ ببئر معونة مثل هذا العدد).

وهذا هو ما فهمه العلماء وأوّلوا به الأحاديث الدالة على حصر الحفاظ فى السبعة المذكورين، قال الماوردي معلقاً على رواية أنس: (لم يجمع القرآن غير أربعة): لا يلزم من قول أنس (لم يجمعه غيرهم) أن يكون الواقع فى نفس الأمر كذلك، لأن التقدير أنه لا يعلم سواهم جمعه، وإلا فكيف الإحاطة بذلك مع كثرة الصحابة وتفرقهم فى البلاد وهذا لا يتم إلا إن كان يعنى كل واحد منهم على انفراده، وأخبره عن نفسه أنه لم يكمل له جمع فى عهد النبي ﷺ، وهذا فى غاية البعد فى العادة، وإذا كان المرجع إلى ما فى علمه لم يلزم أن يكون الواقع كذلك،

وليس من شرط التواتر أن يحفظ كل فرد جميعه، بل إذا حفظ الكل والكل ولو على التوزيع كفى.

والماوردي بهذا ينفى الشُبَه التي توهم قلة عدد الحفاظ بأسلوب مقنع، ويبين الاحتمالات الممكنة لصيغة الحصر فى حديث أنس بياناً شافياً.

وقد ذكر أبو عبيدة فى كتاب (القراءات) للقراء من أصحاب النبي ﷺ فعد من المهاجرين: الخلفاء الأربعة، وطلحة، وسعداً، وعائشة، وحفصة، وأم سلمة، ومن الأنصار: عبادة بن الصامت، ومعاذ - الذى يكنى أبا حليمة - ، ومجمع بن جارية، وفضالة بن عبيد، ومسلمة بن مخلد.

وصرح بأن بعضهم إنما كمله رسول الله ﷺ، وذكر الحافظ الذهبي فى (طبقات القراء) من هذا العدد من القراء هم الذين عرضوه على النبي ﷺ، واتصلت بنا أسانيدهم، وأما من جمعه منهم ولم يتصل بنا سندهم فكثير.

ومن هذه النصوص يتبين لنا أن حفظة القرآن فى عهد رسول الله ﷺ كانوا جمعاً غفيراً، فإن الاعتماد على الحفظ فى النقل من خصائص هذه الأمة، قال ابن الجزري - شيخ القراء فى عصره- : (إن الاعتماد فى نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور، لا على خط المصاحف والكتب، أشرف خصيصة من الله تعالى لهذه الأمة.

أما جمع القرآن بمعنى كتابته على عهد الرسول ﷺ فقد اتخذ رسول الله ﷺ كُتّاباً للوحي من أجلاء الصحابة كعلى، ومعاوية، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت. كانت تنزل الآية فيأمرهم بكتابتها، ويرشدهم إلى موضعها من سورتها، حتى تظاهر الكتابةُ فى السطور والجمعَ فى الصدور، كما كان بعض الصحابة يكتبون ما ينزل من القرآن ابتداء من أنفسهم دون أن يأمرهم النبي ﷺ، فيخطونه فى العسب واللخاف، والكرانيف والرقاع، والأقتاب، وقطع الأديم، والأكتاف.

عن زيد بن ثابت قال: «كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع»،

وهذا يدل على مدى المشقة التي كان يتحملها الصحابة فى كتابة القرآن، حيث لم يتيسر لهم أدوات الكتابة إلا بهذه الوسائل، فأضافوا الكتابة إلى الحفظ.

وكان جبريل يعارض رسول الله ﷺ بالقرآن كل سنة فى ليالي رمضان، عن عبد الله بن عباس ﷺ «كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون فى رمضان، حين يلقاه جبريل فى كل ليلة من رمضان، فيدارسه القرآن، فلرسول ﷺ حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة».

وكان الصحابة يعرضون على رسول الله ﷺ ما لديهم، ولم تكن هذه الكتابة فى عهد النبي ﷺ مجتمعة فى مصحف عام، بل عند هذا ما ليس عند ذاك، وقد نقل العلماء أن نفراً منهم على بن أبي طالب ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وزيد ابن ثابت وعبد الله بن مسعود قد جمعوا القرآن كله على عهد رسول الله ﷺ، وذكر العلماء أن زيد بن ثابت كان عرضه متأخراً عن الجميع.

وقبض رسول الله ﷺ والقرآن محفوظ فى الصدور، ومكتوب فى الصحف على نحو ما سبق، مفرّق الآيات والسور، أو مرتب الآيات فقط، ومحل سوره فى صحيفة على حدة بالأحرف السبعة الواردة ولم يجمع فى مصحف عام، حيث كان الوحي يتنزل تباعاً فيحفظه القراء، ويكتبه الكتبة، ولم تدعُ الحاجة إلى تدوينه فى مصحف واحد، لأنه عليه الصلاة والسلام كان يترقب نزول الوحي من حين لآخر.

وقد يكون منه الناسى لشيء نزل من قبل، وكتابة القرآن لم يكن ترتيبها بترتيب النزول، بل تكتب الآية بعد نزولها حيث يشير ﷺ إلى وضع كتابتها بين آية كذا وآية كذا فى سورة كذا، ولو جمع القرآن كله بين دفتر مصحف واحد لأدى هذا إلى التغيير كلما ترك شيء من الوحي، قال الزركشي: وإنما لم يكتب فى عهد النبي ﷺ مصحف لئلا يقضى إلى تغييره فى كل وقت، فلهذا تأخرت كتابته إلى أن كمل نزول القرآن بموته ﷺ.

وبهذا يفسر ما روى عن زيد بن ثابت قال: (قبض النبي ﷺ ولم يجمع القرآن فى شيء) أي لم يكن جمع مرتب الآيات والسور فى مصحف واحد.

قال الخطابي: (إنما لم يجمع ﷺ القرآن فى مصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته، فلما انقضى نزوله بوفاته ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك، وفاءً بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة، فكان ابتداء ذلك على يد الصديق بمشورة عمر رضي الله عنهما).

ويسمى هذا الجمع فى عهد النبي ﷺ:

(أ) حفظاً.

(ب) وكتابة (الجمع الأول).

٢- جمع القرآن فى عهد أبي بكر رضي الله عنه:

قام أبو بكر بأمر الإسلام بعد رسول الله ﷺ وواجهته أحداث جسام فى ارتداد جمهرة العرب، فجهز الجيوش وأوفدها لحروب المرتدين، وكانت غزوة أهل اليمامة سنة اثنتى عشرة للهجرة تضم عدداً كبيراً من الصحابة القراء، فاستشهد فى هذه الغزوة سبعون قارئاً من الصحابة، فهال ذلك عمر بن الخطاب، ودخل على أبي بكر ﷺ، وأشار عليه بجمع القرآن وكتابته خشية الضياع، فإن القتل قد استحر يوم اليمامة بالقراء، ويخشى إن استحر بهم فى المواطن الأخرى أن يضيع القرآن وينسى، فنفر أبو بكر من هذه المقالة، وكبر عليه أن يفعل ما لم يفعله رسول الله ﷺ ، وظل عمر يراوده حتى شرح الله صدر أبي بكر لهذا الأمر.

ثم أرسل إلى زيد بن ثابت لمكانته فى القراءة والكتابة والفهم والعقل، وشهوده العرضة الأخيرة، وقص عليه قول عمر، فنفر زيد من ذلك كما نفر أبو بكر من قبل، وتراجعا حتى طابت نفس زيد للكتابة، وبدأ زيد بن ثابت فى مهمته الشاقة معتمداً على المحفوظ فى صدور القراء، والمكتوب لدي الكتبة، وبقيت تلك الصحف عند أبي بكر حتى إذا توفي سنة ثلاث عشرة للهجرة صارت بعده إلى عمر، وظلت عنده حتى مات، ثم كانت عند حفصة ابنته صدراً من ولاية عثمان، حتى طلبها عثمان من حفصة.

عن زيد بن ثابت قال: (أرسل إليَّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده، فقال أبو بكر: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن، وإني أخشى أن يستمر القتل بالقراء فى المواطن، فيذهب كثير من القرآن، وإني أريد أن تأمر بجمع القرآن، فقلت لعمر: كيف نعمل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال عمر: هو والله خير، فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت فى ذلك الذي رأى عمر. قال زيد: قال أبو بكر: إنك شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه. فقال: كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال: هو والله خير. فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذى شرح الله له صدر أبى بكر وعمر، فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال، ووجدت آخر سورة التوبة مع ابن خزيمة الأنصاري، لم أجدها مع غيره﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ (التوبة: ١٢٨) حتى خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر فى حياته، ثم عند حفصة بنت عمر.

وقد راعى زيد بن ثابت نهاية التثبت، فكان لا يكتفي بالحفظ دون الكتابة.

وأما قوله فى الحديث: ووجدت آخر سورة التوبة مع ابن خزيمة الأنصاري لم أجدها مع غيره، لا تنافي هذا، ولا يعنى أنها ليست متواترة، وإنما المراد لم أجدها مكتوبة عند غيره، وقد كان زيد يحفظها، وكان كثير من الصحابة يحفظونها كذلك، لأن زيداً كان يعتمد على الحفظ والكتابة معاً فكانت هذه الآية محفوظة عند كثير منهم، ويشهدون بأنها كتبت، ولكنها لم توجد مكتوبة إلا عند ابن خزيمة الأنصاري.

وأخرج ابن أبى داود من طريق يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب قال: قدم عمر فقال: (من كان تلقى من رسول الله ﷺ شيئاً من القرآن فليأت به، وكانوا يكتبون ذلك فى الصحف والألواح والعسب، وكان لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شهيدان عليه، وهذا يدل على أن زيداً كان لا يكتفي بمجرد وجدانه مكتوباً حتى يشهد به من تلقاه سماعاً.

مع كون زيد كان يحفظ ولكن كان يفعل ذلك مبالغة منه فى الاحتياط.

وأخرج ابن أبي داود أيضاً من طريق هشام بن عروة عن أبيه: «أن أبا بكر قال لعمر ولزيد: اقعدا على باب المسجد، فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه» ورجاله ثقات.

قال ابن حجر: والمراد بالشاهدين الحفظ والكتابة. وقال السخاوي فى «جمال القراء»: المراد أنهما يشهدان على أن ذلك مكتوب كتب بين يدي رسول الله ﷺ، أو المراد أنهما يشهدان على أن ذلك من الوجوه التي نزل بها القرآن.

قال أبو شامة: وكان غرضهم أن لا يكتب إلا من عين ما كُتب بين يدي النبي ﷺ لا من مجرد الحفظ.

ولذلك قال فى آخر سورة التوبة لم أجدها مع غيره، أي لم أجدها مكتوبة مع غيره، لأنه كان لا يكتفى بالحفظ دون الكتابة، هذا وقد عرفنا أن القرآن كان مكتوباً من قبل فى عهد النبي ﷺ ولكنه كان مفرقاً فى الرقاع والأكتاف والعسب، فأمر أبو بكر بجمعه فى مصحف واحد، مرتب الآيات والسور، وأن تكون كتابته غاية فى التثبت مشتملة على الأحرف السبعة التي نزل القرآن بها، فكان أبو بكر ﷺأول من جمع القرآن بهذه الصفة فى مصحف.

وإن وجدت بعض المصاحف فردية عند بعض الصحابة كمصحف عليّ ومصحف أُبيّ ومصحف ابن مسعود، لكنها لم تكن على هذا النحو، ولم تنل حظها من التحري والدقة والجمع والترتيب والاقتصار على ما لم تنسخ تلاوته والإجماع عليها، بمثل ما نال مصحف أبي بكر، فهذه الخصائص تميز بها جمع أبي بكر للقرآن، ويرى بعض العلماء أن تسمية القرآن بالمصحف نشأت منذ ذلك الحين فى عهد أبي بكر بهذا الجمع.

وعن على ﷺ قال: أعظم الناس أجراً فى المصاحف أبو بكر - رحمة الله على أبي بكر - هو أول من جمع كتاب الله. وهذا الجمع هو المسمى بالجمع الثاني.

٣- جمعه فى عهد عثمان ﷺ:

أما الجمع الثالث فكان فى عهد الخليفة الثالث عثمان ﷺ، وذلك كان عندما اتسعت رقعة الإسلام، وكثرت الفتوحات الإسلامية، وتفرق القراء فى الأمصار.

قال الحاكم: والجمع الثالث هو ترتيب السور فى زمن عثمان. روى البخاري عن أنس أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان، وكان يغازى أهل الشام فى فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فاختلف القراء بعضهم على بعض، وخطّأ بعضهم بعضاً، يقول هذا: قراءتي أصح وأفضل من قراءتك، وحرفي أبلغ من حرفك.

قيل: حتى كفّر بعضهم بعضاً، فأفزع حذيفة هذا الاختلاف، فقال لعثمان: أدرك الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى -أي كاختلافهم فى كتابهم- فأرسل عثمان إلى حفصة بنت عمر أن أرسلي إلينا الصحف ننسخها فى المصاحف، ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان.

فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها فى المصاحف.

وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إن اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شيء من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش، فإنه إنما نزل بلسانهم - أي أغلبه - ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة، ثم أرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأرسل مع كل مصحف قارئ توافق قراءته ما فى المصحف، وأهل الأفق الذي سيذهب إليهم، ثم أمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف من المصاحف الخاصة أن يحرق.

قال زيد: فقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها فالتمستها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري:﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ (الأحزاب: ٢٣) فألحقناها فى سورتها فى المصحف.

قال ابن حجر: وكان ذلك فى سنة خمس وعشرين من الهجرة. قال: وغفل بعض من أدركناه، فزعم أنه كان فى حدود سنة ثلاثين ولم يذكر له مستنداً.

وأخرج ابن أشته عن طريق أيوب بن أبي قلابة قال: حدثني رجل من بني عامر، يقال له أنس بن مالك قال: اختلفوا فى القراءة على عهد عثمان حتى اقتتل الغلمان والمعلمون، فبلغ ذلك عثمان بن عفان، فقال: (عندي تكذبون به وتلحنون فيه) فمن نأى كان أشد تكذيباً وأكثر لحناً يا أصحاب محمد اجتمعوا، فاكتبوه للناس إماماً فكانوا إذا اختلفوا وتدارءوا فى آية قالوا: هذه أقرأها رسول الله ﷺ فلاناً، فيرسل إليه وهو على رأس ثلاث من المدينة. فقال له: كيف أقرأك رسول الله ﷺ آية كذا وكذا فيقول كذا كذا فيكتبونها وقد تركوا لذلك مكاناً.

وأخرج ابن أبي داود عن طريق محمد بن سيرين عن كثير بن أفلح قال: لما أراد عثمان أن يكتب المصاحف جمع له اثني عشر رجلاً من قريش والأنصار، فبعثوا إلى الربعة التي فى بيت عمر فجيء بها وكان عثمان يتعاهدهم، فكانوا إذا تدارءوا فى شيء أخروه.

قال محمد فظننت أنما كانوا يؤخرونه لينظروا أحدثهم عهداً بالعرضة الأخيرة فيكتبونه على قوله.

وأخرج ابن أبي داود بسند صحيح عن سويد بن غفلة قال: قال عليٌّ: لا تقولوا فى عثمان إلا خيراً: فوالله ما فعل الذي فعل فى المصاحف إلا عن ملأ منا. قال: ما تقولون فى هذه القراءة فقد بلغنى أن بعضهم يقول: إن قراءتى خير من قراءتك، وهذا يكاد يكون كفراً؟ قلنا: فما ترى؟ قال: أرى أن يجمع الناس على مصحف واحد، فلا تكون فرقة ولا اختلاف. قلنا: نعم ما رأيت.

الفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان:

قال ابن التين وغيره: الفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان، أن جمع أبي بكر كان لخشية أن يذهب من القرآن شيء بذهاب حملته؛ لأنه لم يكن مجموعاً فى موضع

واحد، فجمعه فى صحائف مرتباً لآيات سوره على ما وقفهم عليه النبي ﷺ وجمع عثمان كان لما كثر الاختلاف فى وجوه القراءة، حتى قرءوه بلغاتهم على اتساع اللغات، فأدى ذلك بعضهم إلى تخطئة بعض، فخشي من تفاقم الأمر فى ذلك، فنسخ تلك الصحف فى مصحف واحد مرتباً لسوره.

واقتصر من سائر اللغات على لغة قريش محتجاً بأنه نزل بلغتهم، وإن كان قد وسع قراءته بلغة غيرهم، رفعاً للحرج والمشقة فى ابتداء الأمر، فرأى أن الحاجة إلى ذلك قد انتهت، فاقتصر على لغة واحدة.

وقال القاضي أبو بكر فى «الانتصار»: لم يقصد عثمان قصد أبي بكر فى جمع نفس القرآن بين لوحين، وإنما قصد جمعهم على القراءات الثابتة المعروفة عن النبي ﷺ، وإلغاء ما ليس كذلك، وأخذهم بمصحف لا تقديم فيه ولا تأخير، ولا تأويل أثبت مع تنزيل، ولا منسوخ تلاوته كتب مع ثبت رسمه، ومفروض قراءته، وحفظه؛ خشية دخول الفساد والشبهة على من يأتي بعد.

وقال الحارث المحاسبي: المشهور عند الناس أن جامع القرآن عثمان، وليس كذلك إنما حمل عثمان الناس بوجه واحد على اختيار وقع بينه وبين من يشهده من المهاجرين والأنصار؛ لما خشي الفتنة عند اختلاف أهل العراق والشام فى حروف القراءات، فأما قبل ذلك فقد كانت المصاحف بوجوه من القراءات المطلقات على الحروف السبعة التي نزل بها القرآن، فأما السابق إلى جمع الجملة فهو الصديق، وقد قال عليّ: لو توليت لعملت بالمصاحف عمل عثمان بها. انتهى.

فائدة: اختلف فى عدة المصاحف التي أرسلها عثمان إلى الآفاق فالمشهور أنها خمسة

وأخرج ابن أبى داود من طريق حمزة الزيات قال: أرسل عثمان أربعة مصاحف قال ابن أبى داود: وسمعت أبا حاتم السجستاني يقول: كتب سبعة مصاحف، فأرسل إلى مكة وإلى الشام وإلى البحرين وإلى البصرة وإلى الكوفة، وحبس بالمدينة واحداً.

الإجماع والنصوص المترادفة على أن ترتيب الآيات توقيفي لا شبهة فى ذلك،

وأما الإجماع فنقله غير واحد، منهم الزركشي فى «البرهان» وأبو جعفر ابن الزبير فى مناسباته، وعبارته: «ترتيب الآيات فى سورها واقع بتوقيفه ﷺ وأمره من غير خلاف فى هذا بين المسلمين». انتهى. وسيأتي من نصوص العلماء ما يدل عليه.

وأما النصوص، فمنها حديث زيد السابق: (كنا عند النبي ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع).

ومنها ما أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم عن ابن عباس قال: قلت لعثمان: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني، وإلى براءة وهي من المئين، فقرنتم بينهما، ولم تكتبوا سطر (بسم الله الرحمن الرحيم) ووضعتموها فى السبع الطُوّل ؟ فقال عثمان: كان رسول الله ﷺ تنزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا أنزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب؛ فيقول: ضعوا هؤلاء الآيات فى السورة التي يذكر فيها كذا وكذا.

وكانت الأنفال من أوائل ما نزل فى المدينة، وكانت براءة من آخر القرآن نزولاً، وكانت قصتها شبيهة بقصتها، فظننت أنها منها، فقبض رسول الله ﷺ ولم يتبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر (بسم الله الرحمن الرحيم) ووضعتها فى السبع الطوال.

ومنها ما أخرجه أحمد بإسناد حسن عن عثمان بن أبي العاص قال: كنت جالساً عند رسول الله ﷺ إذ شَخَص ببصره ثم صوبه، ثم قال: «**آتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السور:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ (النحل: ٩٠) إلى آخرها».

ومنها ما أخرجه البخاري عن ابن الزبير قال: قلت لعثمان ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا﴾ قد نسختها الآية الأخرى فِلمَ تكتبها أَوَ تدعها ؟ قال: يا بن أخي لا أغير شيئاً منه من مكانه.

ومنها ما رواه مسلم عن عمر قال: ما سألت النبي ﷺ عن شيء أكثر مما سألته عن الكلالة حتى طعن بإصبعه فى صدري، وقال: «**تكفيك آية الصيف التي فى آخر سورة النساء**».

ومنها الأحاديث فى خواتيم سورة البقرة.

ومنها ما رواه مسلم عن أبي الدرداء مرفوعاً: «**من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال**» وفي لفظ عنده: «**من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف**».

ومن النصوص الدالة على ذلك إجمالاً ما يثبت من قراءته ﷺ لسور عديدة كسورة البقرة وآل عمران والنساء فى حديث حذيفة والأعراف فى صحيح البخاري أنه قرأها فى المغرب، وقد أفلح روى النسائي أنه قرأها فى الصبح حتى إذا جاء ذكر موسى وهارون أخذته سعلة فركع، والروم روى الطبراني أنه قرأها فى الصبح، و ﴿الٓمٓ ۝ تَنزِيلُ﴾ (السجدة: ١)، و﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ (الإنسان: ١).

روى الشيخان أنه كان يقرؤها فى صبح الجمعة، و(ق) فى صحيح مسلم أنه كان يقرأها فى الخطبة، والرحمن فى المستدرك وغيره أنه قرأها بمكة على الكفار وسجد فى آخرها، وقد رأيت عند مسلم أنه كان يقرؤها مع (ق) فى العيد والجمعة، والمنافقون فى مسلم أنه كان يقرأ بها فى صلاة الجمعة.

والصف فى «المستدرك» عن عبد الله بن سلام أنه ﷺ: قرأها عليهم حين أنزلت حتى ختمها فى سور شتى من المفصل، تدل قراءته ﷺ بها بمشهد من الصحابة أن ترتيب آيها توقيفي، وما كان الصحابة ليرتبوا ترتيباً سمعوا النبي ﷺ يقرأ على خلافه، فبلغ ذلك مبلغ التواتر.

نعم يشكل على ذلك ما أخرجه ابن أبى داود فى «المصاحف» من طريق محمد ابن إسحاق عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال: أتي الحارث بن خزيمة بهاتين الآيتين من آخر سورة براءة فقال: أشهد أني سمعتهما من رسول الله ﷺ

ووعيتهما، فقال عمر: وأنا أشهد، لقد سمعتهما ثم قال: لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة، فانظروا آخر سورة من القرآن فألحقوها فى آخرها.

قال ابن حجر: ظاهر هذا أنهم كانوا يؤلفون آيات السور باجتهادهم، وسائر الأخبار تدل على أنهم لم يفعلوا شيئاً من ذلك إلا بتوقيف.

قلت: يعارضه ما أخرجه ابن أبي داود أيضاً، من طريق أبي العالية عن أُبَي بن كعب، أنهم جمعوا القرآن، فلما انتهوا إلى الآية التي فى سورة براءة: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ (التوبة:١٢٧).

ظنوا أن هذا آخر ما أنزل فقال أبي: إن رسول الله ﷺ أقرأني بعد هذا آيتين: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ﴾ (التوبة:١٢٨) إلى آخر السورة.

وقال مكي وغيره: ترتيب الآيات فى السور بأمر من النبي ﷺ ولما لم يؤمر بذلك فى أول براءة تركت بلا بسملة.

وقال القاضي أبو بكر فى «الانتصار»: ترتيب الآيات أمر واجب وحكم لازم، فقد كان جبريل يقول: «ضعوا آية كذا فى موضع كذا».

وقال أيضاً: الذي نذهب إليه أن جميع القرآن الذي أنزله الله وأمر بإثبات رسمه ولم ينسخه ولا رفع تلاوته بعد نزوله، أهو هذا الذي بين الدفتين الذي طواه مصحف عثمان وأنه لم ينقص منه شيء، ولا زيد فيه، وأن ترتيبه ونظمه ثابت على ما نظمه الله تعالى ورتبه عليه رسول الله ﷺ من آي السور، لم يقدم من ذلك مؤخر ولا أخر منه مقدم.

وأن الأمة ضبطت عن النبي ﷺ ترتيب آي كل سورة ومواضعها، وعرفت مواقعها، كما ضبطت عن نفس القراءات وذات التلاوة، وإنه يمكن أن يكون الرسول ﷺ قد رتب سوره، وأن يكون قد وكل ذلك إلى الأمة بعده، ولم يتول ذلك بنفسه.

قال: وهذا الثاني أقرب، وأما ترتيب السور فهل هو توقيفي أو هو باجتهاد من الصحابة خلاف، فجمهور العلماء على الثاني، منهم مالك والقاضي أبو بكر، وإلى الأول ذهب جماعة منهم القاضي فى أحد قوليه، والخلاصة أن ترتيب الآيات توقيفي من رسول الله ﷺ بالإجماع، وأما ترتيب السور ففيه خلاف كما تقدم، والأرجح أنه توقيفي هذا وبالله التوفيق، والله يهدى للحق وإلى الطريق المستقيم، والله أعلم.



بسم الله الرحمن الرحيم

هذا أول مقرر الصف الثالث من قسم تخصص معاهد القراءات بالأزهر - فى علوم القرآن — وأوله

فصل فى العلوم المستنبطة من القرآن

قال الله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ (الأنعام:٣٨)، وقال عز من قائل: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ (النحل: ٨٩).

وقال ﷺ : «**ستكون فتن**» قيل: وما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: «**كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم..**» إلخ الحديث أخرجه الترمذى وغيره.

وأخرج سعيد بن منصور، عن ابن مسعود، قال: « من أراد العلم فعليه بالقرآن، فإن فيه خبر الأولين والآخرين»، قال البيهقى: يعنى أحوال العلم.

وأخرج البيهقى عن الحسن، قال: أنزل الله مائة وأربعة كتب، أودع علومها أربعة منها: التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، ثم أودع علوم الثلاثة الفرقان.

وقال الإمام الشافعى ﷺ جميع ما تقوله الأمة شرح للسنة، وجميع السنة شرح للقرآن.

وقال أيضاً: جميع ما حكم به النبى ﷺ فهو مما فهمه من القرآن. قلت: ويؤيد هذا قوله ﷺ: «**إنى لا أحل إلا ما أحل الله، ولا أحرم إلا ما حرم الله فى كتابه** » أخرجه بهذا اللفظ الشافعى فى «الأم».

وقال سعيد بن جبير: ما بلغنى حديث عن رسول الله ﷺ على وجهه إلا وجدت مصداقه فى كتاب الله.

وقال ابن مسعود: إذا حدثتكم بحديث أنبأتكم بتصديقه من كتاب الله تعالى. أخرجهما ابن حاتم.

وقال الشافعي أيضاً: ليست تنزل بأحد في الدين نازلة، إلا في كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها، فإن قيل: من الأحكام ما ثبت ابتداء بالسنة، قلنا: ذلك مأخوذ من كتاب الله في الحقيقة؛ لأن كتاب الله أوجب علينا اتباع الرسول ﷺ وفرض علينا الأخذ بقوله.

وقال الشافعي مرة بمكة: سلوني عما شئتم أخبركم عنه في كتاب الله، فقيل له: ما تقول في المحرم يقتل الزنبور؟ فقال: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ (الحشر:٧) .

وحدثنا سفيان بن عيينة، عن عبد الملك بن عمير، عن ربعي بن حراش، عن حذيفة بن اليمان، عن النبي ﷺ أنه قال: « **اقتدوا باللذين من بعدي: أبو بكر وعمر** ». وحدثنا سفيان، عن مسعر بن كدام، عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب، عن عمر بن الخطاب، أنه أمر بقتل المحرم الزنبور.

وأخرج البخاري، عن ابن مسعود أنه قال: لعن الله الواشمات والمتوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن، والمغيرات خلق الله تعالى، فبلغ ذلك امرأة من بني أسد، فقالت له إنه بلغني أنك لعنت كيت وكيت. فقال: وما لي لا ألعن من لعن الرسول ﷺ وهو في كتاب الله تعالى؟! فقالت: لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه كما تقول. قال: لئن كنت قرأته لقد وجدته، أما قرأت: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ قالت: بلى. قال: فإنه قد نهى عنه.

وحكى ابن سراقة في كتاب «الإعجاز»، عن أبي بكر ابن مجاهد، أنه قال يوماً: ما شيء في العالم إلا وهو في كتاب الله، فقيل له: فأين ذكر الخانات فيه؟ فقال في قوله: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَـٰعٌ لَّكُمْ﴾ (النور:٢٩) فهي الخانات.

وقال ابن برجان: ما قال النبي ﷺ من شيء فهو في القرآن به أو فيه أصله، قرب أو بعد، فهمه من فهمه، وعمه عنه من عمه، وكذا كل ما حكم أو قضى،

وإنما يدرك الطالب من ذلك بقدر اجتهاده، وبذل وسعه، ومقدار فهمه.

وقال غيره: ما من شيء إلا يمكن استخراجه من القرآن لمن فهّمه الله، حتى أن بعضهم استنبط عمر النبى ﷺ ثلاث وستين سنة من قوله فى سورة المنافقين: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ (المنافقون:١١)، فإنها رأس ثلاث وستين سورة وعقبها بالتغابن ليظهر التغابن فى فقده.

وقال ابن أبى الفضل المرسى فى تفسيره: جمع القرآن علوم الأولين والآخرين، بحيث لم يحط بها علماً حقيقية إلا المتكلم بها ثم رسول الله ﷺ خَلا ما استأثر به سبحانه وتعالى، ثم ورث ذلك عنه – معظم ذلك – السادات الصحابة وأعلامهم، مثل: الخلفاء الأربعة وابن مسعود وابن عباس، حتى قال: لو ضاع لى عقال بعير لوجدته فى كتاب الله تعالى، ثم ورث عنهم التابعون بإحسان، ثم تقاصرت الهمم، وفترت العزائم، وتضاءل أهل العلم، وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومهم وسائر فنونه، فنوعوا علومه، وقامت كل طائفة بفن من فنونه، فاعتنى قوم بضبط لغاته وتحرير كلماته، ومعرفة مخارج حروفه، وعددها، وعدد كلماته، وآياته، وسوره، وأحزابه، وأنصافه، وأرباعه، وعدد سجداته، والتعليم عند كل عشر آيات إلى غير ذلك من حصر الكلمات المتشابهة والآيات المتماثلة من غير تعرض لمعانيه، ولا تدبر لما أودع فيه فسموا القراء.

واعتنى النحاة بالمعرب منه والمبنى من الأسماء والأفعال، والحروف العاملة بغيرها، وأوسعوا الكلام فى الأسماء وتوابعها، وضروب الأفعال، واللازم والمتعدى، ورسوم خط الكلمات، وجميع ما يتعلق به، حتى إن بعضهم أعرب مشكله، وبعضهم أعربه كلمة كلمة.

واعتنى المفسرون بألفاظه، فوجدوا منه لفظاً يدل على معنى واحد، ولفظاً يدل على معنيين، ولفظاً يدل على أكثر، فأجروا الأول على حكمه، وأوضحوا معنى الخفى منه، وخاضوا فى ترجيح أحد محتملات ذى المعنيين والمعاني، وأعمل كل منهم فكره، وقال فيه بما اقتضاه نظره.

واعتنى الأصوليون بما فيه من الأدلة العقلية والشواهد الأصلية والنظرية مثل قوله تعالى ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء: ٢٢)، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة فاستنبطوا منه أدلة على وحدانية الله ووجوده وبقائه وقدمه وقدرته وعلمه، وتنزيهه عما لا يليق به، وسموا هذا العلم بأصول الدين.

وتأملت طائفة منهم معانى خطابه، فرأت منها ما يقتضى العموم، ومنها ما يقتضى الخصوص، إلى غير ذلك، فاستنبطوا منه أحكام اللغة من الحقيقة والمجاز، وتكلموا فى التخصيص والأخبار والنص والظاهر والمجمل والمحكم والمتشابه والأمر والنهى، والنسخ إلى غير ذلك من أنواع الأقيسة، واستصحاب الحال والاستقراء، وسموا هذا الفن أصول الفقه.

وأحكمت طائفة صحيح النظر وصادق الفكر فيما فيه من الحلال والحرام، وسائر الأحكام، فأسسوا أصوله، وفرعوا فروعه، وبسطوا القول فى ذلك بسطاً حسناً، وسموه بعلم الفروع والفقه أيضاً.

وتتبعت طائفة ما فيه من قصص القرون السالفة والأمم الخالية، ونقلوا آثارهم ووقائعهم حتى ذكروا بدء الدنيا وأول الأشياء، وسموا ذلك بالتاريخ والقصص، وتنبه آخرون لما فيه من الحكم والأمثال والمواعظ، التى تغلغل قلوب الرجال، وتكاد تدكدك الجبال، فاستنبطوا مما فيه من الوعد والوعيد والتحذير والتبشير وذكر الموت والمعاد، والنشر والحشر، والحساب والعقاب، والجنة والنار، فصولاً من المواعظ، وأصولاً من الزواجر، فسموا بذلك الخطباء والوعاظ.

واستنبط قوم مما فيه من أصول التعبير مثل ما ورد فى قصة يوسف فى البقرات السمان، وفى منامى صاحبى السجن، وفى رؤياه الشمس والقمر والنجوم ساجدة، وسموه تعبير الرؤيا.

واستنبطوا تفسير كل رؤيا من الكتاب، فإن عزَّ عليهم إخراجها منه، فمن السنة التى هى شارحة للكتاب، فإن عسر فمن الحكم والأمثال، ثم نظروا إلى اصطلاح العوام فى مخاطباتهم، وعُرْف عاداتهم الذى أشار إليه القرآن بقوله: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ (الأعراف:١٩٩).

وأخذ قوم مما فى آية المواريث من ذكر السهام وأربابها وغير ذلك علم الفرائض ومسائل العول واستخرجوا منه أحكام الوصايا.

ونظر قوم إلى ما فيه من الآيات الدالات على الحكم الباهرة فى الليل والنهار والشمس، والقمر ومنازله، والنجوم، والبروج، وغير ذلك، فاستخرجوا منه علم المواقيت.

ونظر الكُتّاب والشعراء إلى ما فيه من جزالة اللفظ وبديع النظم وحسن السياق، والمبادئ والمقاطع والمخالص، والتلوين فى الخطاب من الإطناب والإيجاز، وغير ذلك، فاستنبطوا منه المعانى والبيان والبديع.

ونظر فيه أرباب الإشارات وأصحاب الحقيقة، فلاح لهم من ألفاظه معانٍ ودقائق، جعلوا لها أعلاماً اصطلحوا عليها، مثل الفناء والبقاء والحضور والخوف والهيبة والأنس والوحشة، والقبض والبسط، وما أشبه ذلك، فهذه الفنون التى أخذتها الملة الإسلامية منه.

وقد احتوى على علوم أخرى من علوم الأوائل مثل الطب والجدال والهيئة والهندسة والجبر والمقابلة والنجامة وغير ذلك، أما الطب فمداره على حفظ نظام الصحة واستحكام القوة، وذلك إنما يكون باعتدال المزاج بتفاعل الكيفيات المتضادة، وقد جمع ذلك فى آية واحدة وهى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ (الفرقان: ٦٧).

وعرفنا فيه ما يعيد نظام الصحة بعد اختلاله، وحدوث الشفاء للبدن بعد اعتلاله فى قوله ﴿شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ (النحل: ٦٩)، ثم زاد على طب الأجسام بطب القلوب وشفاء الصدور.

وأما الهيئة ففى تضاعيف سوره، من الآيات التى ذكر فيها ملكوت السموات والأرض، وما بث فى العالم العلوى والسفلى من المخلوقات.

وأما الهندسة ففى قوله: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾(المرسلات:٣٠) الآية.

وأما الجدل فقد حوت آياته من البراهين والمقدمات والنتائج والقول بالموجب والمعارضة وغير ذلك شيئاً كثيراً، ومناظرة إبراهيم نمروذ ومحاجته قومه أصل فى ذلك عظيم.

وأما الجبر والمقابلة فقد قيل: إن أوائل السور فيها ذكر مدد وأعوام وأيام لتواريخ أمم سالفة، وإن فيها تاريخ بقاء هذه الأمة ، وتاريخ مدة أيام الدينات، وما مضى وما بقى مضروب بعضها فى بعض.

وأما النجامة ففى قوله: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ (الأحقاف:٤)، فقد فسره بذلك ابن عباس. وفيه أصول الصنائع وأسماء الآلات التى تدعو الضرورة إليها: كالخياطة فى قوله: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ﴾.

والحدادة فى قوله: ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ﴾ ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ فى آيات.

والنجارة من قوله: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾.

والغزل من قوله: ﴿نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾.

والنسج فى قوله : ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾.

والفلاحة: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾.

والصيد فى آيات منها: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ﴾.

والغوص فى: ﴿كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾، ﴿وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً﴾.

والصياغة: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا﴾.

والزجاج: ﴿صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾، ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾.

والفخارة: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾.

والملاحة: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ﴾.

والكتابة: ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾.

والخبز: ﴿أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا﴾.

والطبخ فى قوله: ﴿جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ﴾.
والغسل والقصارة: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾ قال: الحواريون، وهم القصارون.
والجزارة في: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ﴾.
والبيع والشراء فى آيات: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ﴾.
والصبغ: ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِ) ، ﴿جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ﴾.
والحجارة: ﴿وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا﴾ .
والكيالة والوزن فى آيات كثيرة.
والرمي: ﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ﴾، ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾.

وفيه من أسماء الآلات، وضروب المأكولات والمشروبات والمنكوحات وجميع ما وقع ويقع فى الكائنات ما يحقق معنى قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ﴾ (الأنعام:٣٨)، انتهى ملخصاً.

وقال ابن سراقة: فمن بعض وجوه إعجاز القرآن الكريم ما ذكر الله فيه من أعداد الحساب والجمع والقسمة والضرب والموافقة والتأليف والمناسبة والتصنيف والمضاعفة؛ ليعلم بذلك أهل العلم بالحساب أنه ﷺ صادق فى قوله، وأن القرآن ليس من عنده، إذ لم يكن ممن خالط الفلاسفة، ولا تلقى الحساب وأهل الهندسة، ولم يتعلم فى مدرسة ولا فى جامعة.

وقال الراغب: إن الله تعالى كما جعل نبوة النبيين بنبوة نبينا محمد ﷺ مختتمة، وشرائعهم بشريعته من وجه منتسخة، ومن وجه مكملة متممة، جعل كتابه المنزل عليه متضمناً لثمرة كتبه التى أولاها أولئك، كما نبّه عليه بقوله: ﴿يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ۝ فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ﴾ (البينة:٢-٣) ، وجعل من معجزة هذا الكتاب أنه مع قلة الحجم متضمن للمعنى الجم، بحيث تقصر الألباب البشرية عن إحصائه والآلات الدنيوية عن استيفائه.

كما نبّه عليه بقوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ

بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ (لقمان:٢٧)، فهو وإن كان لا يخلو للناظر فيه من نور ما يريه ونفع ما يوليه، كالبدر من حيث التفتَ رأيته يهدى إلى عينيك نوراً ثاقبا، كالشمس فى كبد السماء، وضوؤها يغشى البلاد مشارقاً ومغارباً. وأخرج أبو نعيم وغيره عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، قال: قيل لموسى عليه السلام: «يا موسى إنما مثل كتاب أحمد فى الكتب بمنزلة وعاء فيه لبن كلما فحصته أخرجت زبدته».

وقال القاضى أبو بكر ابن العربى فى «قانون التأويل»: علوم القرآن خمسون علماً وأربعمائة علم وسبعة آلاف علم وسبعون ألف علم، على عدد كلم القرآن مضروبة فى أربعة، إذ لكل كلمة ظهر وبطن وحد ومطلع، وهذا مطلق دون اعتبار تركيب وما بينها من روابط، وهذا مالا يحصى ولا يعلمه إلا الله، قال: وأما علوم القرآن فثلاثة: توحيد وتذكير وأحكام.

فالتوحيد: يدخل فيه معرفة المخلوقات ومعرفة الخالق بأسمائه وصفاته وأفعاله.

والتذكير: منه الوعد والوعيد والجنة والنار وتصفية الظاهر والباطن.

والأحكام: منها التكاليف كلها وتبيين المنافع والمضار والأمر والنهى والندب، ولذلك كانت الفاتحة أم القرآن؛ لأن فيها الأقسام الثلاثة، وسورة الإخلاص لاشتمالها على أحد الأقسام الثلاثة وهو التوحيد.

وقال ابن جرير: القرآن يشتمل على ثلاثة أشياء التوحيد والإخبار والديانات، ولهذا كانت سورة الإخلاص ثلثه؛ لأنها تشمل التوحيد كله.

وقال عليّ بن عيسى: القرآن يشتمل على ثلاثين شيئاً الإعلام والتشبيه والأمر والنهى والوعد والوعيد، ووصف الجنة والنار، وتعلّم الإقراء بسم الله وصفاته وأفعاله وتعليم الاعتراف بأنعامه، والاحتجاج على المخالفين، والرد على الملحدين، والبيان عن الرغبة والرهبة، والخير والشر، والحسن والقبيح، ونعت الحكمة، وفضل المعرفة، ومدح الأبرار، وذم الفجار، والتسليم والتحسين، والتوكد والتقريع، والبيان عن ذم الأخلاق، وشرف الآداب.

وقال شيذلة: وعلى التحقيق إن تلك الثلاثة التى قالها ابن جرير تشمل هذه كلها، بل أضعافها، فإن القرآن لا يستدرك، ولا تحصى عجائبه.

وأنا أقول: قد اشتمل كتاب الله العزيز على كل شيء، أما أنواع العلوم فليس منها باب ولا مسألة هى أصل إلا وفى القرآن ما يدل عليها، وفيه عجائب المخلوقات، وملكوت السموات والأرض، وما فى الأفق الأعلى، وتحت الثرى، وبدء الخلق، وأسماء مشاهير الرسل والملائكة، وعيون أخبار الأمم السالفة.

كقصة آدم مع إبليس فى إخراجه من الجنة، وفى الولد الذى سماه عبد الحارث، ورفع إدريس وغرق قوم نوح، وقصة عاد الأولى والثانية وثمود والناقة، وقوم يونس، وقوم شعيب، والأولين والآخرين، وقوم لوط، وقوم تبع، وأصحاب الرس، وقصة إبراهيم فى مجادلة قومه، ومناظرته نمروذ، ووضعه إسماعيل مع أمه بمكة، وبنائه البيت وقصة الذبيح وقصة يوسف وما أبسطها، وقصة موسى فى ولادته وإلقائه فى اليم، وقتل القبطي، ومسيره إلى مدين، وتزوجه بنت شعيب، وكلام الله تعالى له بجانب الطور، ومجيئه إلى فرعون وخروجه وإغراق عدوه، وقصة العجل والقوم الذين خرج بهم وأخذتهم الصاعقة، وقصة القتيل وذبح البقرة، وقصته مع الخضر، وقصته فى قتال الجبارين، وقصة القوم الذين ساروا فى سرب من الأرض إلى الصين، وقصة طالوت وداود مع جالوت وفتنته، وقصة سليمان وخبره مع ملكة سبأ، وفتنته، وقصة القوم الذين خرجوا فراراً من الطاعون فأماتهم الله ثم أحياهم، وقصة ذى القرنين، ومسيره إلى مغرب الشمس ومطلعها وبنائه السد، وقصة أيوب، وذى الكفل، وإلياس، وقصة مريم وولادتها، وعيسى وإرساله ورفعه، وقصة زكريا وابنه يحيى، وقصة أصحاب الكهف، وقصة أصحاب الرقيم، وقصة بختنصر، وقصة الرجلين اللذين لأحدهما الجنة، وقصة أصحاب الجنة، وقصة مؤمن آل يس، وقصة أصحاب الفيل.

وفيه من شأن النبى ﷺ دعوة إبراهيم به، وبشارة عيسى، وبعثه وهجرته،

ومن غزواته سرية ابن الحضرمى فى البقرة، وغزوة بدر فى سورة الأنفال، وأحد فى آل عمران، وبدر الصغرى فيها، والخندق فى الأحزاب، والحديبية فى الفتح، والنضير فى الحشر، وحنين وتبوك فى براءة، وحجة الوداع فى المائدة، ونكاحه زينب بنت جحش وتحريم سريته، وتظاهر أزواجه عليه، وقصة الإفك، وقصة الإسراء، وانشقاق القمر، وسحر اليهود إياه.

وفيه بدء خلق الإنسان إلى موته، وكيفية الموت، وقبض الروح، وما يُفعَل بها بعد، وصعودها إلى السماء، وفتح الباب للمؤمنة، وإلقاء الكافرة، وعذاب القبر والسؤال فيه، ومقر الأرواح وأشراط الساعة الكبرى وهي: نزول عيسى، وخروج الدجال، ويأجوج، والدابة، والدخان، ورفع القرآن، والخسف، وطلوع الشمس من مغربها، وغلق باب التوبة، وأحوال البعث من النفخات الثلاث: نفخة الفزع، ونفخة الصعق، ونفخة القيام، والحشر والنشر، وأهوال الموقف، وشدة حر الشمس، وظل العرش، والميزان، والحوض، والصراط، والحساب، والقوة، ونجاة آخرين منه، وشهادة الأعضاء، وإتيان الكتب بالأيمان والشمائل وخلف الظهر، والشفاعة، والمقام المحمود، والجنة وأبوابها وما فيها من الأنهار والأشجار والثمار والحلى والأوانى والدرجات ورؤيته تعالى، والنار وأبوابها وما فيها من الأودية وأنواع العقاب وألوان العذاب، والزقوم، والحميم.

وفيه جميع أسمائه تعالى الحسنى كما ورد فى الحديث، ومن أسمائه مطلقاً ألف اسم، ومن أسماء النبى ﷺ جملة.

وفيه شعب الإيمان البضع والسبعون، وشرائع الإسلام الثلاثمائة وخمسة عشر.

وفيه أنواع الكبائر، وكثير من الصغائر، وفيه تصديق كل حديث ورد عن النبى ﷺ ، إلى غير ذلك مما يحتاج شرحه إلى مجلدات.

وقد أفرد الناس كتباً فيما تضمنه القرآن من الأحكام، كالقاضى إسماعيل، وبكر بن العلاء، وأبى بكر الرازي، وأبى بكر ابن العربي، وعبد المنعم بن الفرس،

وابن خويز منداد وأفرد آخرون كتباً فيما تضمنه من علم الباطن، وأفرد ابن يرجان كتباً فيما تضمنه من معاضدة الأحاديث، قال الإمام السيوطى ﷺ: وقد ألفت كتاباً سميته (الإكليل فى استنباط التنزيل) ذكرت فيه كل ما استنبط منه من مسألة فقهية أو أصلية أو اعتقادية، وبعضاً مما سوى ذلك فهو كثير الفائدة، جم العائدة، يجرى مجرى الشرح لما أجملته فى هذا النوع.

وقال الغزالي: آيات الأحكام خمسمائة آية، وقيل مائة وخمسون، ولعل المقصود الآيات الصريحة، وإلا فإن فى بعض آيات القصص والأمثال وغيرها ما يستنبط منها كثير من الأحكام، ويقول عز الدين بن عبد السلام فى كتاب «الإمام فى أدلة الأحكام»: معظم آى القرآن لا يخلو عن أحكام مشتملة على آداب حسنة، وأخلاق جميلة، ثم من الآيات ما صرح فيه بالأحكام، فمنها ما يؤخذ بطريق الاستنباط، إما بلا ضم إلى آية أخرى كاستنباط صحة أنكحة الكفار من قوله: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ (المسد:٤).

وصحة صوم الجنب من قوله: ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ﴾ (البقرة:١٨٧)، إلى قوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ....﴾ الآية، وإما به كاستنباط أن أقل الحمل ستة أشهر من قوله: ﴿وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ (لقمان:١٤)، قال: ويستدل على الأحكام تارة بالصيغة وهو ظاهر، وتارة بالأخبار مثل: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾و﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ (المائدة:٣) و﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ (البقرة:١٨٣)، وتارة بما رتب عليها فى العاجل أو الآجل، من خير أو شر، أو نفع أو ضر، وقد نوَّع الشارع ذلك أنواعاً كثيرة ترغيباً لعباده، وترهيباً وتقريباً إلى أفهامهم، فكل فعل عظمه الشرع أو مدحه أو مدح فاعله لأجله أو أحبه أو أحب فاعله، أو رضى به أو رضى عن فاعله أو وصفه بالاستقامة أو البركة أو الطيب أو أقسم به أو بفاعله، كالإقسام بالشفع والوتر وبخيل المجاهدين، وبالنفس اللوامة أو نصبه سبب لذكره لعبده أو لمحبته أو لثواب عاجل أو آجل أو لشكره له أو لهدايته إياه، أو لإرضاء فاعله، أو لمغفرة ذنبه وتكفير سيئاته أو لقبوله أو لنصره فاعله أو بشارته، أو وصف فاعله بالطيب أو

وصف الفعل بكونه معروفا أو نفى الحزن والخوف عن فاعله، أو وعده بالأمن أو نصب سبباً لولايته، أو أخبر عن دعاء الرسول بحصوله، أو وصفه بكونه قربة أو بصفة مدح كالحياة والنور والشفاء، فهو دليل على مشروعيته المشتركة بين الوجوب والندب.

وكل فعل طلب الشارع تركه أو ذمه أو ذم فاعله أو عتب عليه أو مقت فاعله أو لعنه، أو نفى محبته أو محبة فاعله، أو الرضا به أو عن فاعله أو شبه فاعله بالبهائم أو بالشياطين، أو جعله مانعاً من الهدى أو من القبول أو وصفه بسوء أو كراهة أو استعاذ الأنبياء منه أو أبغضوه، أو جعل سبباً لنفى الفلاح أو لعذاب عاجل أو آجل، أو لذم أو لوم أو ضلالة أو معصية، أو وصف بخبث أو رجس أو نجس، أو بكونه فسقاً أو إثماً أو سبباً لإثم أو رجس أو لعن أو غضب، أو زوال نعمة، أو حلول نقمة، أو حد من الحدود، أو قسوة أو خزى أو ارتهان نفس، أو لعداوة الله ومحاربته، أو لاستهزائه، أو سخريته، أو جعله الله سبباً لنسيانه فاعله، أو وصفه نفسه بالصبر عليه أو بالحلم، أو بالصفح عنه، أو دعا إلى توبة منه، أو وصف فاعله بخبث أو احتقار أو نسبه إلى عمل الشيطان، أو تزيينه، أو تولى الشيطان لفاعله، أو وصفه بصفة ذم ككونه ظلماً أو بغياً، أو عدواناً أو إثماً أو مرضاً، أو تبرأ الأنبياء منه أو من فاعله، أو شكراً إلى الله من فاعله أو جاهروا فاعله بالعداوة، أو نهوا عن الأسى والحزن عليه، أو نصب سبباً لخيبة فاعله عاجلاً أو آجلاً، أو رتب عليه حرمان الجنة وما فيها، أو وصف فاعله بأنه عدو الله، أو بأن الله عدوه، أو أعلم فاعله بحرب من الله ورسوله، أو حمل فاعله إثم غيره، أو قيل فيه لا ينبغى هذا أو لا يكون، أو أمر بالتقوى عند السؤال عنه أو أمر بفعل مضاده أو يجهر فاعله، أو تلاعن فاعلوه فى الآخرة أو تبرأ بعضهم من بعض، أو دعا بعضهم على بعض، أو وصف فاعله بالضلالة، وأنه ليس من الله فى شيء، أو ليس من الرسول وأصحابه، أو جعل اجتنابه سبباً للفلاح، أو جعله سبباً لإيقاع العداوة والبغضاء بين المسلمين.

أو قيل هل أنت منته، أو نهى الأنبياء عن الدعاء لفاعله، أو رتب عليه إبعاداً أو طرداً أو لفظة (قتل من فعله) أو (قاتله الله)، أو أخبر أن فاعله لا يكلمه الله يوم القيامة، ولا ينظر إليه ولا يزكيه، ولا يصلح عمله، ولا يهدى كيده، أو لا يفلح، أو قيض له الشيطان، أو جعل سبباً لإزاغة قلب فاعله، أو صرفه عن آيات الله، وسؤاله عن علة الفعل، فهو دليل على المنع من الفعل، ودلالته على التحريم أظهر من دلالته على مجرد الكراهة.

وتستفاد الإباحة من لفظ الإخلال، ونفى الجناح والحرج والإثم والمؤاخذة، ومن الإذن فيه والعفو عنه، ومن الامتنان بما فى الأعيان من المنافع، ومن السكوت عن التحريم، ومن الإنكار على من حرم الشيء من الإخبار بأنه خلق أو جعل لنا.

والإخبار عن فعل من قبلنا من غير ذم لهم عليه، فإن اقترن بإخباره مدح دل على مشروعيته وجوباً أو استحباباً. انتهى من كلام الشيخ عز الدين.

وقال غيره: قد يستنبط من السكوت، وقد استدل جماعة على أن القرآن غير مخلوق، بأن الله ذكر الإنسان فى ثمانية عشر موضعاً، وقال: إنه مخلوق، وذكر القرآن فى أربعة وخمسين موضعاً، ولم يقل إنه مخلوق، ولما جمع بينهما غاير فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ (الرحمن:١-٣)، فلم يقل خلق القرآن. وقال أهل السنة: كلام الله منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، وهو مكتوب فى المصاحف، محفوظ فى الصدور، مقروء بالألسنة، مسموع بالآذان إلخ .. والله أعلم.

القَسَم وأنواعه فى القرآن

قد أفرد الإمام أبو الحسن الماوردى هذا الباب بالتصنيف فى مجلد سماه «التبيان»، والقصد من القسم تحقيق الخبر وتوكيده، حتى جعلوا مثل: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ (المنافقون:١)، قسماً وإن كان فيه إخبار بشهادة، لأنه لما جاء توكيداً للخبر سمى قسماً.

وقد قيل: ما معنى القسم منه تعالى، فإنه إن كان لأجل المؤمن، فالمؤمن مصدق

بمجرد الإخبار من غير قسم، وإن كان لأجل الكافر فلا يفيده؟ وأجيب بأن القرآن نزل بلغة العرب، ومن عادتها القسم إذا أرادت أن تؤكد أمراً، وأجاب أبو القاسم القشيرى: بأن الله ذكر القسم لكمال الحجة وتأكيدها، وذلك أن الحكم يفصل باثنين: إما بشهادة وإما القسم، فذكر تعالى فى كتابه النوعين حتى لا يبقى لهم حجة فقال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ (آل عمران:١٨)، وقال:﴿قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ (يونس: ٥٣)، وعن بعض الأعراب أنه لما سمع قوله تعالى:﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ﴾ (الذاريات: ٢٢-٢٣)، صرخ وقال: من ذا الذى أغضب الجليل حتى ألجأه إلى اليمين.

ولا يكون القسم إلا باسم معظم، وقد أقسم الله تعالى بنفسه فى القرآن فى سبعة مواضع:

الآية المذكورة وقوله: ﴿قُلْ إِى وَرَبِّىٓ﴾ (يونس:٥٣).

﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾ (التغابن:٧).

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ (مريم:٦٨).

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الحجر:٩٢).

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (النساء:٦٥).

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ (المعارج:٤٠).

والباقى كله قسم بمخلوقاته، كقوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ (التين:١)، ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾،﴿وَٱلشَّمْسِ﴾،﴿وَٱلَّيْلِ﴾، ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾، ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ﴾ (التكوير:١٥).

فإن قيل: كيف أقسم بالخلق، وقد ورد النهى عن القسم بغير الله؟ قلنا: أجيب عنه بأوجه:

أحدها: أنه على حذف مضاف، أى ورب التين ورب الشمس، وكذا الباقي.

الثاني: أن العرب كانت تعظم هذه الأشياء، وتقسم بها، فنزل القرآن على ما يعرفون ويسمعون.

والثالث: أن الأقسام إنما تكون بما يعظمه المقسم أو يُجله وهو فوقه، والله تعالى ليس شيء فوقه، فأقسم تارة بنفسه وتارة بمصنوعاته، لأنها تدل على بارئها وصانعها.

وقال ابن أبى الأصبع فى «أسرار الفواتيح»: القسم بالمصنوعات يستلزم القسم بالصانع؛ لأن ذكر المفعول يستلزم ذكر الفاعل، إذ يستحيل وجود مفعول بغير فاعل.

وأخرج ابن أبى حاتم، عن الحسن قال: إن الله يقسم بما شاء من خلقه، وليس لأحد أن يقسم إلا بالله.

وقال العلماء: أقسم الله تعالى بالنبى ﷺ فى قوله: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ لتعرف الناس عظمته عند الله ومكانته لديه. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: ما خلق الله ولا ذرأ ولا برأ أنفساً أكرم عليه من محمد ﷺ ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره، قال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (الحجر:٧٢).

وقال أبو القاسم القشيري: القسم بالشيء لا يخرج عن وجهين، إما الفضيلة أو المنفعة فالفضيلة كقوله: ﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ (التين: ٢-٣) والمنفعة نحو: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾.

وقال غيره: أقسم الله تعالى بثلاثة أشياء، بذاته كالآيات السابقة، وبفعله نحو: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ (الشمس: ٥-٧)، وبمفعوله نحو: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ (النجم:١)، ﴿وَٱلطُّورِ ۝ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ (الطور:١-٢).

والقسم إما ظاهر كالآيات السابقة، وإما مضمر، وهو قسمان قسم دلت عليه اللام نحو : ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ (آل عمران: ١٨٦)، وقسم دل عليه المعنى نحو: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ (مريم: ٧١)، تقديره (والله).

وقال أبو علىّ الفارسي: الألفاظ الجارية مجرى القسم ضربان:

أحدهما: ما تكون كغيرها من الأخبار التى ليست بقسم، فلا تجاب بجوابه كقوله: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (الحديد:٨) ، ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟﴾ (البقرة:٦٣)، ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ (التوبة: ٩٦)، وهذا ونحوه يجوز أن يكون قسماً، وأن يكون حالاً لخلوه من الجواب.

والثاني: ما يتلقى بجواب القسم كقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران:١٨٧)، ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ (النور:٥٣).

وقال غيره: أكثر الأقسام فى القرآن المحذوفة الفعل لا تكون إلا بالواو، فإذا ذكرت الباء أتى بالفعل، كقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾، ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ولا تجد الباء مع حذف الفعل، ومن ثمَّ كان خطأ من جعل الجمل الآتية قسماً: ﴿بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ﴾ (لقمان:١٣)، ﴿عَهِدَ عِندَكَ﴾ (الأعراف: ١٣٤)، ﴿بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ (المائدة:١١٦).

وقال ابن القيم: اعلم أنه سبحانه وتعالى يقسم بأمور على أمور، وإنما يقسم بنفسه المقدسة الموصوفة بصفاته، أو بآياته المستلزمة لذاته وصفاته، وإقسامه ببعض المخلوقات دليلٌ على أنها من عظيم آياته، فالقسم إما على جملة خبرية وهو الغالب، كقوله: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ (الذاريات:٢٣).

وإما على جملة طلبية كقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (الحجر: ٩٢-٩٣)، مع أن هذا القسم قد يراد به تحقيق المقسم عليه، فيكون من باب الخبر، وقد يراد به تحقيق القسم، فالمقسم عليه يراد بالقسم توكيده وتحقيقه، فلابد أن يكون مما يحسن فيه، وذلك كالأمور الغائبة والخفية إذا أقسم على ثبوتها، فأما الأمور المشهودة الظاهرة كالشمس والقمر، والليل والنهار، والسماء والأرض، فهذه يقسم بها ولا يقسم عليها، وما أقسم عليه الرب فهو من آياته فيجوز أن يكون مقسماً به ولا ينعكس، وهو سبحانه وتعالى يذكر جواب القسم تارة وهو الغالب، ويحذفه أخرى، كما يحذف جواب (لو) كثيراً للعلم به.

والقسم لما كان يكثر فى الكلام، اختصر فصار فعل القسم يحذف، ويكتفى بالباء، ثم عرض من الباء الواو فى الأسماء الظاهرة، والتاء فى اسم الله تعالى كقوله: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ (الأنبياء: ٥٧).

قال: ثم هو سبحانه وتعالى يقسم على أصول الإيمان التى تجب على الخلق

معرفتها، تارة يقسم على التوحيد، وتارة يقسم على أن القرآن حق، وتارة على أن الرسول حق، وتارة على أن الجزاء والوعد والوعيد، وتارة يقسم على حال الإنسان.

فالأول: كقوله: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ﴾.

والثاني: كقوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ (الواقعة: ٧٥-٧٦).

والثالث: كقوله: ﴿يسٓ ۝ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ (يس:١-٣)، ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ﴾ (النجم:١-٢).

والرابع: كقوله: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ۝ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ﴾ (الذاريات: ٥-٦)، ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ﴾ (المرسلات:٧).

والخامس: كقوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾، ﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ﴾ وإلى قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ﴾ (العاديات:٦)، ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾، ﴿وَٱلتِّينِ﴾ إلى قوله: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ (التين:٤)، ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾، إلى قوله: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ (البلد:٤).

قال: وأكثر ما يحذف الجواب إذا كان فى نفس المقسم به دلالة على المقسم عليه فإن المقصود يحصل بذكره فيكون حذف المقسم عليه أبلغ وأوجز، كقوله: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ (ص:١)، فإنه فى القسم به من تعظيم القرآن ووصفه بأنه (ذو الذكر) المتضمن لتذكير العباد لما يحتاجون إليه، والشرف والقدر، ما يدل على المقسم عليه، وهو كونه حقاً من عند الله غير المفترى كما يقوله الكافرون، ولهذا قال كثيرون: إن تقدير الجواب (إن القرآن لحق) وهذا مطرد فى كل ما شابه ذلك، كقوله: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ (ق:١)، وقوله: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ (القيامة:١)، فإنه يتضمن إثبات المعاد، وقوله: ﴿وَٱلۡفَجۡرِ﴾ الآيات، فإنها أزمان تتضمن أفعالاً معظمة من المناسك وشعائر الحج التى هى عبودية محضة لله تعالى وذل وخضوع لعظمته، وفى ذلك تعظيم ما جاء به محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام.

قال: ومن لطائف القسم قوله: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۞ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ (الضحى:١-٢)، الآيات، أقسم تعالى على إنعامه على رسوله وإكرامه له، وذلك متضمن لتصديقه له، فهو قسم على النبوة والمعاد، وأقسم بآيتين عظيمتين من آياته، وتأمل مطابقة هذا القسم، وهو نور الوحى الذى وافاه بعد احتباسه عنه، حتى قال أعداؤه ودع محمداً ربُّه وقلاه. فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحى ونوره بعد ظلمة احتباسه واحتجابه.

قال العز بن عبد السلام إنما ضرب الله الأمثال فى القرآن تذكيراً ووعظاً فما اشتمل منها على تفاوت فى ثواب، أو على إحباط عمل، أو على مدح، أو ذم، أو نحوه، فإنه يدل على الأحكام، والله أعلم.

الأمثال فى القرآن الكريم

أفرده بالتصنيف الإمام أبو الحسن الماوردى من كبار أصحابنا، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾(الزمر:٢٧)

وأخرج البيهقى عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن القرآن نزل على خمسة أوجه: حلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال، فاعملوا بالحلال، واجتنبوا الحرام، واتبعوا المحكم، وآمنوا بالمتشابه، واعتبروا بالأمثال**».

قال الماوردي: من أعظم علم القرآن علم أمثاله، والناس فى غفلة عنه لاشتغالهم بالأمثال، وإغفالهم الممثلات، والمثل بلا ممثل كالفرس بلا لجام، والناقة بلا زمام.

وقال غيره: قد عده الشافعى مما يجب على المجتهد معرفته من علوم القرآن. فقال: ثم معرفة ما ضرب فيه من الأمثال الدوال على طاعته، المبينة لاجتناب معصيته.

وقال الشيخ عز الدين: إنما ضرب الله الأمثال فى القرآن تذكيراً ووعظاً فما اشتمل منها على تفاوت فى ثواب، أو على إحباط عمل أو على مدح أو ذم أو نحوه، فإنه يدل على الأحكام.

وقال غيره: ضرب الأمثال فى القرآن يستفاد منه أمور كثيرة: التذكير والوعظ والحث، والزجر، والاعتبار، والتقرير، وتقريب المراد للعقل، وتصويره بصورة المحسوس، فإن الأمثال تصور المعانى بصورة الأشخاص إلا أنها أثبت فى الأذهان، لاستعانة الذهن فيها بالحواس، ومن ثَمَّ كان الغرض من المثل تشبيه الخفى بالجلي، والغائب بالشاهد.

وتأتى أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر، وعلى المدح والذم، وعلى الثواب والعقاب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر أو إبطاله، قال تعالى: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ (إبراهيم: ٤٥)، فامتن علينا بذلك لما تضمنته من الفوائد.

وقال الزركشى فى «البرهان»: ومن حكمته تعليم البيان، وهو من خصائص هذه الشريعة.

قال الزمخشرى :التمثيل إنما يصار إليه لكشف المعاني، وإدناء المتوهم من الشاهد، فإن كان التمثيل له، عظيماً كان المتمثل به مثله، وإن كان حقيراً كان المتمثل به كذلك.

وقال الأصبهانى: لضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء النظائر شأن ليس بالخفى فى إبراز خفيات الدقائق، ورفع الأستار عن الحقائق، تريك المتخيَّل فى صورة المتحقَّق، والمتوهَّم فى معرض المتيقن، والغائب كأنه مشاهد، وفى ضرب الأمثال تبكيت للخصم الشديد الخصومة، وقمع لسَوْرة الجامح الأبي، فإنه يؤثر فى القلوب ما لا يؤثر فى وصف الشيء فى نفسه ولذلك أكثر الله تعالى فى كتابه وفى سائر كتبه الأمثال، وقد ورد أن من سور الإنجيل سورة تسمى سورة الأمثال، وفشت فى كلام النبى ﷺ وكلام الأنبياء والحكماء.

فأمثال القرآن قسمان كما سبق ظاهر مصرح به وكامن لا ذكر للمثل فيه. فمن أمثلة الأول قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ (البقرة:١٧)، الآيات ضرب فيها للمنافقين مثلين، مثلاً بالنار، ومثلاً بالمطر. فأخرج ابن أبى حاتم وغيره

من طريق علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس قال: هذا مثل ضربه الله للمنافقين كانوا يعتزون بالإسلام فيناكحهم المسلمون، ويوارثونهم ويقاسمونهم الفيء، فلما ماتوا سلبهم الله العز كما سلب صاحب النار ضوءه ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ﴾. يقول فى عذاب، ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾، هو المطر، ضرب مثله فى القرآن، ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ﴾ يقول ابتلاء، ﴿وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾، تخوف ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ ، يقول: كلما أصاب المنافقون فى الإسلام عزاً اطمأنوا فإن أصاب الإسلام نكبة قاموا ليرجعوا إلى الكفر، كقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ الآية.

ومنها قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ (الرعد:١٧) الآية، وأخرج ابن أبى حاتم من طريق علىّ عن ابن عباس قال: هذا مثل ضربه الله احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها، ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ وهو الشك ، ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وهو اليقين، كما يجعل الحلى فى النار فيؤخذ خالصه ويترك خبثه فى النار، كذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك. وأخرج عن عطاء قال هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر.

وأخرج عن قتادة، قال: هذه ثلاثة أمثال ضربها الله فى مثل واحد يقول: كما اضمحل هذا الزبد فصار جفاء لا ينتفع به، وترجى بركته، كذلك يضمحل الباطل عن أهله، وكما مكث هذا الماء فى الأرض فأمرعت وربت بركته، وأخرجت نباتها، وكذلك الذهب والفضة حين أدخل النار فأذهب خبثه، كذلك يبقى الحق لأهله،وكما اضمحل خبث هذا الذهب حين أدخل فى النار، كذلك يضمحل الباطل عن أهله.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾ الآية أخرج ابن أبى حاتم من طريق على عن ابن عباس قال: هذا مثل ضربه الله للمؤمن يقول هو طيب وعمله طيب، كما أن البلد الطيب ثمرها طيب، والذى خبث ضرب مثلاً للكافر، كالبلد السبخة المالحة، والكافر هو الخبيث وعمله خبيث.

ومنها قوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ...﴾ (البقرة:٢٦٦) الآية أخرج البخارى عن ابن عباس قال: قال عمر بن الخطاب يوماً لأصحاب النبى ﷺ فيمن تروا هذه الآية نزلت: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ قالوا: الله أعلم فغضب عمر وقال: قولوا نعلم أم لا نعلم. فقال ابن عباس: فى نفسى منها شيء فقال: يا ابن أخي، قل ولا تحقر نفسك، قال ابن عباس: ضربت مثلاً لعمل، قال عمر: أى عمل؟ قال ابن عباس: لرجل غنى يعمل بطاعة الله، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصى حتى أغرق أعماله.

وأما الكامنة، فقال الماوردى سمعت أبا إسحاق إبراهيم بن مضارب بن إبراهيم، يقول: سمعت أبي، يقول: سألت الحسين بن الفضل فقلت: إنك تخرج أمثال العرب والعجم من القرآن، فهل تجد فى كتاب الله: (خير الأمور أوساطها) قال: نعم، فى أربعة مواضع: قوله تعالى: ﴿فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ (البقرة:٦٨)، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ (الفرقان:٦٧)، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ (الإسراء:٢٩)، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ (الإسراء: ١١٠).

قلت: فهل تجد فى كتاب الله: (من جهل شيئا عاداه) ؟ قال: نعم، فى موضعين: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ (يونس:٣٩)، ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ (الأحقاف:١١).

قلت: فهل تجد فى كتاب الله: (احذر شر من أحسنت إليه)؟ قال: نعم: ﴿وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ (التوبة: ٧٤).

قلت: فهل تجد فى كتاب الله (ليس الخبر كالعيان)؟ قال: فى قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ (البقرة:٢٦٠).

قلت: فهل تجد فى كتاب الله (فى الحركات البركات)؟ قال: فى قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ (النساء:١٠٠).

قلت: فهل تجد فيه (كما تدين تدان) قال: في قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ (النساء:١٢٣).

قلت: فهل تجد فيه قولهم (حين تقلى تدرى)؟قال: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (الفرقان: ٤٢).

قلت: فهل تجد فيه (لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين)؟ قال: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ (يوسف:٦٤).

قلت: فهل تجد فيه: (من أعان ظالماً سلط عليه)؟ قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ (الحج:٤).

قلت: فهل تجد فيه قولهم (لا تلد الحية إلا حية)؟ قال: قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ (نوح:٢٧).

قلت: فهل تجد فيه (للحيطان آذان)؟ قال: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ﴾(التوبة:٤٧).

قلت :فهل تجد فيه: (الجاهل مرزوق والعالم محروم)؟ قال: ﴿مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَـٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَدًّا﴾ (مريم:٧٥).

قلت فهل تجد فيه: (الحلال لا يأتيك إلا قوتاً، والحرام لا يأتيك إلا جزافاً) قال: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ (الأعراف:١٦٣).

فائدة: عقد جعفر بن شمس للخلافة في كتاب «الآداب» باباً في ألفاظ من القرآن، جارية مجرى المثل، وهذا هو النوع البديعي المسمى بإرسال المثل، وأورد من ذلك قوله تعالى : ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ (النجم:٥٨).

﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (آل عمران:٩٢).

﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ (يوسف:٥١).

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ﴾ (يس:٧٨).

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ (الحج:١٠).

﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ (يوسف:٤١).

﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ (هود:٨١).
﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ (سبأ:٥٤).
﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ (الأنعام:٦٧).
﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ (فاطر:٤٣).
﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ (الإسراء:٨٤).
﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ (البقرة:٢١٦).
﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (المدثر:٣٨).
﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ (المائدة:٩٩).
﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ (التوبة:٩١).
﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ (الرحمن:٦٠).
﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ﴾ (البقرة:٢٤٩).
﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ (يونس:٩١).
﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ (الحشر:١٤).
﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ (فاطر:١٤).
﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (المؤمنون:٥٣).
﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ (الأنفال:٥٣).
﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ (سبأ:١٣).
﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة:٢٨٦).
﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ (المائدة:١٠٠).
﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ (الروم:٤١)
﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ (الحج:٧٣).
﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ (الصافات:٦١).
﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ (ص:٢٤).
﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ (الحشر:٢٠)

فصل فى جدل القرآن

قد أفرد هذا الباب بالتصنيف نجم الدين الطوفى، قال العلماء: قد اشتمل القرآن العظيم على جميع أنواع البراهين والأدلة، وما من برهان ودلالة وتقسيم وتحذير يبنى من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله قد نطق به، لكن أورده على عادة العرب، دون دقائق طرق المتكلمين لأمرين:-

أحدهما: بسبب ما قاله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ (إبراهيم:٤).

والثاني: إن المائل إلى طريق المحاجة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من الكلام، فإن من استطاع أن يفهم بالأوضح الذى يفهمه الأكثرون لم ينحط إلى الأغمض الذى لا يعرفه إلا الأقلون، ولم يكن ملغزاً، فأخرج الله تعالى مخاطباته فى محاجة خلقه فى أجلى صورة، ليفهم العامة من جليلها ما يقنعهم، وتلزمهم الحجة، وتفهم الخواص من أثنائها ما يربى على ما أدركه فهم الخطباء.

وقال ابن أبى الإصبع: زعم الجاحظ أن المذهب الكلامى لا يوجد منه شيء فى القرآن، وهو مشحون به، وتعريفه أنه احتجاج المتكلم على ما يريد إثباته بحجة تقطع المعاند له فيه على طريقة أرباب الكلام، ومنه نوع منطقى تستنتج منه النتائج الصحيحة من المقدمات الصادقة، فإن الإسلاميين من أهل هذا العلم ذكروا أن أول سورة الحج إلى قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ (الحج:٧)، خمس نتائج تستنتج من عشر مقدمات، قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ (الحج:٦)، قد ثبت عندنا بالخبر المتواتر أنه تعالى أخبر بزلزلة الساعة معظماً لها، وذلك مقطوع بصحته، لأنه خبر أخبر به من ثبت صدقه عمن ثبتت قدرته، منقول إلينا بالتواتر، فهو حق ولا يخبر بالحق عما سيكون إلا الحق، فالله هو الحق، وأخبر تعالى أنه يحيى الموتى؛ لأنه أخبر عن أهوال الساعة بما أخبر، وحصول فائدة هذا الخبر موقوفة على إحياء الموتى ليشاهدوا تلك الأحوال متى يعملها الله من أجلهم.

وقد ثبت أنه قادر على كل شيء، ومن الأشياء إحياء الموتى، فهو يحيى الموتى، وأخبر أنه على كل شيء قدير، لأنه أخبر أنه من يتبع الشياطين، ومن يجادل فيه بغير علم يذقه عذاب السعير، ولا يقدر على ذلك إلا من هو على كل شيء قدير، فهو على كل شيء قدير.

وأخبر أن الساعة آتية لا ريب فيها، لأنه أخبر بالخبر الصادق أنه خلق الإنسان من تراب، إلى قوله: ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ (النحل:٧٠).

وضرب لذلك مثلاً بالأرض الهامدة التى ينزل عليها الماء، فتهتز وتربو، وتنبت من كل زوج بهيج، ومن خلق الإنسان على ما أخبر به فأوجده بالخلق ثم أعدمه بالموت، ثم يعيده بالبعث، وأوجد الأرض بعد العدم، فأحياها بالخلق، ثم أماتها بالمَحْل، ثم أحياها بالخصب، وصدق خبره فى ذلك كله، بدلالة الواقع المشاهد على المتوقع الغائب، حتى انقلب الخبر عياناً صدّق خبره فى الإتيان بالساعة، ولا يأتى بالساعة إلا من يبعث من فى القبور لأنها عبارة عن مدة تقوم فيها الأموات للمجازاة، فهى آتية لا ريب فيها، وهو سبحانه وتعالى يبعث من فى القبور، وقال غيره: استدل سبحانه وتعالى على المعاد الجسمانى بضروب:

أحدها: قياس الإعادة على الابتداء، كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (الأعراف:٢٩)، ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾(الأنبياء:١٠٤)، ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ (ق:١٥).

ثانيها: قياس الإعادة على خلق السموات والأرض بطريق الأولى، قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ﴾ (يس:٨١).

ثالثها: قياس الإعادة على إحياء الأرض بعد موتها بالمطر والنبات.

رابعها: قياس الإعادة على إخراج النار من الشجر الأخضر، وقد روى الحاكم وغيره أن أبى بن خلف جاء بعظم ففته، فقال: أيحيى الله هذا بعد ما بلى ورم؟! فأنزل الله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ (يس:٧٩)، فاستدل سبحانه وتعالى برد النشأة الأخرى إلى الأولى، والجمع بينهما بعلة الحدوث.

ثم زاد فى الحِجَاج بقوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ (يس:٨٠)، وهذه فى غاية البيان فى رد الشيء إلى نظيره، والجمع بينهما من حيث تبديل الأعراض عليها.

خامسها: فى قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ ...﴾ (النحل:٣٨) الآيتين، وتقريرهما أن اختلاف المختلفين فى الحق لا يوجب انقلاب الحق فى نفسه، وإنما تختلف الطرق الموصلة إليه، والحق فى نفسه واحد، فلما ثبت أن هاهنا حقيقة موجودة لا محالة، وكان لا سبيل لنا فى حياتنا إلى الوقوف عليها وقوفاً يوجب الائتلاف، ويرجع عنا الاختلاف إذ كان الاختلاف، مركوزاً فى فطرنا، وكان لا يمكن ارتفاعه وزواله إلا بارتفاع هذه الجبلة، ونقلها إلى صورة غيرها، صح ضرورةً أن لنا حياة أخرى غير هذه الحياة، فيها يرتفع الخلاف والعناد.

وهذه هى الحالة التى وعد الله بالمصير إليها، فقال:﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ (الأعراف:٤٣)، أى حقد، فقد صار الخلاف الموجود كما ترى أوضح دليل على كون البعث الذى ينكره المنكرون. كذا قرره ابن السيد.

ومن ذلك الاستدلال على أن صانع العالم واحد، بدلالة التمانع المشار إليها فى قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء:٢٢)، لأنه لو كان للعالم صانعان لكان لا يجرى تدبيرهما على نظام، ولا يتسق على أحكام ولكان العجز يلحقهما أو أحدهما، وذلك لأنه لو أراد أحدهما إحياء جسم وأراد الآخر إماتته، فإما أن تنفذ إرادتهما، فيتناقض لاستحالة تجزى الفعل إن فرض الاتفاق أو لامتناع اجتماع الضدين إن فرض الاختلاف، وإما ألا تنفذ إرادتهما فيؤدى إلى عجزهما، أولا تنفذ إرادة أحدهما فيؤدى إلى عجزه، والإله لا يكون عاجزاً، والله أعلم.

فصل

ومن الأنواع المصطلح عليها فى علم الجدل السير والتقسيم، ومن أمثلته فى القرآن قوله تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾

(الأنعام:١٤٣) الآيتين، فإن الكفار لما حرموا ذكور الأنعام تارة وإناثها أخرى، رد الله تعالى ذلك عليهم بطريق السير والتقسيم، فقال: إن الخلق لله، خلق من كل زوج مما ذكر ذكراً وأنثى، فمم جاء تحريم ما ذكرتم ؟ أى ما علته ؟ لا يخلو إما أن يكون من جهة الذكورة أو الأنوثة اشتمال الرحم الشامل لهما، أو لا يدرى له علة، وهو التعبدى، بأن أخذ ذلك عن الله تعالى، والأخذ عن الله تعالى إما بوحى وإرسال رسول، أو سماع كلامه ومشاهدة تلقى ذلك عنه، وهو معنى قوله: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾ (الأنعام:١٤٤)، فهذه وجوه التحريم، لا تخرج عن واحد منها، والأول يلزم عليه أن يكون جميع المذكور حراماً، والثانى يلزم عليه أن يكون جميع الإناث حراماً، والثالث يحرم عليه الصنفين معاً، فبطل ما فعلوه من تحريم بعض فى حالة وبعض فى حالة؛ لأن العلة على ما ذكر تقتضى إطلاق التحريم، والأخذ عن الله بلا واسطة باطل ولم يدّعوه، وبواسطة رسول كذلك، لأنه لم يأت إليهم رسول قبل النبى ﷺ ،وإذا بطل جميع ذلك ثبت المدعى، وهو أن ما قالوه افتراء على الله وضلال.

ومنها القول بالموجب قال ابن أبى الإصبع: وحقيقته رد كلام الخصم من فحوى كلامه.

وقال غيره: هو قسمان :

أحدهما: أن تقع صفة فى كلام الغير كناية عن شيء أثبت له حكم، فيثبتها بغير ذلك الشيء، كقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ﴾ (المنافقون:٨) الآية ﴿ٱلْأَعَزُّ﴾ وقعت فى كلام المنافقين كناية عن فريقهم ﴿ٱلْأَذَلَّ﴾ عن فريق المؤمنين، وأثبت المنافقون لفريقهم إخراج المؤمنين من المدينة، فأثبت الله فى الرد عليهم صفة العزة بغير فريقهم، وهو الله ورسوله والمؤمنون، وكأنه قيل صحيح ذلك ليخرجن الأعز منها الأذل، لكن هم الأذل الُمخْرَج والله ورسوله الأعز الُمخرِج.

والثاني: حمل لفظ وقع فى كلام الغير على خلاف مراده مما يحتمله بذكر متعلقه، ولم أر من أورد له مثالاً من القرآن، وقد ظفرت بآية منه، وهى قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ (التوبة:٦١)

ومنها التسليم، وهو أن يفرض المحال، إما منفياً أو مشروطاً بحرف الامتناع؛ لكون المذكور ممتنع الوقوع لامتناع وقوع شرطه، ثم يسلم وقوع ذلك تسليما جدلياً ويدل على عدم فائدة ذلك على تقدير وقوعه، كقوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ﴾(المؤمنون:٩١)، المعنى ليس مع الله من إله، ولو سلم أن معه سبحانه وتعالى إلهاً لزم من ذلك التسليم ذهاب كل إله من الاثنين بما خلق وعلو بعضهم على بعض، فلا يتم فى العالم أمر، ولا ينفذ حكم، ولا تنتظم أحواله، والواقع خلاف ذلك، ففرض إلهين فصاعداً محال لما يلزم منه المحال.

ومنها الإسجال، وهو الإتيان بألفاظ تسجل على المخاطب وقوع ما خوطب به نحو: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ (آل عمران:١٩٤)، ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ (غافر:٨)، فإن ذلك اسجالاً بالإيتاء والإدخال، حيث وصفا بالوعد من الله الذى لا يخلف وعده.

ومنها الانتقال هو أن ينتقل المستدل إلى استدلال غير الذى كان آخذاً فيه لكون الخصم لم يفهم وجه الدلالة من الأول، كما جاء فى مناظرة الخليل الجبارَ لما قال له: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ (البقرة:٢٥٨)، فقال الجبار: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ ثم دعا بمن وجب عليه القتل فأعتقه، ومن لا يجب عليه فقتله، فعلم الخليل أنه لم يفهم معنى الإحياء والإماتة، أو علم ذلك، وغالط بها الفعل، فانتقل عليه السلام إلى استدلال لا يجد الجبار له وجهاً يتخلص به منه، فقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾.فانقطعت حجة الجبار وبهت، ولم يمكنه أن يقول أنا الآتى بها من المشرق؛ لأن من هو أسن منه يكذبه.

ومنها المناقضة وهى تعليق أمر على مستحيل، إشارةً إلى استحالة وقوعه، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ (الأعراف:٤٠).

ومنها مجاراة الخصم ليعثر بأن يسلم بعض مقدماته، حيث يراد تبكيته وإلزامه كقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ (إبراهيم:١٠)، ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ (إبراهيم:١١) الآية.

فقولهم: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ الآية، فيه اعتراف الرسل بكونهم مقصورين على البشرية فكأنهم سلموا انتفاء الرسالة عنهم، وليس مراداً بل هو من مجاراة الخصم ليعثر، فكأنهم قالوا: ما ادعيتم من كوننا بشراً حق لا ننكره، ولكن هذا لا ينافى أن يمن الله تعالى علينا بالرسالة، والله أعلم.

فصل فى مفردات القرآن

أخرج السلفى فى «المختار من الطيوريات» عن الشعبي، قال: لقى عمر بن الخطاب ركباً فى سفر فيهم ابن مسعود، فأمر رجلاً يناديهم: من أين القوم؟ قالوا: أقبلنا من الفج العميق، نريد البيت العتيق، فقال عمر: إن فيهم لعالماً وأمر رجلاً أن يناديهم: أى القرآن أعظم؟ فأجابه عبد الله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ (البقرة:٢٥٥). قال: نادهم، أى القرآن أحكم ؟ فقال ابن مسعود: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآىِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾(النحل:٩٠)، قال: نادهم، أى القرآن أجمع؟ فقال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ (الزلزلة:٧-٨)، فقال: نادهم، أى القرآن أحزن ؟ فقال: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ (النساء:١٢٣). فقال: نادهم، أى القرآن أرجى ؟ فقال: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ (الزمر:٥٣) الآية، فقال: أفيكم ابن مسعود؟ قالوا: نعم. أخرجه عبد الرزاق فى تفسيره بنحوه.

وأخرج عبد الرزاق أيضاً عن ابن مسعود: أعدل آية فى القرآن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ

﴿بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ وأحكم آية: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ إلى آخرها.

وأخرج الحاكم عنه قال: إن أجمع آية فى القرآن للخير والشر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾.

وأخرج عنه قال: ما فى القرآن آية أعظم فرجاً من آية فى سورة الزمر: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ وما فى القرآن آية أكثر تفويضاً من آية فى سورة النساء –الطلاق-: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ الآية (الطلاق:٣).

وأخرج أبو ذر الهروى فى «فضائل القرآن» من طريق يحيى بن يعمر عن ابن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أعظم آية فى القرآن** ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾، **وأعدل آية فى القرآن**:﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ **إلى آخرها، وأخوف آية فى القرآن**: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾، **وارجى آية فى القرآن**:﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ **إلى آخرها**» وقد اختلف فى أرجى آية فى القرآن على بضعة عشر قولاً:

أحدها: آية الزمر .

والثاني: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ﴾(البقرة:٢٦٠)، أخرجه الحاكم فى «المستدرك» وأبو عبيد عن صفوان بن سليم قالا: التقى ابن عباس وابن عمر، فقال ابن عباس: أى آية فى كتاب الله أرجى؟ فقال عبد الله بن عمر: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

فقال ابن عباس: لكن قول الله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ (الزمر:٥٣)، قال: فرضى منه بقوله: ﴿بَلَىٰ﴾ قال: فهذا لما يعترض فى الصدر مما يوسوس به الشيطان.

الثالث: ما أخرجه أبو نعيم فى «الحلية» عن على بن أبى طالب أنه قال: إنكم

يا معشر أهل العراق تقولون: أرجى آية فى القرآن ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟﴾ لكنا أهل البيت نقول: إن أرجى آية فى كتاب الله:﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ (الضحى:٥)، وهى الشفاعة.

الرابع: ما أخرجه الواحدى عن على بن الحسين، قال: أشد آية على أهل النار: ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ (النبأ:٣٠)، وأرجى آية فى القرآن لأهل التوحيد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ الآية (النساء:١١٦).

وأخرج الترمذى وحسنه عن علىّ قال: أحب آية إلىّ فى القرآن: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ...﴾ الآية.

الخامس: ما أخرجه مسلم فى «صحيحه»، عن ابن المبارك، أن أرجى آية فى القرآن قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ (النور:٢٢).

السادس: ما أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب «التوبة»، عن أبى عثمان النهدي: ما فى القرآن آية أرجى عندى لهذه الأمة من قوله: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ (التوبة:١٠٢).

السابع والثامن: قال أبو جعفر النحاس فى قوله: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ (الأحقاف:٣٥)، إن هذه الآية عندى أرجى آية فى القرآن إلا أن ابن عباس قال: أرجى آية فى القرآن: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ (الرعد:٦)، وكذا حكاه عنه مكي، ولم يقل: « على إحسانهم».

التاسع: روى الهروى فى «مناقب الشافعي» عن ابن عبد الحكم، قال:سألت الشافعى أى آية؟ قال: قوله: ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ (البلد:١٥-١٦).

قال: وسألته عن أرجى حديث للمؤمن؟ قال: «**إذا كان يوم القيامة يدفع إلى كل مسلم** ».

العاشر: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ (الإسراء:٨٤).

الحادى عشر: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ (سبأ:١٧).

الثانى عشر: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ (طه:٤٨) حكاه الكرمانى فى «العجائب».

الثالث عشر: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ (الشورى:٣٠).

حكى هذه الأقوال الأربعة النووى فى رؤوس المسائل، والأخير ثابت عن علىّ، ففى مسند أحمد عنه قال: ألا أخبركم بأفضل آية من كتاب الله، حدثنا بها رسول الله ﷺ؛ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ وسأفسرها لك يا علىّ: ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء فى الدنيا فبما كسبت أيديكم، والله أكرم من أن يثنى العقوبة، وما عفا الله عنه فى الدنيا، فالله أحلم من أن يعود بعد عفوه.

الرابع عشر: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ (الأنفال:٣٨).

قال الشبلى: إذا كان الله أذن للكافر بدخول الباب إذا أتى بالتوحيد والشهادة، أفتراه يخرج الداخل فيها والمقيم عليها!

الخامس عشر: آية الدين، ووجهه أن الله أرشد عباده إلى مصالحهم الدنيوية، حتى انتهت العناية بمصالحهم إلى أمرهم بكتابة الدين الكثير والحقير، فمقتضى ذلك ترجى عفوه عنهم لظهور العناية العظيمة بهم.

قلت: ويلحق بهذا ما أخرجه ابن المنذر عن ابن مسعود، أنه ذكر عنده بنو إسرائيل، وما فضلهم الله به، فقال: كان بنو إسرائيل إذا أذنب أحدهم ذنباً أصبح وقد كتبت كفارته على أسكفة بابه، وجعلت كفارة ذنوبكم قولاً تقولونه، تستغفرون الله فيغفر لكم، والذى نفسى بيده لقد أعطانا الله آية لهى أحب إلىّ من الدنيا وما فيها: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾ الآية (آل عمران:١٣٥).

وما أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب «التوبة» عن ابن عباس قال: ثمانى آيات نزلت

فى سورة النساء هن خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت: أولهن ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ (النساء:٢٦).

والثانية: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾(النساء:٢٧).

والثالثة: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ...﴾ الآية (النساء:٢٨).

والرابعة: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ الآية (النساء:٣١).

والخامسة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ...﴾ الآية (النساء:٤٠).

والسادسة: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ الآية (النساء:١١٠).

والسابعة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ...﴾ الآية (النساء:١١٦).

والثامنة: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ..﴾الآية (النساء:١٥٢).

وما أخرجه ابن أبى حاتم عن عكرمة قال: سئل ابن عباس: أى آية أرجى فى كتاب الله؟ قال: قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ (فصلت:٣٠).

وما أخرجه ابن راهويه، فى مسنده أنبأنا أبو عمر العقدى، أنبأنا عبد الجليل بن عطية، عن محمد بن المنتشر، قال: قال رجل لعمر بن الخطاب: إنى لأعرف أشد آية فى كتاب الله تعالى، فأهوى عمر فضربه بالدرة، وقال: مـا لـك نقبت عنهـا حتى علمتها! ما هي؟ قال: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ (النساء:١٢٣)، فما منا أحد يعمل سوءاً إلا جزى به. فقال عمر لبثنا حين نزلت ما ينفعنا طعام ولا شراب حتى أنزل الله بعد ذلك ورخص: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ الآية (النساء:١١٠).

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن، قال: سألت أبا برزة الأسلمي عن أشد آية في كتاب الله تعالى على أهل النار؟ فقال: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ (النبأ:٣٠).

وفي صحيح البخاري عن سفيان، قال: ما في القرآن آية أشد على من ﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (المائدة:٦٨).

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس، قال: ما في القرآن أشد توبيخا من هذه الآية: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ الآية (المائدة:٦٣).

وأخرج ابن المبارك في كتاب «الزهد» عن الضحاك عن ابن مزاحم قرأ في قول الله: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ (المائدة:٦٣). قال: ما في القرآن آية أخوف عندي منها.

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال: ما أنزلت على النبي ﷺ آية كانت أشد عليه من قوله: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ الآية (الأحزاب:٣٧).

وأخرج ابن المنذر عن ابن سيرين: لم يكن شيء عندهم أخوف من هذه الآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾(البقرة:٨).

وعن أبي حنيفة: أخوف آية في القرآن ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (آل عمران:١٣١) ، وقال غيره: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾(الرحمن:٣١)،ولهذا قال بعضهم: لو سمعت هذه الكلمة من خفير الحارة لم أنم. وفي النوادر لأبي زيد، قال مالك: أشد آية على أهل الأهواء قوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ (آل عمران:١٠٦)، الآية، فتأولها على أهل الأهواء. انتهى.

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية قال: آيتان في كتاب الله ما أشدهما على من يجادل فيه: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (غافر:٤)، ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾(البقرة:١٧٦).

وقال السعيدي: سورة الحج من أعاجيب القرآن، فيها مكي ومدني، وحضري،

وليلى ونهاري، وحربى وسلمي، وناسخ ومنسوخ، فالمكى من رأس الثلاثين إلى آخرها، والمدنى فى رأس خمس عشرة إلى رأس الثلاثين، والليلى خمس آيات من أولها، والنهارى فى رأس آيات إلى رأس اثنتى عشرة، والحضرى إلى رأس العشرين، قلت: والسفرى أولها، والناسخ من: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ﴾ الآية (الحج:٣٩)، والمنسوخ: ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ﴾ الآية (الحج:٦٩)، نسختها آية السيف، وقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ﴾ الآية (الحج:٥٢)، نسختها ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾(الأعلى:٦).

وقال الكرماني: ذكر المفسرون أن قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَـٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ﴾ الآية (المائدة:١٠٩)، من أشكل آية فى القرآن حكماً ومعنى وإعرابا.

وقال غيره: قوله تعالى: ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ﴾ الآية(الأعراف:٣١)، جمعت أصول أحكام الشريعة كلها: الأمر والنهى والإباحة والخبر.

وقال الكرمانى فى «العجائب» فى قوله تعالى: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ (يوسف:٣)، قيل: هو قصة يوسف، وسماها ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ لاشتمالها على ذكر حاسد ومحسود، ومالك ومملوك، وشاهد ومشهود، وعاشق ومعشوق، وحبس وإطلاق، وسجن وخلاص، وخصب وجدب، وغيرها مما يعجز عن بيانها طوق الخلق.

وقال: ذكر أبو عبيدة عن رؤبة: ما فى القرآن أغرب من قوله: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ﴾ (الحجر:٩٤).

وقال ابن خالويه: ليس فى كلام العرب لفظ جمع لغات (ما) النافية إلا حرف واحد فى القرآن، جمع اللغات الثلاث، وهو قوله: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَـٰتِهِمۡ﴾ (المجادلة:٢) قرأ الجمهور بالنصب، وقرأ بعضهم بالرفع، وقرأ ابن مسعود: **(ما هن بأمهاتهم)** بالباء. قال: وليس فى القرآن لفظ على (افعوعل) إلا فى قراءة ابن عباس: (ألا إنهم يثنونى فى صدورهم).

وقال بعضهم: أطول سورة فى القرآن البقرة، وأقصرها الكوثر، أطول آية فيه آية الدين، وأقصر آية فيه: ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾، ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ وأطول كلمة فيه رسماً ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾.

وفى القرآن آيتان جمعت كل منهما حروف المعجم: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً ...﴾ الآية (آل عمران:١٥٤)، والثانية: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ..﴾ الآية (الفتح:٢٩).

وليس فيه حاء بعد حاء بلا حاجز إلا فى موضعين: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ﴾ (البقرة:٢٣٥)، ﴿لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ﴾ (الكهف:٦٠).

ولا كافان كذلك إلا ﴿مَّنَٰسِكَكُمْ﴾، ﴿مَا سَلَكَكُمْ﴾ (المدثر:٤٢)، ولا غينان كذلك إلا ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ (آل عمران:٨٥)، ولا آية فيها ثلاثة وعشرون كافاً إلا آية الدين.

ولا آيتان فيهما ثلاثة عشر وقفاً إلا آيتا المواريث، ولا سورة ثلاثة آيات فيها عشر واوات إلا ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ إلى آخرها.

ولا سورة إحدى وخمسون آية فيها اثنان وخمسون وقفاً إلا سورة الرحمن.

ذكر أكثر ذلك ابن خالويه.

وقال أبو عبد الله الخبازى المقرئ: أول ما وردت على السلطان محمود بن ملكشاه سألنى عن آية أولها غين، فقلت ثلاثة: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ (غافر:٣)، بلا خلاف، وآيتان بخلاف: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾(الروم:٢)، ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ﴾.

ونقلت من خط شيخ الإسلام ابن حجر: فى القرآن أربع شدات متوالية فى قوله : ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ (مريم:٦٤-٦٥). ﴿فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ﴾ (النور:٤٠). ﴿قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾(يس:٥٨)، ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ﴾ (الملك:٥).

فصل فى خواص القرآن

قد أفرده بالتصنيف جماعة منهم التميمى وحجة الإسلام الغزالي، ومن المتأخرين اليافعي، وغالب ما يذكر فى ذلك كان مستنده تجارب الصالحين، وها أنا

أبدأ بما ورد من ذلك في الحديث، ثم ألتقط عيوناً مما ذكره السلف والصالحون:

فقد أخرج ابن ماجه وغيره من حديث ابن مسعود: «عليكم بالشفاءين: العسل والقرآن».

وأخرج أيضاً من حديث عليّ: « خير الدواء القرآن».

وأخرج أبو عبيدة عن طلحة بن مصرف، قال: « كان يقال إذا قرئ القرآن عند المريض وجد لذلك خفة».

وأخرج البيهقي في «الشعب» عن واثلة بن الأسقع، أن رجلاً شكا إلى النبي ﷺ وجع حلقه، قال: «**عليك بقراءة القرآن**».

وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني اشتكى صدري. قال: «**اقرأ القرآن**»، لقول الله تعالى: ﴿**وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ**﴾ (يونس:٥٧).

وأخرج البيهقي وغيره من حديث عبد الله بن جابر بن عبد الله: «فاتحة الكتاب شفاء من كل شيء إلا السام» والسام الموت.

وأخرج سعيد بن منصور والبيهقي وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري: «فاتحة الكتاب شفاء من السم».

وأخرج البخاري من حديثه أيضا قال: «كنا في مسير لنا، فنزلنا فجاءت جارية فقالت: إن سيد الحي سليم[1] فهل معكم راق ؟ فقام معها رجل، فرقاه بأم القرآن فبرئ، فذكر للنبي ﷺ فقال: «**وما كان يدريه انها رقية**» .

وأخرج الطبراني في الأوسط، عن السائب بن يزيد، قال: عوّذني رسول الله ﷺ بفاتحة الكتاب تفلاً.

---

(١) سليم: أي ملدوغ.

وأخرج البزار فى حديث أنس «**إذا وضعت جنبك على الفراش، وقرات فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد، فقد أمنت من كل شيء إلا الموت**».

وأخرج مسلم من حديث أبى هريرة: «**إن البيت الذى تقرأ فيه البقرة لا يدخله الشيطان**».

وأخرج عبد الله بن أحمد فى «زوائد المسند» بسند حسن عن أبى بن كعب قال: كنت عند النبى ﷺ، فجاء أعرابى فقال: يا نبى الله، إن لى أخاً وبه وجع قال: **وما وجعه ؟** قال: به لمم، قال **فاتنى به**، فوضعه بين يديه، فعوّذه النبى ﷺ بفاتحة الكتاب، وأربع آيات من أول سورة البقرة، وهاتين الآيتين: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ (البقرة:١٦٣)، وآية الكرسي، وثلاث آيات من آخر سورة البقرة وآية من آل عمران: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ (آل عمران:١٨)، وآية من الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾(الأعراف:٥٤)، وآخر سورة المؤمنين:﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ (المؤمنون:١١٦)، وآية من سورة الجن: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾، وعشر آيات من أول الصافات، وثلاث آيات من آخر سورة الحشر، وقل هو الله أحد والمعوذتين، فقام الرجل كأنه لم يَشْكُ قط.

وأخرج الدارمى عن ابن مسعود موقوفاً: «من قرأ أربع آيات من أول سورة البقرة، وآية الكرسى وآيتين بعد آية الكرسي، وثلاثاً من آخر سورة البقرة، لم يقربه ولا أهله يومئذ شيطان، ولا شيء يكرهه، ولا يقُرآن على مجنون إلا أفاق».

وأخرج البخارى عن أبى هريرة فى قصة الصدقة: « إن الجن قال له: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فقال النبى ﷺ: « **اما إنه صدقك وهو كذوب**».

وأخرج المحاملى فى «فوائده» عن ابن مسعود، قال: قال رجل: يا رسول الله، علمنى شيئاً ينفعنى الله به قال: «**اقرا آية الكرسي، فإنه يحفظك وذريتك، ويحفظ دارك حتى الدويرات حول دارك**».

وأخرج الدينورى فى المجالسة، عن الحسن، أن النبي ﷺ قال: «**إن جبريل أتانى فقال: إن عفريتاً من الجن يكيدك، فإذا أويت إلى فراشك، فاقرأ آية الكرسي**».

وفى «الفردوس» من حديث أبى قتادة: «**من قرأ آية الكرسى عند الكرب أغاثه الله**».

وأخرج الدارمى عن المغيرة بن تسبيع - وكان من أصحاب عبد الله قال: «من قرأ عشر آيات من البقرة عند منامه، لم ينس القرآن أربع من أولها وآية الكرسى وآيتان بعدها وثلاث من آخرها».

وأخرج الديلمى من حديث أبى هريرة مرفوعاً: «**آيتان هما قرآن وهما يشفيان، وهما مما يحبهما الله، الآيتان من آخر سورة البقرة**».

وأخرج الطبرانى عن معاذ أن النبى ﷺ قال له: «**ألا أعلمك دعاء تدعو به لو كان عليك من الدَّين مثل صبر**[1] **أداه الله عنك: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ إلى قوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، رحمان الدنيا والآخرة ورحيمهما، تعطى من تشاء منهما، وتمنع من تشاء، ارحمنى رحمة تغنينى بها عن رحمة من سواك**».

وأخرج البيهقى فى «الدعوات» عن ابن عباس: «إذا استصعبت دابة أحدكم أو كانت شموساً، فليقرأ هذه الآية فى أذنيها: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (آل عمران:٨٣)».

وأخرج البيهقى فى «الشعب» بسند فيه من لا يُعرَف عن علىّ، موقوفاً: «سورة الأنعام ما قرئت على عليل إلا شفاه الله».

وأخرج ابن السنى عن فاطمة أن رسول الله ﷺ لما دنا ولادها أمر أم سلمة وزينب بنت جحش أن يأتيا فيقرآ عندها آية الكرسي، و ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ الآية، ويعوّذها بالمعوذتين.

وأخرج ابن السنى أيضاً عن حديث الحسين بن علىّ: «**أمان لأمتى من الغرق إذا**

---

(١) صبر: جبل باليمن.

ركبوا أن يقولوا: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ ...﴾ الآية».

وأخرج ابن أبى حاتم عن ليث، قال: «بلغنى أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر يقرآن فى إناء فيه ماء، ثم يصب على رأس المسحور: الآية التى فى سورة يونس: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾ (يونس:٨١)، إلى قوله: ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ وقوله: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف:١١٨)، إلى آخر أربع آيات، وقوله: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾ الآية (طه:٦٩).

وقال الربيع سألت الشافعى عن الرقية، فقال: لا بأس أن يرقى بكتاب الله وما يعرف. وقال ابن بطال فى المعوذتين سر ليس فى غيرهما من القرآن لما اشتملتا عليه من جوامع الدعاء التى تعم أكثر المكروهات من السحر والحسد وشر الشيطان ووسوسته وغير ذلك، فلهذا كان رسول الله ﷺ يكتفى بهما، والله أعلم.

فصل فى معرفة شروط المفسر وآدابه

قال العلماء: من أراد تفسير الكتاب العزيز، طلبه أولاً من القرآن، فما أجمل منه فى مكان فقد فسر فى موضع آخر، وما اختصر فى مكان فقد بسط فى موضع آخر منه.

وقد ألف ابن الجوزى كتاباً فيما أجمل فى القرآن فى موضع، وفسر فى موضع آخر فيه، وأشير إلى أمثلة منه فى نوع المجمل، فإن أعياه ذلك طلبه من السنة، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، وقد قال الشافعى رضي الله عنه: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ (النساء:١٠٥).

وقال ﷺ : **«ألا إنى أوتيت القرآن ومثله معه»**، يعنى السنة.

فإن لم يجده فى السنة رجع إلى قول الصحابة، فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من

القرآن والأحوال عند نزوله. ولما اختصوا به من الفهم التام والعلم الصحيح، والعمل الصالح، وقد قال الحاكم فى «المستدرك»: إن تفسير الصحابى الذى شهد الوحى والتنزيل له حكم المرفوع.

وقال الإمام أبو طالب الطبرى فى أوائل تفسيره: (القول فى أدوات المفسر): اعلم أن من شرطه صحة الاعتقاد أولاً، ولزوم سنة الدين، فإن من كان مغموصاً عليه فى دينه لا يؤتمن على الدنيا، فكيف على الدين، ثم لا يؤتمن من الدين على الإخبار عن عالم، فكيف يؤتمن فى الإخبار عن أسرار الله تعالى، ولأنه لا يؤمن إن كان متهماً بالإلحاد أن يبغى الفتنة، ويغوى الناس للناس بلبه وخداعه، كدأب الباطنية وغلاة الرافضة، وإن كان متهماً بهوى لم يؤمن أن يحمله هواه على ما يوافق بدعته، كدأب القدرية، فإن أحدهم يصنف الكتاب فى التفسير، ومقصوده منه إلا يضاع خلال المساكين، ليصدهم عن اتباع السلف ولزوم طريق الهدى، ويجب أن يكون اعتماده على النقل عن النبى ﷺ وعن أصحابه ومن عاصرهم، ويتجنب المحدثات، وإذا تعارضت أقوالهم، وأمكن الجمع بينهما فعل، نحو أن يتكلم على الصراط المستقيم، وأقوالهم فيه ترجع إلى شيء واحد، فيأخذ منها ما يدخل فيه الجميع، فلا تنافى بين القرآن وطريق الأنبياء، فطريق السنة وطريق النبى ﷺ وطريق أبى بكر وعمر، فأى هذه الأقوال أفرده كان محسناً.

وإن تعارضت، والأمر إلى ما ثبت فيه، السمع، وإن لم يجد سمعاً، وكان للاستدلال طريق إلى تقوية أحدها رجَّح ما قوى الاستدلال فيه، كاختلافهم فى معنى حروف الهجاء، يرجح قول من قال: إنها قسم. وإن تعارضت الأدلة فى المراد علم أنه قد اشتبه عليه، فيؤمن بمراد الله منها، ولا يتهجم على تعيينه وينزله منزلة المجمل قبل توصيله، والمتشابه قبل تبيينه.

ومن شرطه صحة المقصد فيما يقول ليلقى التسديد فقد قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (العنكبوت:٦٩) ،وإنما يخلص له القصد إذا زهد فى

الدنيا، لأنه إذا رغب فيها لم يؤمن أن يتوسل به إلى عرض يصده عن صواب قصده، ويفسد عليه صحة عمله، وتمام هذه الشرائط أن يكون ممتلئاً من عدة الإعراب، لا يلتبس عليه اختلاف وجوه الكلام، فإنه إذا خرج بالبيان عن وضع اللسان إما حقيقة أو مجازاً، فتأويله تعطيله، وقد رأيت بعضهم يفسر قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ (الأنعام:٩١)، أنه ملازمة قول الله، ولم يدرِ الغبى أن هذه جملة حذف منها الخبر، والتقدير: الله أنزله. انتهى كلام أبى طالب.

وقال ابن تيمية فى كتاب ألفه فى هذا النوع: يجب أن يعلم أن النبى ﷺ بينّ لأصحابه معانى القرآن، كما بينّ لهم ألفاظه، فقوله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل:٤٤) يتناول هذا وهذا، وقد قال أبو عبد الرحمن السلمي: حَدثنا الذين كانوا يقرءون القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبى ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً، ولهذا كانوا يبقون مدة فى حفظ السورة.

وقال أنس: «كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فى أعيننا» رواه أحمد فى مسنده.

وأقام ابن عمر على حفظ البقرة ثمانى سنين، أخرجه فى الموطأ، وذلك أن الله تعالى قال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (ص:٢٩)، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ (النساء:٨٢)، وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن.

وأيضاً فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتاباً فى فن من العلم، كالطب والحساب، ولا يستشرحونه، فكيف بكلام الله الذى هو عصمتهم، وبه نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم.

ولهذا كان النزاع بين الصحابة فى تفسير القرآن قليلاً جداً، وهو وإن كان بين التابعين أكثر منه بين الصحابة، فهو قليل بالنسبة إلى ما بعدهم.

ومن التابعين من تلقى جميع التفسير عن الصحابة، وربما تكلموا فى بعض ذلك بالاستنباط والاستدلال، والخلاف بين السلف فى التفسير قليل، وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، وذلك صنفان:

أحدهما: أن يعبر واحد منهم عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه، تدل على معنى فى المسمى غير المعنى الآخر، مع اتحاد المسمى، كتفسيرهم: ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ بعض بالقرآن، أى اتباعه، وبعض بالإسلام، فالقولان متفقان، لأن دين الإسلام هو اتباع القرآن، ولكن كل منهما نبه على وصف غير الوصف الآخر، كما أن لفظ: ﴿صِرَٰطَ﴾ يشعر بوصف ثالث.

وكذلك قول من قال: هو السنة والجماعة، وقول من قال: هو طريق العبودية، وقول من قال: هو طاعة الله ورسوله، وأمثال ذلك فهؤلاء كلهم أشاروا إلى ذات واحدة، لكن وصفها كل منهم بصفة من صفاتها.

الثاني: أن يذكر كل منهم من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل، وتنبيه المستمع على النوع، لا على سبيل الحد المطابق للمحدود فى عمومه وخصوصه، مثاله ما نقل فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا﴾ الآية(فاطر:٣٢)، فمعلوم أن الظالم لنفسه يتناول المضيع للواجبات والمنتهك للحرمات، والمقتصد يتناول فاعل الواجبات وتارك المحرمات، والسابق يدخل فيه من سبق، فتقرب بالحسنات مع الواجبات، فالمقتصدون أصحاب اليمين، والسابقون السابقون أولئك المقربون.

ثم إن كلاً منهم يذكر هذا فى نوع من أنواع الطاعات، كقول القائل: السابق الذى يصلى أول الوقت، والمقتصد الذى يصلى فى أثنائه، والظالم لنفسه الذى يؤخر العصر إلى الاصفرار، أو يقول: السابق المحسن بالصدقة مع الزكاة، والمقتصد الذى يؤدى الزكاة المفروضة فقط، والظالم مانع الزكاة.

قال: وهذان الصنفان اللذان ذكرناهما فى تنوع التفسير، تارة لتنوع الأسماء والصفات، وتارة لذكر بعض أنواع المسمى، هو الغالب فى تفسير سلف الأمة الذى يظن أنه مختلف.

ومن التنازع الموجود عنهم ما يكون اللفظ فيه محتملاً للأمرين، إما لكونه مشتركاً فى اللغة، كلفظ (قسورة) الذى يراد به الرامي، ويراد به الأسد، ولفظ (عسعس) الذى يراد به إقبال الليل وإدباره، وإما لكونه متواطئاً فى الأصل، لكن المراد به أحد النوعين أو أحد الشخصين، كالضمائر فى قوله:﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ الآية (النجم:٨)، وكلفظ الفجر والشفع والوتر وليال عشر، وأشباه ذلك، فمثل هذا قد يجوز أن يراد كل المعانى التى قالها السلف، وقد لا يجوز ذلك.

فالأول إما لكون الآية نزلت مرتين فأريد لها هذا تارة، وهذا تارة، وإما لكون اللفظ المشترك يجوز أن يراد به معنياه، وإما لكون اللفظ متواطئاً، فيكون عاماً إذا لم يكن لمخصصه موجب، فهذا النوع إذا صح فيه القولان كان فى الصنف الثاني.

ومن الأقوال الموجودة عنهم، ويجعلها بعض الناس اختلافاً أن يعبروا عن المعانى بألفاظ متقاربة، كما إذا فسر بعضهم (تبسل) و (تحبس)، وبعضهم (ترتهن)، ثم قال: لأن كلاً منهما قريب من الآخر، والله أعلم.

فصل

والاختلاف فى التفسير على نوعين: منه ما مستنده النقل فقط، ومنه ما يعلم بغير ذلك، والمنقول إما عن المعصوم ﷺ أو غيره، ومنه ما يمكن معرفة الصحيح منه من غيره، ومنه ما لا يمكن ذلك، وهذا القسم الذى لا يمكن معرفة صحيحه من ضعيفه عامته مما لا فائدة فيه، ولا حاجة بنا إلى معرفته، وذلك كاختلافهم فى لون كلب أصحاب الكهف واسمه، وفى البعض الذى ضرب به القتيل من البقرة، وفى قدر سفينة نوح وخشبها، وفى اسم الغلام الذى قتله الخضر، ونحو ذلك، فهذه الأمور طريق العلم بها النقل، فما كان منه منقولاً نقلاً صحيحاً عن النبى ﷺ قُبل، وما لا بأن نُقل عن أهل الكتاب - ككعب ووهب - وقف عن تصديقه وتكذيبه، لقوله ﷺ :«**إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم، ولا تكذبوهم**».

وكذا ما نقل عن بعض التابعين، وإن لم يذكر أنه أخذه عن أهل الكتاب، فمتى اختلف التابعون لم يكن بعض أقوالهم حجة على بعض، وما نقل فى ذلك عن الصحابة نقلاً صحيحاً فالنفس إليه أسكن مما ينقل عن التابعين، لأن احتمال أن يكون سمعه من النبى ﷺ، أو من بعض من سمعه منه أقوى، ولأن نقل الصحابة عن أهل الكتاب أقل من نقل التابعين.

ومع جزم الصحابى بما يقوله، كيف يقال: إنه أخذه عن أهل الكتاب، وقد نهوا عن تصديقهم، وأما القسم الذى يمكن معرفة الصحيح منه فهذا موجود كثيراً، ولله الحمد، وإن قال الإمام أحمد: ثلاثة ليس لها أصل: التفسير والملاحم والمغازى. وذلك لأن الغالب عليها المراسيل.

وأما ما يعلم بالاستدلال لا بالنقل، فهذا أكثر ما فيه الخطأ من جهتين حدثتا بعد تفسير الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان، فإن التفاسير التى يذكر فيها كلام هؤلاء صرفاً لا يكاد يوجد فيها شيء من هاتين الجهتين، مثل تفسير عبد الرزاق والفريابى ووكيع وعبد وإسحاق وأمثالهم، أحدهما قوم اعتقدوا معاني، ثم أرادوا حمل ألفاظ القرآن عليها والثانى قوم فسروا القرآن بمجرد ما يسوغ أن يريده من كان من الناطقين بلغة العرب، من غير نظر إلى التكلم بالقرآن والمنزل عليه والمخاطب به، فالأولون راعوا المعنى الذى رأوه من غير نظر إلى ما تستحقه ألفاظ القرآن من الدلالة والبيان، والآخرون راعوا مجرد اللفظ، وما يجوز أن يريد به العربى من غير نظر إلى ما يصلح للمتكلم وسياق الكلام، ثم هؤلاء كثيراً ما يغلطون فى احتمال اللفظ لذلك المعنى فى اللغة، كما يغلط فى ذلك الذين قبلهم، كما أن الأولين كثيراً ما يغلطون فى صحة المعنى الذى فسروا به القرآن، كما يغلط فى ذلك الآخرون وإن كان نظر الأولين إلى المعنى أسبق، ونظر الآخرين إلى اللفظ أسبق، والأولون صنفان: تارة يسلبون لفظ القرآن ما دل عليه وأريد به، وتارة يحملونه على ما لم يدل عليه، ولم يرد به.

وفى كلا الأمرين قد يكون ما قصدوا نفيه أو إثباته من المعنى باطلاً، فيكون خطرهم فى الدليل والمدلول، وقد يكون حقاً فيكون خطرهم فى الدليل لا فى المدلول، فالذين أخطئوا فيهما مثل طوائف من أهل البدع اعتقدوا مذاهب باطلة، وعمدوا إلى القرآن فتأولوه على رأيهم، وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين، لا فى رأيهم ولا فى تفسيرهم وقد صنفوا تفاسير على أصول مذهبهم، مثل تفسير عبد الرحمن بن كيسان الأصم والجبائى وعبد الجبار والرمانى والزمخشرى وأمثالهم.

ومن هؤلاء من يكون حسن العبارة، يدس البدع فى كلامه، وأكثر الناس لا يعلمون كصاحب الكشاف ونحوه، حتى إنه يروج على خلق كثير من أهل السنة كثير من تفاسيرهم الباطلة.

وتفسير ابن عطية وأمثاله اتبع للسنة، وأسلم من البدعة، ولو ذكر كلام السلف المأثور عنهم على وجهه لكان أحسن، فإنه كثيراً ما ينقل من تفسير ابن جرير الطبري، وهو من أجلّ التفاسير وأعظمها قدراً، ثم إنه يدع ما ينقله عن السلف، ويذكر ما يزعم أنه قول المحققين، وإنما يعنى بهم طائفة من أهل الكلام الذين قرروا أصولهم بطرق من جنس ما قررت به المعتزلة أصولهم، وإن كانوا أقرب إلى السنة من المعتزلة، لكن ينبغى أن يعطى كل ذى حق حقه، فإن الصحابة والتابعين والأئمة إذا كان لهم فى الآية تفسير، وجاء قوم فسروا الآية بقول آخر لأجل مذهب اعتقدوه، وذلك المذهب ليس من مذاهب الصحابة والتابعين، صار مشاركاً للمعتزلة وغيرهم من أهل البدع فى مثل هذا.

وفى الجملة من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئاً فى ذلك، بل مبتدعاً؛ لأنهم كانوا أعلم بتفسيره ومعانيه، كما أنهم أعلم بالحق الذى بعث الله به رسوله.

وأما الذين أخطئوا فى الدليل لا المدلول فمثل كثير من الصوفية والوعاظ والفقهاء، يفسرون القرآن لمعانٍ صحيحة فى نفسها، لكن القرآن لا يدل عليها مثل

كثير مما ذكره السلمى فى الحقائق، فإن كان فيما ذكروه معانٍ باطلة دخل فى القسم الأول، والله أعلم. انتهى من كلام ابن تيمية.

فصل فى طبقات المفسرين

تفسير الصحابة:

اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة: الخلفاء الأربعة ،وابن مسعود وابن عباس وأبى بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير، أما الخلفاء فأكثر من روى عنه منهم على بن أبى طالب، والرواية عن الثلاثة الخلفاء قبله نزرة جداً، وكأن السبب فى ذلك تقدم وفاتهم، كما أن ذلك هو السبب فى قلة رواية أبى بكر ﷺ للحديث، ولا أحفظ عن أبى بكر ﷺ فى التفسير إلا آثاراً قليلة جداً لا تكاد تجاوز العشرة، وأما علىّ فروى عنه الكثير، وقد روى معمر عن وهب بن عبد الله عن أبى الطفيل، قال: شهدت علياً يخطب، وهو يقول: سلوني، فوالله لا تسألونى عن شيء إلا أخبرتكم، وسلونى عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلا و أنا أعلم: أبليل نزلت أم بنهار، أم فى سهل أم فى جبل .

وأخرج أبو نعيم فى الحلية، عن ابن مسعود، قال: إن القرآن أنزل على سبعة أحرف، ما منها حرف إلا وله ظهر وبطن، وإن علىّ بن أبى طالب عنده منه الظاهر والباطن.

وأخرج أيضاً من طريق أبى بكر ابن عياش، عن نصير بن سليمان الأحمسى عن أبيه، عن علىّ، قال: والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم أنزلت، وأين أنزلت؟ إن ربى وهب لى قلباً عقولاً، ولساناً سؤلاً.

وأما ابن مسعود فروى عنه أكثر مما روى عن علىّ، وقد أخرج ابن جرير وغيره عنه أنه قال: والذى لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت؟ ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله منى تناله المطايا لأتيته .

وأخرج أبو نعيم عن أبى البخترى، قال: قالوا لعلىّ: أخبرنا عن ابن مسعود، قال: علم القرآن والسنة، ثم انتهى، وكفى بذلك علماً.

وأما ابن عباس فهو ترجمان القرآن الذى دعا له النبى ﷺ: **«اللهم فقهه فى الدين وعلمه التاويل»**، وقال له أيضاً: **«اللهم آته الحكمة»** وفى رواية: **«اللهم علمه الحكمة»**.

وأخرج أبو نعيم فى الحلية عن ابن عمر قال: دعا رسول الله ﷺ لعبد الله بن عباس، فقال: **«اللهم بارك فيه وانشر منه»**.

وأخرج من طريق عبد المؤمن بن خالد عن عبد الله بن بريدة عن ابن عباس قال: انتهيت إلى النبى ﷺ وعنده جبريل، فقال له جبريل: إنه كائن حبر هذه الأمة، فاستوصِ به خيراً.

وأخرج من طريق عبد الله بن خراش عن العوام بن حوشب، عن مجاهد قال: قال ابن عباس: قال لى رسول الله ﷺ : **«نعم ترجمان القرآن أنت»**.

وأخرج أبو نعيم عن مجاهد، قال: كان ابن عباس يسمى البحر لكثرة علمه.

وأخرج عن ابن الحنفية، قال: كان ابن عباس حبر هذه الأمة.

وأخرج عن الحسن، قال: إن ابن عباس كان من القرآن بمنزل، كان عمر يقول: ذاكم فتى الكهول إن له لساناً سؤلاً، وقلباً عقولاً.

وأخرج من طريق عبد الله بن دينار، عن ابن عمر أن رجلا أتاه يسأله عن: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ فقال: اذهب إلى ابن عباس فسله، ثم تعال أخبرني، فذهب فسأله، فقال: كانت السموات رتقاً لا تمطر، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت، ففتق هذه بالمطر وهذه بالنبات. فرجع إلى ابن عمر فأخبره، فقال: قد كنت أقول: ما يعجبنى جراءة ابن عباس على تفسير القرآن، فالآن قد علمت أنه أوتى علماً.

وأخرج البخارى من طريق سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: كان عمر

يدخلنى مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد فى نفسه، فقال: لِمَ يدخل هذا معنا وإن لنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه ممن علمتم ودعا بهم ذات يوم فأدخله معهم، فما رأيت أنه دعانى فيهم يومئذ إلا ليريهم، فقال: ما تقولون فى قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً، فقال لي: أكذلك تقول يا بن عباس؟ فقلت: لا. فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه به، قال: إذا جاء نصر الله والفتح، فذلك علامة أجلك، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً فقال عمر: لا أعلم منها إلا ما تقول !.

وأخرج أيضاً من طريق ابن أبى مليكة عن ابن عباس، قال: قال عمر بن الخطاب يوماً لأصحاب النبى ﷺ : فيمن ترون هذه الآية نزلت: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ﴾؟ (البقرة:٢٦٦) قالوا: الله أعلم، فغضب عمر فقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس: فى نفسى منها شيء، فقال: يا ابن أخي، قل ولا تحقر نفسك، قال ابن عباس: ضربت مثلاً لعمل، فقال عمر: أى عمل؟ قال ابن عباس: لرجل يعمل بطاعة الله، ثم بعث له الشيطان فعمل بالمعاصى حتى أغرق أعماله.

وأخرج أبو نعيم عن محمد بن كعب القرظى عن ابن عباس، إن عمر بن الخطاب جلس فى رهط من المهاجرين من الصحابة، فذكروا ليلة القدر، فتكلم كل بما عنده، فقال عمر: ما لك يا بن عباس صامت لا تتكلم؟ تكلم ولا تمنعك الحداثة، قال ابن عباس: فقلت: يا أمير المؤمنين، إن الله وتر يحب الوتر، فجعل أيام الدنيا تدور على السبع، وخلق الإنسان من سبع، وخلق فوقنا سموات سبعاً، وخلق تحتنا أرضين سبعاً، وأعطى من المثانى سبعاً، ونهى فى كتابه عن نكاح الأقربين عن سبع، وقسم الميراث فى كتابه على سبع، ونقع فى السجود من أجسادنا على سبع وطاف رسول الله ﷺ بالكعبة سبعاً، وبين الصفا والمروة سبعاً، ورمى الجمار بسبع، فأراها فى السبع الأواخر من شهر رمضان فتعجب عمر،

وقال: ما وافقنى فيها أحد إلا هذا الغلام الذى لم تستو شؤون رأسه، ثم قال: يا هؤلاء من يؤدينى فى هذا كابن عباس.

وقد ورد عن ابن عباس فى التفسير ما لا يحصى كثرة، وفيه روايات وطرق مختلفة، فمن جيدها طريق علىّ بن أبى طلحة الهاشمى عنه، قال أحمد بن حنبل: بمصر صحيفة فى التفسير، رواها علىّ بن أبى طلحة، لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً أسنده أبو جعفر النحاس فى ناسخه.

قال ابن حجر: وهذه النسخة كانت عند أبى صالح كاتب الليث، رواها عن معاوية بن صالح، عن علىّ بن أبى طلحة، عن ابن عباس، وهى عند البخارى عن ابن صالح، وقد اعتمد عليها فى صحيحه كثيراً فيما يعلقه عن ابن عباس.

وأخرج منها ابن جرير وابن أبى حاتم وابن المنذر كثيراً بوسائط بينهم وبين أبى صالح. وقال قوم: لم يسمع ابن أبى طلحة من ابن عباس التفسير، وإنما أخذه عن مجاهد أو سعيد بن جبير.

قال ابن حجر: بعد أن عرفت أن الواسطة وهو ثقة، فلا ضير فى ذلك.

وقال الخليلى فى الإرشاد: تفسير معاوية بن صالح قاضى الأندلس عن علىّ بن أبى طلحة، عن ابن عباس، رواه الكبار عن أبى صالح كاتب الليث، عن معاوية.

وأجمع الحفاظ على أن ابن أبى طلحة لم يسمعه من ابن عباس، قال: وهذه التفاسير الطوال التى أسندوها إلى ابن عباس غير مرضية، ورواتها مجاهيل، كتفسير جويبر عن الضحاك، عن ابن عباس.

وعن ابن جريج فى التفسير جماعة رووا عنه، وأطولها ما يرويه بكر بن سهل الدمياطى عن عبد الغنى بن سعيد عن موسى بن محمد، عن ابن جريج، وفيه نظر.

وروى محمد بن ثور، عن ابن جريج نحو ثلاثة أجزاء كبار، وذلك صححوه.

وروى الحجاج بن محمد، عن ابن جريج نحو جزء وذلك صحيح متفق عليه.

وتفسير شبل بن عباد المكى عن ابن أبى نجيح عن مجاهد، عن ابن عباس قريب إلى الصحة وتفسير عطاء بن دينار يكتب ويحتج به.

وتفسير أبى روق نحو جزء صححوه، وتفسير إسماعيل السدى يورده بأسانيد إلى ابن مسعود وابن عباس، وروى عن السدى الأئمة، مثل الثورى وشعبة، لكن التفسير الذى جمعه رواه أسباط بن نصر، وأسباط لم يتفقوا عليه، غير أن أمثل التفاسير تفسير السدي.

فأما ابن جريج، فإنه لم يقصد الصحة، وإنما روى ما ذكر فى كل آية من الصحيح والسقيم، وتفسير مقاتل بن سليمان، فمقاتل فى نفسه ضعفوه، وقد أدرك الكبار من التابعين، والشافعى أشار إلى أن تفسيره صالح انتهى كلام الإرشاد. وتفسير السدى الذى أشار إليه يورد منه ابن جرير كثيراً من طريق السدى عن أبى مالك، وعن أبى صالح عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود وناس من الصحابة وهكذا، ولم يورد منه ابن أبى حاتم شيئاً لأنه التزم أن يخرج أصح ما ورد، والحاكم يخرج منه فى مستدركه أشياء ويصححه لكن من طريق مرة عن ابن مسعود، وناس فقط دون الطريق الأول، وقد قال ابن كثير: إن هذا الإسناد يروى به السدى أشياء فيها غرابة.

ومن جيد الطرق عن ابن عباس طريق قيس عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عنه، وهذه الطريقة صحيحة على شرط الشيخين، وكثيراً ما يخرج منها الفريابي، والحاكم فى مستدركه، ومن ذلك طريق ابن إسحاق عن محمد بن أبى محمد مولى آل زيد بن ثابت، عن عكرمة أو سعيد بن جبير عنه، هكذا بالترديد، وهى طرق جيدة وإسنادها حسن.

وقد أخرج منها ابن جرير وابن أبى حاتم كثيراً، وفى معجم الطبرانى الكبير منها أشياء، وأوهى طرقه طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس، فإن انضم إلى ذلك رواية محمد بن مروان السدى الصغير فهى سلسلة الكذب.

وكثيرا ما يخرج منها الثعلبى والواحدي، لكن قال ابن عدى فى الكامل: للثعلبى أحاديث صالحة، وخاصة عن أبى صالح وهو معروف بالتفسير، وليس لأحد تفسير أطول منه ولا أشبع، وبعده مقاتل بن سليمان، إلا أن الثعلبى يفضل عليه لما فى مقاتل من المذاهب الرديئة، وطريق الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس منقطعة، فإن الضحاك لم يلقه، فإن انضم إلى ذلك رواية بشر بن عمارة، عن أبى روق عنه فضعيفة؛ لضعف بشر.

وقد أخرج من هذه النسخة كثيراً ابن جرير وابن أبى حاتم، وإن كان من رواية جويبر عن الضحاك فأشد ضعفاً، لأن جويبراً شديد الضعف متروك، ولم يخرج ابن جرير ولا ابن أبى حاتم من هذا الطريق شيئاً، إنما أخرجها ابن مردويه وأبو الشيخ ابن حيان، وطريق العوفى عن ابن عباس، أخرج منها ابن جرير وابن أبى حاتم كثيراً، والعوفى ضعيف ليس بواهٍ، وربما حسَّن له الترمذي، ورأيت عن فضائل الإمام الشافعى لأبى عبد الله محمد بن أحمد بن شاكر القطان أنه أخرج بسنده من طريق ابن عبد الحكم، قال: سمعت الشافعى يقول: لم يثبت عن ابن عباس فى التفسير إلا شبيه بمائة حديث.

وأما أبى بن كعب، فعنه نسخة كبيرة يرويها أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس عن أبى العالية عنه، وهذا إسناد صحيح، وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم منها كثيراً، وكذا الحاكم فى مستدركه، وأحمد فى مسنده، وقد ورد عن جماعة من الصحابة غير هؤلاء اليسير من التفسير، كأنس وأبى هريرة وابن عمر وجابر وأبى موسى الأشعرى وورد عن عبد الله بن عمرو بن العاص أشياء تتعلق بالقصص وأخبار الفتن والآخرة، وما أشبهها بأن يكون مما تحمله عن أهل الكتاب كالذى ورد عنه فى قوله تعالى: ﴿فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ قال السيوطي: وكتابنا الذى أشرنا إليه جامع لجميع ما ورد عن الصحابة من ذلك.

فصل فى طبقة التابعين

قال ابن تيمية: أعلم الناس بالتفسير أهل مكة، لأنهم أصحاب ابن عباس، كمجاهد وعطاء بن أبى رباح، وعكرمة مولى ابن عباس، وسعيد بن جبير، وطاووس وغيرهم.

وكذلك فى الكوفة أصحاب ابن مسعود، وعلماء أهل المدينة فى التفسير، مثل زيد بن أسلم الذى أخذ عنه ابنه عبد الرحمن بن زيد ومالك بن أنس. انتهى.

فمن المبرزين مجاهد، قال الفضل بن ميمون: سمعت مجاهداً يقول: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة.

وعنه أيضاً قال: عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات، أقف عند كل آية منه، وأسأله عنها فيم نزلت؟ وكيف كانت؟

وقال خصيف: كان أعلمهم بالتفسير مجاهد.

وقال الثوري: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به.

قال ابن تيمية: ولهذا يعتمد على تفسيره الشافعى والبخارى وغيرهما من أهل العلم.

قلت: وغالب ما أورده الفريابى فى تفسيره عنه، وما أورده فيه عن ابن عباس أو غيره قليل جداً.

ومنهم سعيد بن جبير. قال سفيان الثوري: خذوا التفسير عن أربعة: عن سعيد ابن جبير، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك.

وقال قتادة: كان أعلم التابعين أربعة، كان عطاء بن أبى رباح أعلمهم بالمناسك، وكان ابن جبير أعلمهم بالتفسير، وكان عكرمة أعلمهم بالسير، وكان الحسن أعلمهم بالحلال والحرام.

ومنهم عكرمة مولى ابن عباس، قال الشعبي: ما بقى أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة، وقال سماك بن حرب: سمعت عكرمة يقول: لقد فسرت ما بين اللوحين.

وقال عكرمة: كان ابن عباس يجعل فى رجلى الكبل، ويعلمنى القرآن والسنن. وأخرج ابن أبى حاتم عن سماك، قال: قال عكرمة: كل شيء أحدثكم فى القرآن، فهو عن ابن عباس.

ومنهم الحسن البصري، وعطاء بن أبى رباح، وعطاء بن أبى سلمة الخراسانى ومحمد بن كعب القرظي، وأبو العالية، والضحاك بن مزاحم، وعطية العوفي، وقتادة، وزيد بن أسلم، ومرة الهمداني، وأبو مالك، ويليهم الربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى آخرين.

فهؤلاء قدماء المفسرين، وغالب أقوالهم تلقوها عن الصحابة.

ثم بعد هذه الطبقة ألفت تفاسير تجمع أقوال الصحابة والتابعين كتفسير سفيان بن عيينة، ووكيع بن الجراح، وشعبة بن الحجاج، ويزيد بن هارون، وعبد الرزاق وآدم بن أبى إياس، وإسحاق بن راهويه، وروح بن عبادة، وعبد بن حميد، وسنيد، وأبى بكر ابن أبى شيبة وآخرين، وبعدهم ابن جرير الطبري، وكتابه أجل التفاسير وأعظمها.

ثم ابن أبى حاتم وابن ماجه والحاكم وابن مردويه وأبو الشيخ ابن حيان وابن المنذر فى آخرين، وكلها مسندة إلى الصحابة والتابعين وأتباعهم، وليس فيها غير ذلك إلا ابن جرير، فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض، والإعراب والاستنباط، فهو يفوقها بذلك.

ثم ألف فى التفسير خلائق، فاختصروا الأسانيد، ونقلوا الأقوال بتراً، فدخل من هنا الدخيل، والتبس الصحيح بالعليل، ثم صار كل من يسنح له قول يورده، ومن يخطر بباله شيء يعتمده، ثم ينقل ذلك عنه من يجيء بعده، ظاناً أن له أصلاً، غير ملتفت إلى تحرير ما ورد عن السلف الصالح، ومن يرجع إليهم فى التفسير، حتى رأيت من حكى فى تفسير قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ نحو عشرة أقوال، وتفسيرها باليهود والنصارى هو الوارد عن النبى ﷺ وجميع الصحابة والتابعين وأتباعهم، حتى قال ابن أبى حاتم: لا أعلم فى ذلك اختلافاً بين المفسرين.

ثم صنف بعد ذلك قوم برعوا فى علوم التفسير، فكان كل منهم يقتصر فى تفسيره على الفن الذى يغلب عليه، فالنحوى تراه ليس له هم إلا الإعراب وتكثير الأوجه المحتملة فيه، ونقل قواعد النحو ومسائله وفروعه وخلافاته، كالزجاج والواحدى فى «البسيط» وأبى حيان فى «البحر» و«النهر»، والأخباري ليس له شغل إلا القصص واستيفاءها والإخبار عمن سلف، سواء كانت صحيحة أو باطلة كالثعلبي.

والفقيه يكاد يسرد فيه الفقه من باب الطهارة إلى أمهات الأولاد ،وربما استطرد إلى إقامة أدلة الفروع الفقهية التى لا تعلق لها بالآية، والجواب عن أدلة المخالفين كالقرطبي.

وصاحب العلوم العقلية – خصوصا الإمام فخر الدين – قد ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة وشبهها، وخرج، شيء إلى شيء، حتى يقضى الناظر العجب من عدم مطابقة المورد للآية، قال أبو حيان فى «البحر»: جمع الإمام الرازى فى تفسيره أشياء كثيرة طويلة لا حاجة بها فى علم التفسير، ولذلك قال بعض العلماء: فيه كل شيء إلا التفسير.

والمبتدع ليس له قصد إلا تحريف الآيات وتسويتها على مذهبه الفاسد، بحيث إنه متى لاح له شاردة من بعيد اقتنصها، أو وجد موضعاً له فيه أدنى مجال سارع إليه.

قال البلقيني: استخرجت من الكشاف اعتزالاً بالمناقيش من قوله تعالى فى تفسير: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ﴾ (آل عمران:١٨٥)، وأى فوز أعظم من دخول الجنة، أشار به إلى عدم الرؤية، والملحد فلا تسأل عن كفره، وإلحاده فى آيات الله، وافترائه على الله ما لم يعلم، كقول بعضهم في: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ﴾ ما على العباد أضر من ربهم.

وكقوله فى سحرة موسى ما قال، وقول الرافضة في: ﴿يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ﴾ (البقرة:٦٧)، ما قالوا، وعلى هذا وأمثاله يحمل ما أخرجه أبو يعلى وغيره عن

حذيفة أن النبى ﷺ قال: «**إن فى أمتى قوماً يقرءون القرآن ينثرونه نثر الدقل، يتأولونه على غير تأويله**».

فإن قلت: فأى التفاسير ترشد إليه، وتأمر الناظر أن يعول عليه؟

قلت: تفسير الإمام أبى جعفر ابن جرير الطبرى الذى أجمع العلماء المعتبرون على أنه لم يؤلف فى التفسير مثله. قال النووى فى «تهذيبه»: كتاب ابن جرير فى التفسير لم يصنف أحد مثله.

وقد شرعت فى تفسير جامع لجميع ما يحتاج إليه من التفاسير المنقولة والأقوال المقولة، والاستنباطات والإرشادات، والأعاريب، واللغات، ونكت البلاغة ومحاسن البدائع وغير ذلك بحيث لا يحتاج معه إلى غيره أصلاً، وسميته «مجمع البحرين ومطلع البدرين»، وهو الذى جعلت هذا الكتاب مقدمة له والله أسأل أن يعين على إكماله بمحمد وآله.

وإذ قد انتهى بنا القول فيما أردناه من هذا الكتاب، فلنختمه بما ورد عن النبى ﷺ من التفاسير المصرح برفعها إليه، غير ما ورد فى أسباب النزول لتستفاد فإنها من المهمات. مثل قوله ﷺ إن المغضوب عليهم هم اليهود وإن الضالين النصارى.

وعن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾، من الحيض والغائط والنخامة والبزاق ونحو ذلك فليرجع إليه من يشاء فى كتب الحديث الصحيحة والله أعلم.

فصل

فى الربط بين سور القرآن بعضها ببعض

وهذا الفصل من أهم الفصول المتعلقة بالقرآن الكريم وللمنشغلين بتفسير القرآن، فنقول وبالله التوفيق:

إن آخر الفاتحة قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ (الفاتحة:٦-٧).

وأول البقرة: ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة:١-٢)، نقول: حين نزل القرآن الكريم على الرسول الأعظم كان مراعى فيه مقتضى الحال فى توضيح مبادئ الدين الجديد، والحكمة العظمى فى ذلك أن ينزل الوحى ليقطع على المكذبين السبيل فى دعوى التكذيب أو السحر أو التأليف فيكون أقوى فى الدلالة على صدق الصادق الأمين.

وحين قتل سبعمائة حافظ للقرآن وخيف اشتداد القتال فيذهب جميع الحافظين جمع من الصدور وكتب فيما كان يكتب عليه، وبقى ذاك عند (حفصة) رضى الله عنها – بنت سيدنا عثمان ﷺ – إلى أن أراد سيدنا عمر عليه الرضوان نسخه بلغة قريش مع ترتيب السور.

والمعروف المتواتر أن أول ما نزل على الرسول الأعظم سورة (القلم) وآخر ما نزل عليه قوله تعالى فى سورة المائدة : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (المائدة:٣) والقصد بكمال الدين إتمام أحكامه، الصالحة لكل زمان ومكان إلى يوم القيامة، وقد صعد روح الرسول إلى الرفيق الأعلى بعد اثنتين وثمانين يوماً من نزول الآية الكريمة، وبكى سيدنا أبو بكر ﷺ حين سماعها.

فقد سقنا هذا لندل على دلالات الربط بين سور القرآن مع التفاوت الزمنى فى إنزاله – والقرآن الكريم (المعجز) يتميز بخصائصه الدالة على كماله، ومنها ذلك الربط العجيب مع الإبانة الواضحة – ولقد قصدنا إلى الدلالة الرابطة بين أواخر السور وأوائل ما بعدها، فتتجلى العظمة الأدائية فى الوحدة الموضوعية.

ووجه الربط بين آخر فاتحة الكتاب وأول سورة البقرة: ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، أن فى ختام الفاتحة طلب الهداية من الله لاتباع سبيل المستقيمين، المنعم عليهم برضاه دون المطرودين من رحمته، لعدم اتباع دينه بتكذيب نبيه، الذى أتى بكتابه المنير، لكن المنكرين كانوا تائهين مغطى على

عيونهم فلم يبصروا نوره، ولما كان القصد الاعتراف بأن الكتاب المنزل (دليل العقيدة) ارتبط القول بأنه لاشك فيه، بل هو مرشد الذين يمتثلون أوامر الله تعالى ويجتنبون نواهيه ، وقال ابن عباس – رضى الله عنهما –: إن المراد بالصراط المستقيم هو (القرآن) بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ (الأنعام:١٥٣).

وإن الربط الرائع جلى فى أن فاتحة الكتاب تتضمن المعرفة بالذات العلية فى الحمد على الرحمة. والملك العظيم وتفرده بالعبادة والعون وطلب الهداية بما جاء فى كتابه العظيم.

الربط بين آخر سورة البقرة وأول آل عمران:

آخر سورة البقرة: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (البقرة:٢٨٦).

وأول سورة آل عمران: ﴿الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ (آل عمران:١-٢)

علَّم الله – اللطيف الخبير- عباده دعوات يدعونه بها، حتى يبعد عنهم العقوبة فى النسيان أو الخطأ ورفع الأثقال عنهم فى التكاليف الشرعية؛ تفضلاً ورحمة، وطلب التجاوز عن السيئة، والتستر على الذنوب، والرحمة للنجاة من العقاب والاعتراف بالسيادة والتفويض، ثم طلب النصرة على الأعداء.

كل هذا كان ختام سورة (البقرة) فى قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (البقرة:٢٨٦).

لقد كانت النصرة على الجاحدين آخر الدعاء؛ لأن الأعداء كانوا معاندين، يرون الحق، فيجادلون بالباطل، ويبصرون الدلائل فيتعامون عنها، حتى ألغوا عقولهم،

وبعدوا عن المنطق، فلم تبق سوى قدرة القادر العظيم فى تولى أمرهم، ويؤتى عباده المخلصين القدرة على قهر العناد والجحود والكيد والإصرار على الضلال.

إن الربط وثيق بين أول سورة آل عمران، فقد افتتحت بقوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾، وفيه دليل التعجيز مع الإقرار بالوحدانية لله - تبارك وتعالى - والتنويه بالكتاب العظيم الذى كان موضع إنكارهم على موافقة ما جاء فيه للكتب السماوية بل يزيد عليها بالتشريع الصالح لكل زمان ومكان.

قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ (آل عمران:١-٢). وهذا الافتتاح فيه أبلغ رد على طلب الولاية منه؛ للنصرة على الكافرين، مع إثبات الألوهية ثم التوكيد بالأسلوب الرائع: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فى القصر الموحى بعدم تعدى الربوبية إلى سواه؛ لأنه متصف بكل كمال من حيث الدوام والبقاء، فلا يصح عليه الموت دون كل كائن، ومن حيث القيام بذاته والقيام بتدبير شئون خلقه فى ملكه الواسع اللائق بعلمه الذى لا حدود له، وقدرته الفائقة لتنظيم المعاش والمعاد، ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ لفظان جمعا صفات الكمال كلها، ودلا على جلال المعبود سبحانه.

الربط بين آخر سورة آل عمران وأول النساء:

آخر سورة آل عمران: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

وأول سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾.

دعا الله تبارك وتعالى - المؤمنين - آخر سورة آل عمران - إلى الإيمان والصبر، والمصابرة بعد تقرير التوحيد وإقرار العدل، ومعرفة النبوة والتطلع إلى الآخرة، ثم تحمل أداء الواجبات، والخوف من عصيان الله - عز وجل - فى كل حال، مع تأميل الجزاء الأوفى وفق العمل الصالح.

كل هذا يدل عليه قوله تعالى - جلت حكمته. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

فإن كلمة (لعل) فى كلام الجليل لتحقق وقوع ما بعدها، و(الصبر والمصابرة) يتلاقى معناهما فى (قوة الاحتمال) على ما يخالف النفس بمطاردة الشهوة والغضب والحرص، أما (الرباط) فداع إلى الثبات والمتانة، وبهما تتحقق المغالبة على الهواجس النفسية لثبوت القوة الروحية.

وقد افتتحت سورة النساء بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾. فالتقوى فيها الربط والتوثيق، لأن فى السورة تكاليف تشق على النفوس، وتثقل على الطباع، وتحتاج إلى (الصبر والمصابرة) على صورة أتم والنداء - فى آخر سورة آل عمران - للمؤمنين. وفى سورة النساء كان النداء لجميع المكلفين لأنهم (خلقوا من نفس واحدة) فحق عليهم الحكيم الواحد فى الطاعة لما أمر، والنهى عما أنكر، ولزوم أصول العقيدة فى العبادات والمعاملات وسائر التكاليف.

ومن عجيب التوافق أن يكون هذا مفتتح هذه السورة - وهى الرابعة من نصف القرآن - متفقة مع سورة الحج - وهى الرابعة من النصف الثانى -، وإن كان الأمر فى الأولى لما فيه قوام الحياة، والأمر فى الثانية لما فى الآخرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ (الحج:١)، والتفضل بالخلق من العدم موجب للخضوع مع الاعتراف بالشكران على هذا الإنعام، على أن وجودنا من نفس واحدة دلالة على القدرة الموجبة للانقياد إليه تعالى، وفى قوله ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ إشارة إلى وحدة الأصل وإن اختلف الجنس واللون: «**كلكم لآدم وآدم من تراب إن أكرمكم عند الله اتقاكم**».

الربط بين آخر سورة النساء وأول المائدة:

يقول الله تبارك وتعالى فى آخر النساء: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾.

وفى أول المائدة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ .

فجاء فى مختتم سورة النساء بما يدل على توضيح الأحكام فيما يحقق مصالح العباد، وتنظيم حياتهم ومعاملاتهم وحقوق غيرهم بعد موتهم فقال – جلت حكمته –: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾، والتذييل آخر الآية (بالكلية) التى يحيط علمه بها دليل على أنه الواحد المتفرد بالمعرفة، وأن القوانين البشرية لم توضع إلا فى ضوء تعاليمه الجليلة القويمة.

ولقد جاء مفتتح سورة المائدة متلاقياً مع القيام بما أوجبه فقال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ۚ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾، وقد أورد فى السورة ثمانى عشرة فريضة، ولما جاء فى سورة النساء أحكام تتصل بالميراث، وكان فى تطبيقها عهد موثق، يجب أن يحاط بالخوف من عدم أدائه وبخاصة اليتامى أكد الله – تبارك وتعالى – القيام على أكمل وجه مع التوقى من المخالفة، ونهى عن ضم أموال اليتامى إلى أموال القائمين على رعايتهم فقال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ﴾ (النساء:٢).

وعبر بقوله: ﴿تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ دون (تضموا)، وضمنه معناه لأن فى الأكل تقبيحاً مشيراً إلى أنهم: ﴿يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ (النساء:١٠)، هذا فى حال الاستغناء، أما عند الحاجة فحلل الأكل بالمعروف، وفى هذا التلاقى العجيب اتساق متماسك.

وإن الوفاء بما توثق بين العباد وخالقهم، أو بينهم وبين أنفسهم دليل على الإيمان الحقيقى فى التطبيق، والتعبير بقوله: ﴿أَوْفُواْ﴾ دون (أدوا) إشارة إلى الكمال فيما يراد على وجه يشعر بالطاعة من دون تقصير فى أى جانب من الجوانب، والله أعلم.

الربط بين آخر سورة المائدة وأول سورة الأنعام:

يقول الله تبارك وتعالى فى آخر المائدة: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ﴾ .

وفي أول الأنعام: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.

هذه القضية كانت خاتمة سورة المائدة من حيث ثبت باعتراف من نسبت إليه الألوهية تنزيهه تعالى عن الشريك، وإقرار الملكية له وحده، بقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ﴾.

وقد جاء فى الآيات ما أشرق فى النفس – مع توفيقه تعالى – من إثبات الملك الواسع والقدرة الشاملة مما لا يمكن أن يحوزه أو يقدر عليه غير الخالق: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (الأنعام:١٠١).

ولقد كان الربط عجيباً بين آخر سورة المائدة وأول سورة الأنعام فقال – جل وعلا –: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾، من حيث تلاقى الملك والقدرة مع السموات والأرض، فالملكية تقتضى التصرف المطلق فى أن يجعل نهاراً وليلاً للمعاش والسكن، وكان فى قدرته أن يجعل الكون كله ليلاً أو نهاراً لكنه (واحد) فى تصرفه مما يدل على دفع الشريك عنه، فى صورة قاطعة، لا تقبل الجدل والمكابرة.

ولما كان الملك ثابتاً لله وحده، وتقديم الجار والمجرور للاختصاص، أردف ذلك بالحمد؛ ليعترف كل بصير بقدرته اعترافاً يتم بنور بصيرته، والله أعلم.

الربط بين آخر سورة الأنعام وأول الأعراف:

يقول الله –عز وجل– فى آخر الأنعام: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾.

ويقول فى أول الأعراف: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

إذا كان الاختيار فى مدى تحمل المطيعين لما جاءت به الشريعة من تكاليف والكتاب المنزل فيهم جماع الأوامر والنواهى مما يحدد العلاقة بين العباد وخالقهم، وبينهم وبين أنفسهم، بما فيه من زيادة الترشيد.

وإذا كان الأمر كذلك قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ﴾ (الأنعام:١٥٥)، فربط فى سورة الأعراف بقوله تعالى: ﴿ الٓمٓصٓ ۝ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأعراف:١-٢) ولقد وقعت البركة بجمعه كلمة العرب، وامتلائه بالحكم والمواعظ والشفاء، والشفاعة لقارئه وتحمل ما يكون من ضيق فى سبيل التصديق به مع إنكار المنكرين.

وإن الرسول الأعظم كان يخشى عدم القيام بالرسالة على الوجه الأكمل، فيقع الضيق لكن الله تعالى قد تفضل عليه فى موطن آخر فقال:﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ فانفسح ما ضاق، وثبت ما اضطرب، وعلا الاسم بعلو الكلمة إلى يوم الدين.

وقد قال بعض المفسرين: إن الضيق والوزر والشك كانت قبل الإنعام عليه بالرسالة التى استقرت بها نفسه وشرح الله بها صدره.

الربط بين آخر سورة الأعراف وأول الأنفال:

يقول الله تبارك وتعالى فى آخر الأعراف: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾.

يقول الله تبارك وتعالى فى أول الأنفال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

إن الخضوع لذات الله – عز وجل – دليل على الاعتراف بفضله، وإكبار عبادته عن ارتباطها بأمر دنيوي، يقلل من شأنها، فهى لجلاله خالصة، وقد ختمت

سورة الأعراف بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾، والقصد من قوله: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ هم المقربون قرب المكانة من الملائكة، من حيث تفردهم للعبادة والطاعة ابتغاء مرضاته بترك الاستكبار الموجب للمعصية، وترك الغفلة بدوام تنزيهه عن كل ما لا يليق بقدسيته، واختصاصه بالخضوع له دون سواه.

ولقد اختلف المسلمون فى غزوة بدر عند تقسيم الغنائم مع أن الجهاد عبادة بشراء الأنفس: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ (التوبة:١١١)، والجنة موطن الملائكة الذين وصفهم المولى عز وجل بالأوصاف السابقة، والذين يجاهدون فى سبيله تعالى -من دون تطلع إلى غرض دنيوى زائل- هم ملحقون بذوى المكانة الرفيعة، وهم مقربون عنده بالرضا فعبادتهم لذاته العليا.

وكذلك المجاهدون فى سبيله وهم راغبون فى الفداء من دون ترقب جزاء عاجل، إنه عليه الصلاة والسلام كان يجفو عادات الجاهلية، ويميل إلى الوحدة والتأمل؛ للبحث عن الواحد الأحد، فالوزر يطلق على ثقل الرسالة وتبعاتها كما أوضحنا، ولا حاجة إلى الإبعاد فى التأويل لتنزيه الرسول عن الخواطر البشرية؟، فقد عوقب من ربه، ووقع انقطاع الوحى عنه فترة حتى قال الحاقدون: لقد وعده ربه وقلاه. فنزل قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ (الضحى:١-٣)، ثم شرفه أعظم تشريف، فقال عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:٤)، كما قلنا آنفاً ولا شك فى أن العتاب رمز إلى بشرية الرسول: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ (الأنبياء:٣٤)، مما يدل على أن المرتدين بعد موته – عليه السلام – لم يكونوا أقوياء الإيمان.

ثم إن الربط جلى بين آخر سورة الأعراف فى خلوص العبادة وأول سورة الأنفال من حيث الأمر بالتقوى، والإصلاح وطاعة الرسول، ومن هذه الثلاثة

تقوم النفس المؤمنة الصادقة كما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ﴾ (الأنفال:١).

ومن الروعة العجيبة التعبير بـ (إنْ) المفيدة الشك لدى البشر، مما يدل على أن إيثار الجزاء الخالد أعظم من عرض الدنيا الذاهب، وبهذا الإيثار يتحقق خلوص الإيمان ولقد أردف – جلت حكمته – الآية بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (الأنفال:٢).

وفى هذا القول المعنى الرائع للحقيقة الناصعة فى تربية الروح، بتفضيل المعنى على المادة، وتزويد القلب بالمعرفة، ثم تفويض الأمر لجلال عطائه، وهو الذي: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فيعطى الأجزل الأجل، سبحانه هو الغنى الحميد .

لقد صوّر المبدع معنى الترقى فى الإيمان بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (الأنفال:٣-٤).

فجعل الرقى – جل شأنه – ثلاث مقامات: (مقام الخوف، وزيادة الإيمان، والتوكل) – أما الإنفاق فى سبيل الله، ففيه إشعار بعدم طلب عارض من عوارض الدنيا مربوطة بالجهاد، والله أعلم.

الربط بين آخر سورة الأنفال وأول التوبة :

يقول الله تبارك وتعالى فى آخر الأنفال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ .

ويقول الله – تبارك وتعالى – فى أول براءة: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

فسورة (التوبة) مسماة بأبرز ما خلق العبد لأجله فى الرجوع إلى ربه بعد الاعتراف بذنبه، والندم على وقوعه وأخذ العهد على نفسه بعدم العودة إليه.

وقد ذكر الزمخشرى لها أسماء كثيرة منها (براءة) و (الخزية) و (الدمدمة) و (العذاب) لكن حادث الثلاثة الذين تأخروا عن القتال فعصوا أمر ربهم، ثم رجعوا معترفين بالذنب، ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾(التوبة:١١٨)، واعتقدوا ألا ملجأ لهم سواه بالعفو عنهم وانفساح صدورهم بعد ضيقها إلى أن تجلى عليهم بالتوبة.

نقول: لكن هذا الحادث وما ارتبط به من عفوه تعالى كان رمزاً على السورة كلها، ليرجع العصاة إلى ربهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (التوبة:١١٨)، وقوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ (التوبة:١١٧).

أما المخلفون فهم كعب بن مالك وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع. يقول المولى – عز وجل – آخر سورة الأنفال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾

إن وجه الربط فى بيان أن موالاة المؤمنين فيها الرمز إلى قطيعة الكافرين، والبعد عنهم مع قطع العلائق بينهم بعد ما ظهر من غشهم وخداعهم ونقضهم العهود، ووضوح عداوتهم.

ولقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة، ما عدا هؤلاء الأعداء المبعدين عن رحمته.

والالتقاء واضح فى (موالاة) المؤمنين، (البراءة) من غيرهم الذين نبذوا العهد فى غزوة (تبوك) بعد أن تخلف المنافقون عن الجهاد، ونشروا الشائعات، فكانوا دعاة الهزيمة، ولهذا لم تثبت (البسملة) أول سورة التوبة، لوحدة الموضوع فيما سيق لأجله الكلام الجليل.

قال ابن عباس رضى الله عنهما: «بسم الله الرحمن الرحيم أمان، وهذه السورة نزلت بالسيف لنبذ العهود». فالبسملة من عادتها الأمان فلا يصح أن تقرن بالخيانة.

وتحمل الإشارة هنا إلى أمرين:

أولهما: كيف نزلت بالسيف، والدين لم ينشر به ؟!

وثانيهما: كيف نبذ العهد والدين أمر بحفظه ؟

والأمر الأول متصل بالمنطق الذى يعرفه هؤلاء المعاندون بعد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والدعوة إلى المسالمة، فكان لابد من (رد العدوان) باللغة التى يفهمونها.

والأمر الثانى واقع بعد أن أذن الله فى معاهدة المشركين، لكنهم نقضوا العهد، فكان الجزاء من جنس العمل.

إن الرسول الصادق الأمين الوفى لم يعهد عنه نقض عهد إلا بالمجازاة على الفعل عند ظهور الخيانة المستورة وخوف الضرر والأمر من الله لنقضه، لعلمه حقيقة أمر الخائنين، وانقضاء مدة العهد، ولذلك قال – جلت حكمته – : ﴿... إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ﴾ (التوبة:٤)، قالوا: إن جميع المشركين نقضوا عهدهم ما عدا بنى نمرة وبنى كنانة، ومن هذا يتجلى مدى حرص الإسلام على توثيق العهود، وتوفيتها وعدم الغدر بها.

إن الربط وثيق بين آخر الأنفال وأول التوبة من حيث وجوب (موالاة) المؤمنين و(مجافاة) ناقضى العهود – وقد كتب الله عليهم الخزى وبشر المؤمنين بالنصر ما داموا أوفياء بعهودهم من الله غير معاهدين أعداءه – وفى هذا إشارة على أن كل معاقد عهدٍ بين الأعداء تجب مقاطعته، والتهوين من شأنه، لأن الصلات الروحية بين المؤمنين تتجلى فى الصفاء، والوفاء وحفظ العهد، والموالاة الصادقة التى تحقق الرابطة الخالدة.

الربط بين آخر سورة (التوبة) وأول سورة (يونس):

يقول الله تبارك وتعالى في آخر التوبة: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

وفى أول يونس: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

ففى قرب مختتم سورة (التوبة) صور الله – تبارك وتعالى- استنكار المنافقين المنكرين ما يسمعونه من آى القرآن الكريم إمعاناً فى التكذيب بغضاً وحسداً لسيد المرسلين، فقال تعالى:﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ (التوبة:١٢٧).

وقوله تعالى: ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ فيه الحيرة والخوف والاستهزاء فى خفاء، غير عالمين أن الله مطلع على سرائرهم، عارف ما تطوى ضمائرهم، فهم يخشون الناس، والله أحق أن يخشوه، فقالوا مقالة جبن النفاق: هل يبصركم أحد من المؤمنين حين تنظرون هذه النظرات المريبة، فينكشف أمرهم؟ ومن رائع التناسق قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ وفيه المجازاة بعدم التوفيق حين بعدوا عن الهدى، وارتبط عدم تصديقهم بتغطية عقولهم، التى منعتهم علم ما جاء فى الكتاب المبين – وهو من جنس لغتهم فادعوا إنكاره لستر عجزهم عن محاكاته.

لقد تلى ذلك توكيد ما يدفع الشكوك المفتعلة عند هؤلاء الضالين، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة:١٢٨)، توكيد الرسالة الدالة على تشريف القوم، فقد كان الرسول بينهم من أشرف أصل، فعدنان أو قحطان متصلان، به فكيف ينكرون هذا الشرف والعز والتكريم، ويطلبون رجلاً من القريتين عظيماً، إنه الحسد والبغى على أنه تعالى قد صوّر نبيه بالطهارة، ورفع المكروه عنهم، والحرص على إيصال الخيرات، والرأفة والرحمة هما من صفات الواحد الأحد، فكان الأحق بالفعل أن يقبلوا عليه ويفخروا به.

لكن الحسد كما قلنا أعمى قلوبهم، ولذلك طلب إليه مولاه وناصره وراعيه أن يفوض أمره، فهو فى كفالته مهما يقع منهم من مكر وتنكيل ومطاردة، وحين تقرر هذا كله جاء مفتتح سورة (يونس) بما يربط بين الاتجاهين، فقال - جلت حكمته - ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ (يونس:٢).

ووجه الترابط أنه تعالى قال فى آخر سورة التوبة: من ﴿أَنفُسِكُمْ﴾ وهنا قال: ﴿إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ ، وهناك نظر بعضهم إلى بعض وهنا قالوا: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾.

فالمنافقون أنكروا سراً، وهؤلاء جاهروا بالإنكار، والأولون عقابهم شديد: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ (النساء:١٤٥)، لأنهم يجمعون بين جريمتى الكفر والخداع ، وفيهما ازدواج لعين، فحقت عليهم كلمة العذاب الأليم.

على أن الاستفهام عن تعجبهم فيه غير الإنكار، وتعجب من شأنهم، فالرسول الأعظم ﷺ منهم تشرفهم رسالته، فقد جاء يصلح من شأنهم، ليعبدوا الله حق عبادته، ويتعرفوا على ذاته العليا وصفاته، من إبداع مخلوقاته تفضلاً وكرماً ورحمةً: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧).

ووجه التعجب من حالهم أن الرسول معروف لديهم بأمانته وصدقه واستقامته وشرف أصله وعفته، وعدم تعرفه على كتب سابقة يعمل على مثالها: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ (العنكبوت:٤٨)، لكنهم أسرفوا على أنفسهم فى الإنكار حتى نسبوا القرآن الكريم إليه وأنه سحر وكهانة وأساطير الأولين.

إن دعوى (السحر) فيها الاعتراف بقوة تأثير القرآن الكريم على النفوس إذا خلصت من ظلام الجحود، وتطلعت إلى أنوار الآيات الوضيئات، فاتجهت بروحية صافية إلى الملأ الأعلى، تسبح ربها بالغدو والآصال، معترفة بجلال حكمته، وكمال صنعته، فأدركت بعد إشراق روحها سر الكون العظيم للواحد المعبود: الله رب العالمين.

الربط بين آخر سورة (يونس) وأول سورة (هود):

قوله فى آخر يونس: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ﴾ .

وفى أول هود: ﴿الٓر ۚ كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ ، فجاءت خاتمة سورة يونس تؤكد صدق ما ينزل على الرسول الأعظم من جلال آى قرآنه مع الأمر باتباعه، والصبر على مكاره الذين يصدون عنه، إلى أن يفصل الله بحكمه العادل، فينتصر الحق على الباطل، وهو أحكم العادلين، وفى توجيهه تعالى درس لأصحاب رسالات الإصلاح الذين يهبون نفوسهم فى سبيل نشر المبادئ الإنسانية الفاضلة، لكنهم يُصْدَمون بشهوات النوازع البشرية، التى تريد عدم تقويم الغرائز؛ لإبقاء مظاهر الحياة بحب التسلط وسلب الحقوق لطلب السيادة الزائفة.

وكان من رائع التلاقى بين (الاحتكام) و (الحكمة) قول الحكيم فى مفتتح سورة (هود) ﴿الٓر ۚ كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ فهناك إحكام وتفصيل وحكمة وخبرة، وكلها مشيرة إلى منتهى السداد فى الدلالة على أن ما أوحى إليه لن يعلق به خلل، إذ أن معانيه غير متناقضة، وقد حوت العدل والتوحيد، والنبوة والمعاد، وألفاظه بلغت حداً لا يمكن مجاراتها، وعلومه جامعة لطالب العلوم النظرية والتطبيقية والنفسية، وقد فصلت بدلائل التوحيد، وإيراد الأحكام، وتصوير القصص فى أسلوب لا يطاول، مع التفريق بين الحق والباطل.

وإن المتأمل فى هذه الآية الكريمة يصل إلى روعة الصياغة، فقد ذكر العلى العظيم الأحكام والتفصيل فى كلمة عظيمة، ثم ذكر أنها من عنده بعد أن أحكمت بحكمه، وفصلت بخبرته، فليس لأحد الاعتراض على ما أتى فى الكتاب، إلا من غلف قلبه بغلاف الجحود، وغشى عقله غشاء العناد.

إن المنكر الجاحد مغيظ، لأنه يعارض فى غير حجة، ويجادل بلا دليل — وهذا

يستدعى الصبر الذى جاء آخر سورة يونس، فما أجل الربط وأروعه !! – على أن عاقبة الصبر النصر بعد أن تتضح الحقائق مبددة الأباطيل، فترجع النفوس عن جحودها، حتى تتعلق بالحق فتنصره وتدافع عنه.

إن واقعة سيدنا عمر ﷺ معروفة حين سمع أخته تردد: ﴿طه ۞ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۞ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ (طه:١-٣)، فسبحت روحه فى عوالم روحية ذوّبت ما كان فى صدره، وذهب إلى الرسول الصابر الشاكر معلناً إيمانه الحق، من أن كتاب الله من وحى السماء وأنه فداؤه، والله أعلم.

الربط بين آخر سورة (هود) وأول سورة (يوسف):

يقول الله تبارك وتعالى فى آخر هود: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ .

ويقول تعالى فى أول يوسف: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ ونقول: إن التطلع إلى الغيب استشراف إلى ما تفرد الله بعلمه، وهو منتهى المطاولة من العباد؛ لأن كل ما يقع فى الكون مرجعه إلى الله وحده، فليس للعبد سوى التفويض إليه، وهو مطلع على المكنون مقدر المكتوب.

والمرء مرتبط بماضيه ومباشر حاضره ومتطلب مستقبله، وهو لهذا يرتبط بحب معرفته تعالى، وهو موجود بصفاته العليا الكاملة، والكون كله يرى دلائل علمه وقدرته بما أودع وأبدع، وقد نص عليها آخر سورة (هود) فى قوله – جلت حكمته: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (بتمام علمه) ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ (بعظمة قدرته).

ولما كان الاعتراف بهما داعياً إلى الإقرار بوجوده، قال المعبود الواحد: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾، ولما كان العابد قوى الرجاء فى القبول قال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ، لتوكيد واسع اطلاعه بالنفى القاطع للغفلة.

فإن اليهود قد طلبوا إلى كفار قريش أن يسألوا الرسول ﷺ عن سبب انتقال آل يعقوب من الشام إلى مصر - وهو أمر مغيب عنه لا يعرفه - ارتبط مفتتح سورة (يوسف) بمختتم سورة (هود) بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من حيث قال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف:٢)، وفى هذا النص بيان مدى إعجاز القرآن فى أنه اللسان العربي، وهم عاجزون عن محاكاته، أو معنى ﴿الٓر﴾ فما بال اليهود الذين ينكرون الرسالة وهم غير عارفين بأسرار هذا الكتاب، بل يريدون تعجيز الرسول ؟

لكن المولى — علام الغيوب — قد أفحمهم بذكر القصة التى كانت غائبة عن رسوله، وقد جاءت مفصلة أروع تفصيل فى أبدع أداء بقول العزيز الحكيم: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ﴾ (يوسف:٣)، والأسلوب بالغ منتهى الدقة فى الرد على المنكرين، ثم توكيد صدقه بالوحي، حتى يعلم القصة المرادة، التى لا زيف فيها ولا تحريف، كما يفعل اليهود، وفى هذا غاية التهكم عليهم، وافتضاح أمرهم إن كانوا يعقلون!.

وقد رفع المولى عن نبيه (الجهل) بذكر الغفلة تكريماً لمنزلته، وإيماء إلى أنه عليه الصلاة والسلام فى حال مهيأة للعلم بإيحائه تعالى من دون أن يأتى من عنده بحسب هواه.

وفى هذا السياق العجيب مصادرة لدعوى اليهود من ناحيتين ناحية أن القرآن الكريم مبرأ من كل عيب، وناحية أن الموحى إليه لا يمنع عدم تعرفه القصة تطلعه للعلم، وأمانته عند التلقي، فمن غفل وأراد أن يعلم أشرف ممن علم وزيّف علمه: شأن اليهود.

وهناك خاطر — فتح الله به علينا — وهو ما جاء فى قصة يوسف من أمور مغيبة عن أبيه وإخوته من حيث حسدهم له وغدرهم به فى التخلص منه، غير عارفين أن لله غيب السموات والأرض، وأن يعقوب قد فوّض أمره إلى الله، حين حكى

القرآن مقالته: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ (يوسف:١١٨).

ففى آخر سورة (هود) غيب وتفويض، وسعة علم، وفى قصة (يوسف)، مآل: لم يعلمه إلا علام الغيوب، وترقب مع الصبر، ونهاية نصره على الكائدين، فالربط بينهما واضح.

الربط بين آخر سورة (يوسف) وأول سورة (الرعد):

فآخر يوسف: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

وأول الرعد: ﴿المر ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ۗ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

فقد كان فى قصة يوسف التأمل، والتفكير، والعبرة، ثم الحكمة والقدرة. ولما كان عرض هذه القصة مصدقاً له جاء فى مختتم السورة: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ - وجاء فى مفتتح سورة الرعد الربط والتلاقى فى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ﴾. فقد أخبر المولى - جل شأنه - بقوله: ﴿وَالَّذِي أُنزِلَ﴾، بالاسم الموصول، وله فى اللغة منزلته من حيث جعل صلته الإنزال من ربه، ثم أخبر عنه بأنه الحق لا يشك فيه إلا مكابر أو معاند، وهذا كله مرتبط بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾، فهو صادق بصدق حوادثه، وعدم القدرة على الطعن فيها، وقد ثبت أنه حق ؛ لأن كل ما كان صدقاً صار حقاً.

ومن رائع الاتساق، ولامع الائتلاف قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، مع قوله: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

إن الإيمان ثابت لكل مصدق للرسول، الذى لا ينطق عن الهوى، بعد إيراد

قصة يوسف، وفيها الهدى والرحمة، إلا أن المكابرة ما زالت تنكر على الرسول رسالته، حسداً وبغضاً من اليهود الذين كانوا لا يريدون الكتاب منزلاً بعد التوراة ناسخاً ما بدلوه، بعد أن صاروا يحرفون الكلم عن مواضعه، ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ (البقرة:١٧٤)، لأنهم قوم مال، لا همّ لهم إلا جمعه من أى سبيل، وهذه طبيعتهم منذ القديم، وبلغ من غرورهم أن نسبوا إلى الله الغنى عن العالمين (الفقر) فقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ (آل عمران:١٨١)، ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ (المائدة:٦٤).

لقد كان فى الرد عليهم إيجاع وإيلام من حيث قيدت أيديهم فصاروا أشحاء على الخير، وطردوا من الرحمة، وشردوا فى الأرض.

وحين نسبوا القبض إلى مالك السموات والأرض جعل يديه مبسوطتان، يعطى من خزانته ما يشاء من يختار من عباده المخلصين، ولا شك فى أن ذكر اليدين – فى جانبه تعالى – لمشاكلة ما قالوه، فهو مخالف بوجوده القديم عن صفات الحوادث.

إن ربط القصة بالنظر فيها مرتبط بوجوب التأمل فى إبداع خلقه؛ حتى يستقر الإيمان استقراراً عميقاً، ولا يكون هناك تردد فى قبول دعوة الرسول خاتم الأنبياء وسيد المرسلين. لقد أورد الخالق – مبدع الكون – قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾، والقدرة على غير مثال سابق داعية إلى التفرد، تتعلق الوحدة فى رفع السموات بغير عمد مرئية ممسكة بقدرة علية، والله أعلم.

الربط بين آخر سورة (الرعد) وأول سورة (إبراهيم):

فآخر سورة الرعد: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

وأول إبراهيم: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾.

إن إنكار المنكرين لرسالة الرسول الأعظم: منكر عليهم، فقد تبين الحق، واتضحت الدلائل، ولمعت البواهر، فكانت شهادة الله تبارك وتعالى له بالمعجزات الدالة على صدقه مما يوجب القطع، ويدفع الحجة الباطلة بعد إثبات العجز عن المحاكاة، – أما شهادة الذين آمنوا به من أهل الكتاب العالمين، فقد أثبتت أن الرسول الأمين مبشر به فى الكتب المنزلة، لكن عماوة الحسد تغطى حقيقة الواقع.

فإن الربط بين آخر سورة الرعد فى تصوير الكتاب المنزل - وهو القرآن – متصل بأول سورة إبراهيم، الدال على أن الكتاب الذى ينكره منهم هم فى الظلمات، إنما هو مطابق لسابقه، وفى هذا الربط إفحام لهم وتسجيل عنادهم.

وجاء فى مفتتح سورة إبراهيم ذكر (الظلمات) لأنها تتناول ظلام الفكر، والقلب، والمعتقد، وجاء (النور) مفرداً لما فيه من الوصول إلى الغاية، ما دام هناك إشراق نفسى يتقبل سطوعه، ويجاوب طلوعه، لأن النظر والاستدلال بالتأمل وحسن التفكير يدل على العقيدة السليمة، والوصول إلى الإيمان الصحيح مرتبط بتوفيق العليم الخبير: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ (الزمر:٢٢).

لذلك كان منشرحو الصدور موجهين إلى الخير بتوجيه الرسول، وترشيده بعد معرفة أسرار الكتاب المنير. ولما كانت استقامة الفكر موصلة إلى الطريق السديد، ذكر المولى عز وجل : ﴿صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ وقدم العزة على الحمد، لأن القدرة مع العلم والإرادة قد أحاطت بما يقع حتى يحمد تعالى على بدائع خلقه وروائع إبداعه فى ملكه الذى لا ينازع، بعد أن قال جلت حكمته: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (إبراهيم:٢). والله أعلم.

الربط بين آخر سورة (إبراهيم) وأول سورة (الحجر):

فآخر سورة إبراهيم: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

وأول سورة الحجر: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾.

فحين صور الله – تبارك وتعالى – حقيقة وجوده فى إبداع موجوده صوّر يوم القيامة ليدل على صدق تبليغ الرسول الصادق الأمين بعد إنذار المكذبين، مع أن ما أتى به رفيع المكانة فقال – جل وعلا- : ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾

ولقد عرف الكتاب للكمال البالغ حداً لا يوصف، إذ لا يمكن استغراق كماله، ويقال على الألسنة (هو الرجل) يعنون الكمال فى رجولته من دون النص على صفات تحدد كماله، فالإطلاق أعم، والعموم فيه استغراق دال على منتهى الكمال.

ومن العجيب أن يأتى (قرآن) منكراً دلالة على تفخيمه لما جاء فى السورة من عجائب حال المنكرين على صور لم تقع فى خاطرهم، وإن ثبتت دلالتها بلغتهم والوصف بـ (البيان) تعريض بهم؛ لأنهم لم يعملوا فكرهم، ليتأملوا العبر فيه مع إشراق جوانبه، ووضوح مناحيه، لأن العناد قد غطى بصائرهم فلم تبصر دلائله الواضحة: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ .

لقد كان فى قوله تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾، دلالة على أن معرفة الحق واضحة مهما يظل عناد المعاندين لها، والتعبير بالفعل (يود) دون (يريد) فيه من التعلق بالإسلام بعد وضوح آثاره فى النفوس، وظهور دلائل عظمته، ما يجعل الرغبة شديدة فى ترك الشرك والرجوع إلى الحق.

ولقد اتجهت الهمم إلى تعليل هذه الودادة مع الإصرار على الإنكار بقلة اعترافهم حين يفيقون من ذهولهم يوم القيامة؛ لشدة ما عاينوه من العذاب، أو عند معاينة الموت.

يقول (ابن مسعود): «حين يرى الكفار غلبة المؤمنين ونصرتهم فى الدنيا يوم (بدر)» أو حين ملكهم أرضهم وأموالهم. وقال ابن عباس: حين يخرج عصاة المسلمين من النار أو حين الشفاعة. وكلها تخريجات من فتوح الله عليهما.

ولما كان الربط قائماً على تصوير حالة الكافرين من إصرارهم على الشرك مع الدلائل الواضحة جاء ما يؤكد أن (الطبع غلاب) فهم مهما يقع ودهم الرغبة فى الإيمان، مازالوا مصرين بالعناد على الإلحاد شأن الجامدين المنكرين: ﴿ذَرْهُمْ

﴿يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (الحجر:٣)، ولقد أثبت لهم الأكل، والتمتع والتلهى بالأمل، لغلبة شهواتهم على روحانيتهم، وتعلقهم بظاهر الحياة الدنيا.

ومن هنا يقوم الدليل على أنهم حين يعاينون – فى الآخرة – مرتبة المؤمنين وما نالوه من نعيم يتمنون أن يكونوا مثلهم بعد فوات الأوان.

وإن القرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً، وقد تجلى تصوير حال المنكرين فى الأكل والتمتع مع إبعاد صفة الإنسانية منهم، فسجَّل الله عليهم أنهم يأكلون ويتمتعون كما تأكل الأنعام، والنار مثوى لهم. والله أعلم.

الربط بين آخر سورة (الحجر) وأول سورة (النحل):

فآخر سورة الحجر: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ۝ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ .

وأول سورة النحل: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

فقد أمر الله تعالى رسوله المختار ﷺ آخر سورة الحجر بأربعة: التسبيح، والحمد، والسجود، والعبادة. بعد أن ضاق بمكر الكافرين وتقولهم الباطل، وإصرارهم على الإنكار، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ۝ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾، وفى هذا تطييب نفس له ﷺ فليس هناك من دافع للضيق أفضل من ذكر الله -عز وجل- ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ .

واتجه ابن عباس- رضى الله عنهما – إلى أن اليقين هو (الموت) وفيه طلب استدامة الدعوة إلى ربه طول حياته، ولقد فتح الله علينا بما يفيد تيقن النصرة على أعدائه فى الدنيا واستدامة العبادة للواحد إلى الآخرة، لخلود هذا الدين. والله أعلم بمراده.

وحين أمر المولى رسوله بطرد الضيق عنه أكد فى مفتتح سورة النحل بتحقق

ثبات الحق بما يدخل الطمأنينة فى صدر الرسول الكريم فقال جل وعلا: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

وروعة الربط تتجلى فى قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾، وقوله: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ (الحجر:٩٨)، فإن تنزيهه تعالى: ﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ محقق، ونزول ما أنذرهم به واقع، ولقد كان الرسول الأعظم يخّوف المشركين بعذاب الدنيا فى قهرهم والنصرة عليهم، كما حدث فى غزوة بدر، ويخوّفهم بيوم القيامة حين يحق الحق ويبطل الباطل، وكانوا دائماً يستعجلون وقوع ما خوّفهم به: ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖ﴾ (الأنبياء:٣٧)، لكنه -وهو الرءوف الرحيم- كان يمهلهم بمقتضى أمر ربه: ﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا﴾ (الطارق:١٧)، حتى يزدادوا فى الإنكار، فتزداد عقوبتهم: ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ﴾ (الأعراف:١٨٣).

ولقد أتت آيات تحقق وقوع المزيد المخيف التى ترتعد به نفوسهم فى قوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ (القمر:١)، و ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ (الأنبياء:١)، وحين لم يشاهدوا شيئاً من التخويف أخذهم الغرور، واتهموا الصادق الأمين بالكذب، ولهذا نهاهم القادر فى أسلوب زاجر بقوله -عز وجل- ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾ وفيه توكيد صدق الرسول الأعظم على أسلوب رائع، إذ النهى عن الاستعجال يعطى الدلالة على الوقوع الذى لا شك فيه، وبخاصة حين عبر تعالى بقوله: ﴿أَتَىٰٓ﴾ قاصداً تحقيق ما يقع دون قوله: (يأتي)؛ لأن الإرادة الأزلية قد ارتبطت به، ومحال أن تزال عنه فالصفة باقية لا تتغير بتغير الزمان والمكان، فما شاءه واقع لا محالة، ولا شيء يناقض إرادته العلية.

لقد اقترن التسبيح بإبعاد ما أشركوه معه فى عبادته تنزيهاً له، وارتفاعاً عن مستوى معبوداتهم، التى صنعوها من أوهام آبائهم، فقلدوهم من دون إعمال الفكر، أو تفتيح البصيرة، ولهذا طلبوا إلى الرسول الأعظم التسوية بين أصنامهم

التى يدّعون أنها تشفع لهم يوم القيامة، وبين الإله الواحد الأحد، فدفع طلبهم بقوله تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فالخالق الأجل الأعلى متعال عن شركهم، ومحال أن يشفع لهم إذ: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ (سبأ:٢٣). فهو صاحب الأمر كله يوم لا ينفع نفساً إلا إيمانها، حين يتجلى العادل بنور عدله؛ ليحكم بين الناس بالحق.

إن بالتأمل فى مختتم سورة الحجر - فى طلب التنزيه والتسبيح حتى يأتى اليقين- ومفتتح سورة النحل - فى تحقق إتيان أمره تعالى - يتجلى الربط الوثيق فى مدى صدق الرسول السراج المنير. والتنويه بأمانته، فهو: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ (النجم:٣-٤)، ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ (النحل:٢).

الربط بين آخر سورة (النحل) وأول سورة (الإسراء):

فآخر سورة النحل: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝١٢٧ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ .

وأول سورة الإسراء: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ .

فنقول: حين اشتد لجاج الجاحدين على الرغم من الحرص على هدايتهم -وقد عظم إيذاؤهم الرسول وأصحابه – طلب إليه رب العرش العظيم الارتفاع إلى مستوى خلقه الرفيع، ويجادلهم بالتى هى أحسن، على الرغم من شراستهم، وسوء جدالهم، وطرقهم الفاسدة فقال -تبارك وتعالى-: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾. إن من يجادلون على ثلاث مراتب: مرتبة معرفة الحقيقة لذاتها، ومرتبة الفطرة الساذجة، ومرتبة المشاغبة والمخاصمة والمعاندة.

أما أصحاب المرتبة الأولى فهم فى حاجة إلى الحكمة، وأصحاب المرتبة الثانية فيحتاجون إلى الموعظة الحسنة وسهولة الإقناع. أما ذوو المرتبة الثالثة فإقناعهم بالمجادلة ونقض ما اعتقدوه.

وعلى ضوء هذا التحليل كانت دعوة الرسول ﷺ لينة يستجيب لها أصحاب العقول الراجحة. والفطر السليمة، لكنها مع المنكرين صعبة شديدة، تحتاج إلى صبر كثير وكفاح عظيم، ولهذا أمر المولى – عز وجل– نبيه الصادق باستدامة الدعوة وعدم الجزع على ما يقع، وبسطة النفس عند كل ضيق فى هذا التوجيه إلى كل داعٍ إلى الحق.

نقول: إن الرسالات الإنسانية الفاضلة يبقى أثرها، مهما يطل إنكارها تنتصر على معارضيها، ما دام هناك عمق إيمان بها. ولقد جاء مفتتح سورة الإسراء بتسبيح الله، البعيد عن النقائص فقال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾.

وسياق هذا القول الكريم بعد دعوة نبيه إلى إفحام المنكرين بالأدلة الناطقة الواضحة الدالة على صدقه – آخر سورة النحل – ، فأقام الدليل الذى لا يجحد من انتقاله فى بعض وقت من الليل مما لم يصدق فى ظاهر المألوف ما بين المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وإضافة العبودية له تعالى تشريف لشأن الرسول، وتوكيد لفضله، ودلالة على قربه من ربه.

لقد روى أنه حين صعد إلى أعلى الدرجات فى عروجه إلى السماء سأله صاحب الجلال عن تشريفه، فطلب نسبته إلى نفسه بالعبودية، فكان له ما أراد، ونعم هذا التشريف!

لقد كانت المعجزة الكبرى للرسالة العظمى بالقرآن الكريم لكنهم مع عجزهم، واعترافهم فى حقيقة نفوسهم لم يخضعوا للأدلة القاطعة، ستراً لخزيهم وإنكارهم، فطلبوا دليلاً يعاينونه بعيونهم –وهم ماديون فى اعتقادهم– لا يعترفون إلا بالتجسيد، فأقام القادر العظيم حجةً دامغة فى انتقال عجيب غير مألوف، من مكة

إلى المسجد الأقصى، بالجسد والروح بعد أن تكشفت للرسول مكاشفات لم تحصل لغيره بعد صعوده إلى مصاعد التكريم، فرأى الأعاجيب وحدّث عنها، وكان السر فى تحديثه ما رأى من آيات ربه الكبرى، حتى تتقرب النفوس إلى الأجلّ الأعلى، بعد تصاعد الأرواح الصافية إلى قدسيات الصفاء، حيث يتجلى الإشراق فى الرؤيات الباهرات، فالرسول يحث على المجاهدة، لمحاولة تحصيل المعارف الروحية المرتفعة عن الأرض الدنية.

إن المنكرين استمروا فى إنكارهم، ولم يعلموا أن الواحد قادر، وفى قدرته إنفاذ ما يريد، فقد سبق أن أحضر الذى عنده علم الكتاب عرش بلقيس — قبل ارتداد طرف العين — فما بال الصادر عن ذات مقتدرة مختارة عالمة؟ إنه أقوى وأفعل، لكن مجرد الإنكار دافع إلى المكابرة التى لا تغنى عن الحق شيئاً.

نقول: إن الربط بين آخر سورة النحل وأول سورة الإسراء واضح الدلالة، فالصبر مع المكابرة، يتبعه عظيم الأجر، وجمال الأثر، ورفعة القدر، ولما كان الحادث العظيم سيجلب الشكوك، ويدعو إلى التعجب، ارتبط الصبر بهذا الموقف، ولقد وجد الرسول الأعظم من أبى جهل كثيراً من التنكر والشر، لكنه لم يأبه برعونته وطيشان فؤاده ما دام الرسول قد وصل إلى سدرة المنتهى، وفيها وقع التجلى الأعظم، والله أعلم.

الربط بين آخر سورة (الإسراء) وأول سورة (الكهف):

فآخر سورة الإسراء: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ .

وأول سورة الكهف: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾ .

إن تحقيق الملك لله — جلا وعلا — لا ينازع، فقد تجلت الآيات على تفرده بالأدلة المقنعة، لكن المنكرين أصروا على ما هم فيه من ضلالة، وقد ختم العزيز

الحكيم سورة الإسراء بالطلب إلى رسوله ملازمة حمده على نعمائه بالرسالة، واصطفائه بالبعد عن ضلال الشرك، لأن حقيقة الدين واضحة بالتوحيد، فالواحد الأحد الفرد الصمد لم يتخذ ولداً يتقوى به، أو شريكاً يعاونه، أو ناصراً يعاضده شأن المحدثين، فهو كفء للخلق والإيجاد بالقدرة الواحدة، وهو المستحق إلى تجديد التكبير تعظيماً لجلاله المرتفع عن الحوادث.

نقول لقد جاء مفتتح سورة الكهف: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾ بعد أن جاء فى الاسراء قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَـٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ (الإسراء:١٠٥) ، ودعا الرسول إلى ملازمة الحمد ولهذا كان التنوية بنزول القرآن حقاً لا باطل فيه وقد تلاقى مع قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾، فالكتاب المنزل فى غاية الاستقامة، ولا تناقض فيه أو التواء، ولا تضارب بين ألفاظه ومعانيه، بل هى على سواء، والقرآن جامع كل أمر جليل به سعادة الدنيا والآخرة بتقدير العزيز الحكيم.

لقد كان من جمال الربط الدلالة على صدق رسالة الرسول الأعظم ﷺ ما حكاه عما شاهده فى معراجه بسورة (الإسراء) وما يحكيه عما طلبه المشركون من أحبار اليهود بالمدينة – وهم أهل كتاب – على لسان (النضر بن الحارث) حتى يعجزوا الرسول – فى اعتقادهم – بأسئلة يسألونها ، فطلبوا سؤاله عن الفتية الغائبين فى الزمن: ما حالهم العجيب ؟! وسألوه عن رجل طاف الدنيا، ثم سألوه عن الروح، وحين نزل عليه الوحى أجاب عن اثنين بحسب ما جاء فى سياق السورة، وتوقف عن معرفة الروح كما جاء عن ربه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ .

قال اليهود – وهم ماكرون –: إذا أجاب محمد بأية إجابة سوى ما ذكر الله فى أن الروح من أمره كان موضع الشك، لكنه ينطق عن الوحي، ونحن نقول: والفضل ما شهدت به الأعداء!! لكن العناد والحسد والإنكار تعارض البدهيات، وتنكر الواضحات، فلم يزالوا على جحودهم قائمين بمكرهم حسداً من عند أنفسهم.

نقول: إن الربط بين سورتى الإسراء والكهف من جهتين: جهة نزول القرآن على الرسول الصادق الأمين، وجهة إثبات الحمد لله تعالى على نعمة التوفيق فى أداء الرسالة، مهما يصادفها من تعويق وعدم تصديق.

إن جمال التوفيق فى التعبير بقوله تعالى: (عبده) فى السورتين: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ ووجود (التسبيح) فى مقام الإسراء له دلالته الجلية فى تجليات السماء، ووجود (الحمد) فى مقام إنزال القرآن له دلالته فى تعظيم نعمة الرسالة، وهذا التخريج من فتوح الله علينا بالفتوحات الربانية، فله الحمد على نعمائه.

نقول: إن التأمل فيما جاء بالسياق بعد منع (المعوج) عن القرآن فى إنزاله قيماً لإثبات الاستقامة مع تصديق الكتب قبله وفى هذا تعريض بالمنكرين؛ لأنهم حين ينكرونه إنما يدفعون ما جاء فى كتبهم من إثبات النبوة لسيدنا محمد المسمى (أحمد) والحمد لله رب العالمين.

لقد ارتبط بالقرآن أمران عظيمان فيهما روح الرسالة من حيث إنذار المخالفين، وتبشير الموافقين بعد تمام اليقين، فقال المولى -عز وجل-: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾.

ومن جمال (المقابلة) قوله: ﴿بَأْسًا شَدِيدًا﴾ و ﴿أَجْرًا حَسَنًا﴾ وكنى فى كلٍّ عن التعذيب فى الدنيا والآخرة أو التنعيم بالجنة.

ومن لطائف الكمال قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، ليدل على أن الأجر الحسن مرتبط بالعمل الصالح، وأن الإيمان لا يكفى إلا إذا صاحبه السلوك السليم.

نقول: إن هذا السياق الرائع فى تلاقيه العجيب لا يمكن أن يتوفر فى غير كلام العزيز الحكيم، وفيه الحق الذى أحق أن يتبع عند أصحاب البصائر النيرة بنوره المشرق فى الكون كله.

الربط بين آخر سورة (الكهف) وأول سورة (مريم):

فآخر سورة الكهف: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾.

وأول سورة مريم: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ .

الاعتراف ببشرية الرسول الأعظم يدفع ما ادعاه الأدعياء من أنه أعطى قدرة (السحر) حتى يخلب العقول ببيانه، ولقد كان ختام سورة الكهف الاعتراف بما كلفه الله من الإقرار بوحدانيته والخلوص لعبادته وحده، وحب لقائه -عز وجل- بالعمل الصالح.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ فيه إعلام من الله تعالى بصدقه الذى لا يدفع والمثلية فى البشرية مشيرة إلى أن الربانية قد اختارته من بينهم لخصائص ليست فيهم؛ فقد عرف منذ نشأته بملامح فطرية دالة على كمال نفسي، لأنه منع عن فطرته النقية كدورة المعتقد الفاسد، وتجنب عبادة قومه بإلهام ربه، وتوفيقه إلى الانفراد؛ للتعرف على جلال ذاته تعالى، وقوله:﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ بيان أنه يتلقى أوامر خالقه الواحد من دون تغيير فيها، وهم يعلمون (صدقه) و (أمانته)، فكيف ينكرون عليه قرآن ربه ؟!

ولما كان صميم العقيدة فى (الوحدانية) نص عليها بعد الإيحاء لصداقتها، فقال – عز وجل-: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، وهو توكيد محصور بوحدة الألوهية (ما الله إلا واحد) لدفع ما نسب إليه من الشريك، والعمل على توكيده فى النفوس بذلك الأسلوب الرائع.

ولما كان الاعتراف بوحدة المعبود يتبعه الإيمان بما نزل على عبده تلاقى ففتح سورة مريم بالإعجاز الدال على كمال الكلام القرآنى بقوله تعالى: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾، وخير ما يقال فى الحروف التى تتصدر بها السور القرآنية: إنها مظهر لعجز أفهامهم عن سرها – وهى من لغتهم – فعلم الله وحده مرتبط بهذا السر.

لقد رد العزيز العليم على ما طلبه المشركون على لسان اليهود من قصص سابقة وحوادث غير مفهومة لرجل أمي، وكان فى سورة الكهف منتهى الإعلام ربط الخالق الواحد القصص العجيبة الواردة فى سورة مريم، حتى يكون التحدث عنها كلها بعلم من الوحي، لرد عناد المعاندين، الذين يعترفون بحقيقة هذه القصص، ثم ينكرون ورودها على لسان النبى الذى لا ينطق عن الهوى.

ومن جمال الإشارة ذكر قصة السيدة (مريم) والسيد (عيسى) عليهما السلام، مع قوله تعالى فى آخر سورة الكهف: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾، لأن الإله القادر على ولادة يحيى من شيخ فانٍ وزوج عاقر، وولادة عيسى من غير أب، إن هذا الإله جدير بالعبادة والوحدانية له تعالى.

وقد اقتصرت على الكلام على موضوع الربط بين السور بعضها ببعض إلى آخر سورة مريم مخافة التطويل والسآمة، إذ أنى قد ذكرت لموضوع الربط هذا والمناسبة بين السورة والآيات فصلاً كاملاً فى نفس الكتاب فى الجزء الثانى منه، فارجع إليه إن شئت، والله يوفقك.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم



أهـم مراجـع هـذا الكتـاب

١ - القرآن الكريم وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام.
٢ - الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى.
٣- مباحث فى علوم القرآن للقطان.
٤ - البرهان للزركشى.
٥ - مناهل العرفان للزرقانى.
٦- مع القرآن الكريم للدكتور شعبان إسماعيل.
٧- النفحات الربانية فى الربط بين السور القرآنية.
٨- التبيان فى آداب حملة القرآن للنووى.
٩- شبهات مزعومة حول القرآن الكريم وردها للمؤلف.
١٠- تاريخ المصحف للشيخ القاضى.

❁ ❁ ❁ ❁

الخاتمة

الحمد لله في البدء والختام، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، عبد الله ورسوله، الذي كان هو أول البدء وآخر الختام، عليه وعلى آله وأصحابه أتم الصلاة وأزكي السلام، وبعد: فبتوفيق الله وعونه تم كتاب الإيجاز والبيان في علوم القرآن الذي اشتمل علي مقرر السنوات الثلاث من تخصص معاهد القراءات في علوم القرآن والله وحده أسأل أن ينفع بهذا الكتاب كما نفع بأصله، إنه سميع الدعاء مجيب النداء.

﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ (الصافات:١٨٠).

❁ ❁ ❁ ❁


فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة